# الإسلامُ وزَيفُ الأُقلام

الجُزءُ الأوّل

## إبراهيم عليه السّلام

تأليف

محمّد محيي الدّين حمادة

قدّم لهُ

الدكتور مصطفى سعيد الخن

الأستاذ محمّد خير الطرشان

دار اقرأ



## الجزء الأول

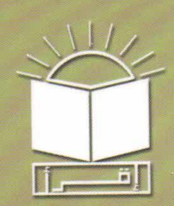
# إبراهيم عليه السلام

سلسلة علمية هادفة بأسلوب جديد معمّق و ميسّر

تقوم على دراسة منهجية علمية لسيرة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، في ضوء علم مقارنة الأديان، وعلم المكتشفات الأثرية وعلوم النظر والإستدلال

في نقد ما زيّفتْه الأقلام اليهودية، ومَن نحا نحوها

وفي دحض ما فتحَتْه على البشرية من ظلم و ويلات.



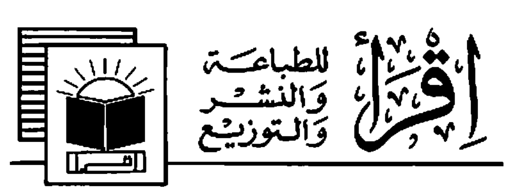

دمشق . سوريا . حلبوني . شارع مسلم البارودي . بناء فندق سلطان
تلفاكس: ٢٢٣٩٠٣١٠ ص.ب ٥٩٥٧

# الإسلامُ وزَيفُ الأقلام

الجُزءُ الأول

إبراهيم عليه السّلام

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م




سوريا - دمشق - حجاز - شارع مسلم البارودي - بناء فندق سلطان
هاتف/فاكس: ٢٢٣٩٠٣١ - ص.ب: ٥٩٥٧

# الإسلام وزيف الأقلام

## الجزء الأول

# إبراهيم عليه السلام

سلسلة علمية هادفة بأسلوب جديد معمّق وميسر، تقوم على دراسة منهجية علمية لسيرة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، في ضوء علم مقارنة الأديان، وعلم المكتشفات الأثرية، وعلوم النظر والاستدلال، في نقد ما زيّفته الأقلام اليهودية، ومن نحا نحوها، وفي دحض ما فتحته على البشرية من ظلم وويلات.


تأليف

محمد محيي الدين حمادة

قدّم له

الدكتور مصطفى سعيد الخن    الأستاذ محمد خير الطرشان



دار اقرأ




الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئُ مزيده، ياربّنا لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم اهدنا سواء صراطك المستقيم.

# إهــــداء

إلى مَنْ أرضعتني معاني التوحيد مع كل قطرة من لبانها الطاهر ........................................ والدتي

إلى مَنْ غذّاني بالأدب والشكر للخالق والمخلوق منذ الحَبْوِ الأول ........................................ والدي

إلى مَنْ اختارتها الأقدار لتكون رفيقة الدرب ..................... زوجتي

إلى مَنْ غرسوا في عقلي حقائق الإسلام الناصعة، وموازين العلم الساطعة، ووصلوا بشريانٍ من ذكر الله عز وجل بين عقلي وقلبي، حتى أثمرت في فؤادي شجرة الإيمان............. أساتذتي(١)

إلى الذين ألهبوا قلبي بمشاعر الإيمان والتضحية والجهاد، حتى ألهمني الخالق الكثير من أفكار هذا الكتاب، من وحي انتفاضتهم الماضية رغم تخاذلِ القادرين على نصرتهم ........ أبطال انتفاضة الأقصى المباركة من نساء وشيوخ وأطفال داخل الأرض العربية المسلمة فلسطين، من البحر إلى النهر

إلى كل مسلم ومسلمة في هذه الدنيا، وإلى كل عربي حر، وإلى كل متحرر في الأرض يبحث عن الحقيقة، ويعمل لأجلها، دون أن يعطل آلة الرؤيا عن مشاهدة نورها الساطع.

## أُهدي هذا الكتاب

---

(١) أخص منهم: العلامة الشيخ حسين خطّاب شيخ القراء بدمشق عليه رحمة الله.

: وولدَيه الشيخ رياض خطّاب والشيخ ضياء الدين خطّاب حفظهما الله.

: وخليفته في مشيخة القراء فضيلة الشيخ محمد كريم راجح بارك به الله.

: كما أخص فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور مصطفى ديب البغا نفع بهما الله.

: وكذلك فضيلة العلامة الدكتور مصطفى الخن الذي علمني وشجعني على الكتابة والتأليف أدام عزه الله.

: وفضيلة الشيخ خالد الجباوي الإمام المتقدم في علوم العربية والتفسير سائلاً المولى له الشفاء التام.

: وأخيراً الأستاذ نضال المهايني الذي كان لي شرفُ حفظ كتاب الله تعالى غيباً على يديه، جزاه الله وجزاهم عني خير الجزاء

# مقدمة فضيلة العلامة الشيخ الدكتور مصطفى الخن
# (حفظه الله تعالى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لاشيء قبله، ولاشيء بعده، الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

الحمد لله الذي أذل دولة الباطل، وأعلا كلمة الحق ولو كره الكافرون، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وجاءت رسالته عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسالات السماوية القائل: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويته فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» فالرسالات السماوية جميعها تلتقي على الإيمان بإله واحد لاشريك له ولا مثيل.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي بشر بإدالة دولة اليهود مهما قويت شوكتهم فقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح « لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يامسلم ياعبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » وصل وسلم وبارك على آله وصحبه الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أوصلوا هذا الدين إلى مشارق الأرض ومغاربها، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فما أظن أنه قد مرّ عصر من العصور على البشرية كانت بحاجة أكثر من

حاجة هذا العصر إلى كشف حقيقة اليهودية وبيان ألاعيبها وكذبها وتدجيلها وطرق استيلائها على مقدرات الأمم، وكيفية أساليبها للسيطرة على عقول الناس وأفكارهم وثرواتهم وألوان معيشتهم.

لقد أصبحت هذه الفئة من الناس تملك من القدرات العلمية والاقتصادية والسياسية والإعلامية وغير ذلك ما تستطيع أن تحقق جميع ذلك، وأصبح عندها من الأساليب ما يجعل إبليس وأعوانه يقفون صاغرين مطأطئي رؤوسهم اعترافاً بخبث هؤلاء ومكرهم.

ولشذوذ هذه الفئة وخطرها على المجتمعات الإنسانية أفاض القرآن الكريم ببيان أحوالها ونزوعها إلى الشر وإلقاء الفتن بين عامة أصناف البشر حتى يكونوا على حذر منها فقال تعالى في بيان أنه ليس لهم عهود ولا مواثيق وأنهم يعمدون إلى ينابيع الحكمة ألا وهم الأنبياء وخلفاؤهم فيقتلونهم ويشردونهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

وقال تعالى في شأن قلبهم للحقائق وتحريفهم لكلام الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ ﴾ [المائدة: ١٣]

وقال تعالى في بيان إفسادهم في الأرض وإقرارهم انتشار الرذيلة: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا

كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [ المائدة : ٧٨-٧٩]

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [ النساء : ١٦٠-١٦١ ] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي عنيت بكشف حقائق هذه الشرذمة المفسدة في الأرض .

والمتتبع للتاريخ لايرى أن إفسادهم مقصورٌ على حقبة معينة من الزمن ، بل هو شامل لجميع مراحل حياتهم منذ أن وجدوا إلى يومنا هذا .

وما من حرب قامت في هذه الأرض إلا أننا نرى أن جذورها منبعُه من هذه الفرقة الضالة الشاذة .

هذا وقد ألهم الله سبحانه أخانا الباحث المدقق المحقق الشيخ محمد حمادة أن يغوص في بطون التاريخ ويطّلع على المخبّآت من الكتب ويتتبع أخبارهم نابشاً ما اندثر منها في بطون التاريخ ليقدم للمجتمعات الحديثة وللأمم على اختلافها صورة صادقة عن هذه الشرذمة الشاذة عبر التاريخ .

ولقد أظمأ نهاره وأحيا ليله للقيام بهذه المهمة الشاقة التي تتضاءل دونها كثير من همم الباحثين ففند كثيراً من تدجيلاتهم وأكاذيبهم معتمداً على ما ثبت وصح من الأخبار .

ومن العجيب الذي قام به هذا الباحث أنه ردّ عليهم مزاعمهم من بطون كتبهم التي يدينون بها ويؤمنون بها ويعتمدون عليها .

وإنّ القاري لما كتبه الأخ الباحث الكريم أنه ما من مسألة من المسائل التي أتى بها إلا هي مستندة إلى مصدر من المصادر العلمية الموثوقة مما جعل بحثه هذا بحثاً علمياً موثوقاً يعتمد عليه ويوثق به .

ونحن نهيب بالكتاب المسلمين أن يحذوا حذوه في دحض أباطيلهم وكشف خداعهم في هذا الزمن الذي كثر فيه ادعاءاتهم الباطلة وتزويرهم للتاريخ وتلبيسهم

على الناس، وهم قد استولوا على عناصر القوة من مال وعتاد حربي ووسائل إعلام وتأييد من قوى مختلفة إلى غير ذلك.

ولقد قاسى الباحث صعوبة شديدة في تحصيل هذه المصادر الموثوقة.

فنسأل الله سبحانه أن يلهم المسلمين أن يعودوا إلى وحدتهم وجمع كلمتهم ليعيدوا إلى الإسلام مجده وقوته وسيادته وانتشاره في بقاع الأرض، فهو القادر على ذلك، وبيده الأمر، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم هو حسبنا ونعم الوكيل.

الأحد: ٢٠/ ٥/ ١٤٢١هـ

١٩/ ٨/ ٢٠٠١م

د. مصطفى سعيد الخن

## مقدمة فضيلة الشيخ محمد خير الطرشان
## (حفظه الله تعالى)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: فإن واجب «الوفاء» يفرض عليَّ النزول عند رغبة أخي وصديقي الأستاذ الباحث محمد حمادة في قراءة باكورة أعماله المسمّى «زيف الأقلام» والتقديم له رغم اعتذاري بأن مثل هذا النوع من الأعمال العلمية الجليلة القدر جدير أن يحظى برعاية كبار الأستاذة والعلماء، لابصغار طلبة العلم مثلي، مع اعتقادي الجازم بأن تقديم مثلي لكتاب ما لايعد تشريفاً له بقدر ما هو تكليف، ويحمِّل صاحبه مسؤولية قوله، وتبعة أحكامه؛ لأنه ليس من شأن المقدم أن يروج لسوق الكتاب، ولا أن يُلْبس المؤلفَ ثوباً أوسع من إهابه، إنما هو كلمة حق تقال، وشهادة تؤدى أمام محكمةَ لا تعرف المجاملة، قضاتها نخبة من القرّاء والباحثين، المتلهفين للاطلاع على كل جديد، والإفادة من كل نافع...

وبغية الفائدة والاستزادة في العلم، أقبلت على قراءة فصول هامة في الكتاب، ووقفت على مواضع بالغة الدقة، تحتاج إلى إعمال فكر وتدقيقَ نظر، في كثير من قضايا الدعوة الإسلامية.

وممّا أثلج صدري، وزاد في ثقتي بالكاتب تلك المعالجة المنطقية المتأنية، والمحاكمة العقلية المتوازنة، التي قدمها الكاتب لقرائه، في أسلوب سهل وميسَّر، بعيد عن الحذلقة والتعالم والفَيْهقة، خالٍ من الحشو والتعقيد والمعاظلة.

ولعل حاجة الأمة الإسلامية اليوم - باحثين وقراء ومكتبات - إلى مثل هذا النوع من الكتابة ملحَّة وضرورية ؛ إذ تشهد الأمة في هذه المرحلة الزمنية حرباً ضروساً ، وهجمة شعواء شرسة ، وتكالباً مستطيراً ، يهدف إلى هدم بنائها ، وتقويض دعائمها ، وتشويه حضارتها ، من خلال توجيه أصابع الاتهام والتشويه والإدانه ، إلى كل عمل يصطبغ بصبغة الإسلام ويلبس لبوسَه ، ولو كان عملاً ثقافياً أو خيرياً إنسانياً ، يريدون بذلك إطفاء نور الإسلام ووهجَه الوضَّاء ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمعترضون . أجل فما من مكيدة تكاد للإسلام والمسلمين ، إلا وتلوح بفضل الله تعالى في الأفق بوادر صحوة إسلامية عارمة في الشرق والغرب ، تطرح الإسلام بديلاً ، وحلاً جذرياً لمشكلات العالم المتخبط في بحر من الصراعات الفكرية والثقافية والعقدية ، القائم على توازن القوى ، في ظل مايسمَّى بالنظام العالمي الجديد ، أو العولمة ، أو صراع الحضارات .

ولا شك أن هذه الصحوة الإسلامية مبشرة بالخير ، ولا تزال بين مَدٍّ وجزر ، بسبب ما تواجهه من تحديات مظلمة ، من تيار المواجهة المعاكس خارجياً ، وما تعانيه من عقبات من داخلها ، ويقف في مقدمة ذلك الجهل ، والتخلف ، والذهنية المقفلة غير القادرة على التعاون بمرونة وحكمة وديناميكية ، مع تغير الظروف وتطور المجتمعات الإنسانية ، مما أدَّى إلى تراجع الخطاب الإسلامي عن موقع السيادة والريادة ، وعدم أدائه للدور الفعَّال والأمثل ، واكتفائه بالحكم على الأحداث بعد وقوعها ، متخلياً عن التنظير والتخطيط لمستقبل الأمة الإسلامية ، وسبل نهوضها من رقادها ، وأولويات عودتها إلى خضم التنامي المعرفي عندها ، ابتداء من أول آية تشرفت الأرض بتنزلها : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وانتهاءً بالمستوى الحضاري الرفيع الذي عبَّرت عنه الآية الكريمة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]

وتأتي هذه الدراسة القيّمة لتسهم في إضافة لبنة قوية متماسكة ، في جدار الحضارة الإسلامية الراقية ، ولتثري المكتبة الإسلامية بسفر جديد يضاف إلى أسفار عزها الخالدة ، التي ساهمت في صياغة الهوية الإسلامية ، وبناء الشخصية النموذجية المثالية . .

ولست أزعم أن الكاتب جاء بما لم يأت به غيره، لكنْ حسبُه أنه لم يدّخر فيه وسعاً، ولم يألُ جهداً في إيصال أفكاره إلى القارئ الكريم، بأسلوب محكم، ولغة مستأنسة، وهذه أولويات أي كتاب يكتب له التوفيق والنجاح، وينتفع به إن شاء الله تعالى.

فخير الكتب - كما يقول الأستاذ الدكتور مازن المبارك - « هي أن تشدُّ القارئ إليها شداً، وتقدم له الفائدة في ثوب الطرفة، وتغذّيه وهي تمتعه، وتقوّي ثقافته وهي تسليه، فلقد شاع الزهد في العلم، وإنْ كثر طلاب الشهادات. . . ».

ويسبق ذلك كله إخلاص في النية، وحرص على تبليغ الأمانة، وهذا هو عهدي بالأخ الداعية الشيخ محمد حمادة، منذ أن لقيته في أفياء بيت الله الحرام، وتحت ظل كعبته المشرّفة، حيث تعاهدنا على السير بقوة في سبيل الهداية، سالكين طريق التنوير والبصيرة الصادقة، متوكلين على الله سبحانه وتعالى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب مؤمناً يطلب الفائدة، وشارداً يبحث عن الهداية، وتائهاً ضلّت به السبل فهو يقصد الجادّة.

كما أسأل الله تعالى أن يوفق الأخ الكاتب لما فيه الخير، وأن يجعل هذا العمل مقدمة لأبحاث أخرى تقدم الفائدة للأمة الإسلامية.

الله حسبي، وبه ثقتي، وعليه توكلت، وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين.

طيبة دمشق في ١١/ شوال ١٤٢٢هـ

محمد خير الطرشان

معهد الفتح الإسلامي

# المقدمة

الحقيقة العلمية في الميزان الإسلامي تقعُ في قمة المقدَّسات الفكرية، ذلك أنَّ الإسلام الذي ختم اللهُ به الرسالات، ونسخ به الشرائع، ورَسمَ مِنْ خلال مبادئه خريطة العمل الحضاري فوق هذه الأرض، ما كان ليكتسب هذه الاستمرارية، وينبض بالمزيد من النشاط والحيوية في بناء الفكر والتحصيل الإنساني لولا تحريرهُ للعقل البشري من تبعات التقليد والعصبية، ولولا توجيهه للمسلمين إلى تبني ثمراتِ البحث العلمي وتقديسها، مع غضٍّ النظر عن مصدرها، وعن النتيجة التي أوْصلتْ إليها، شرطَ أن يكون البحثُ علمياً، أي: ملتزماً بالضوابط التي ترتقي بكلٍّ من الوسيلة والنتيجة لينأى بهما عن المؤثرات الخارجية من قراراتٍ سابقةٍ للبحث يكتسبها الإنسان من بيئته أو أسرته، فتلتصقُ به حتى تصبحَ جزءاً لا يتجزأ من شخصيته، فإذا بالباحث ينتصرُ لها تحت تأثير هيمنتها وهو يعتقدُ خطأً أنهُ ينتصر للحقيقة العلمية ذاتها!

من الدساتير القرآنية في هذا الصدد قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

آية قرآنية يُلزم بها الباري عز وجل كلَّ مسلم بالرِّضى عن النتيجة التي يسجلها بحثه العلمي في حال تكامل شروطه، وبالسمو فوق أجواء التخبط والوهم، خاصَّة في قضايا الاعتقادِ؛ لأنها رأسُ الأمرِ كله، وقاعدة البناءِ الإسلامي العظيم.

ومن نزاهة الفكر الإسلامي وموضوعيته أنهُ لا يرضى للدين الحق أنْ يُقيم وُجودَهُ في حياة الإنسان ما لم ترتقِ قناعاتُهُ الإيمانية إلى مستوى اليقين المطلق القائم على دعائم العلم وموازينه.

فالإسلام لا يضم بين أفراده امرءاً لم يتوافر في اختياره الإيماني هذه الشروط، كما لا يُكرههُ على الانطواء تحت لوائه تقديراً منه للبحث العلمي، ولقرار الباحث،

وللحقيقة العلمية نفسها. من هنا جاء تعريفُ الفلاسفة وَعلماء العقيدة الإسلامية للمعرفة على النحو التالي:

«هي الحكم الذهني المطابقُ للواقع عن دليل»[1].

فلا بدَّ في المعرفة من حكم، والحكم بالبدَاهة يسبقُهُ بحثٌ علمي.

ولا بد في الحكم من أن يكون جازماً، فلا عبرة بالظن والشك والوهم في قضايا العلم اليقيني وفي مقدمتها مسائل الاعتقاد.

ولا بد في الحكم الجازم من مطابقته للواقع، وإلاّ ورد منقوصاً تتجاذبه نوازع الأهواء والردود الانفعالية، مما يفقد كلاً من صفتي الجزم والإجماع خاصية المصداقية، لذلك عرّف بعضهم العلم بقوله: ((تطابق المفهوم الذهني عن الشيء مع الما صدق الخارجي له))[2].

أخيراً هناك الوسيلة التي يتوصل الباحث من خلالها إلى الحقيقة العلمية؛ إذ هي الطريق الذي نستبين به صحة مقولة القائل: إنها علمية، أو كذب مقولته.

ونعني بالوسيلة الدليل، أخذاً من تعريف الفلاسفة منذ أقدم العصور للعلم بأنه: «إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل»[3].

---

(١) «شرح العقائد النسفية» للعلامة الشيخ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني. المقدمة. ص ٥٦ و«المعرفة في بيان عقيدة المسلم» للعلامة الشيخ عبد الكريم الرفاعي فصل: بحث المعرفة ص ٢٥.

(٢) «هذه مشكلاتهم» لأستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. «الميثولوجيا. والعلم.. والقرآن..» مبحث: ما العلم ص١١٩.

(٣) «هذه مشكلاتهم» نفس المبحث والفصل والصفحة. ومما يسجل هنا أن البعض عرف العلم بقوله: «معرفةُ المعلوم على ما هو به» والمعرفة كما مرَّ لا تكون إلا عن دليل، وعرَّفه آخرون بقولهم: «إدراك الشيء بحقيقته» أو «إدراك الشيء على ما هو به» والإدراك لا يتأتى إلا من جهة الاستدلال. فالتعريف الذي أثبتُّه في الأعلى جامعٌ مانع والله أعلم. انظر «الإنصاف» للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، المقدمة، ص١٣. و«شرح جوهرة التوحيد» للإمام الباجوري مراجعة العلامة الشيخ عبد الكريم الرفاعي ص ٣١.

ومنَ الدساتير القرآنية كذلك تلك النصوصُ التي سفَّة بها الباري عز وجل المشركين بسبب ما ارتكبوهُ من حماقة الانسياق خلف الآباء والأجداد بدعوى هيمنة عادات التبعية العمياء على السلوك والتفكير. قال ربنا سبحانه وتعالى في ذمِّهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

الذمُّ القرآني تنزَّل بهذه الصراحة التي تهز الشخصية والوجدان؛ لأنَّ قرار المشركين اتُّخذ منهم عن غير دراسة أو تمحيص، فالتابعُ رضي به مع احتمالِ كونِ المتبوع جاهلاً ليست عندهُ أهلية القدوة.

بعد هذا التمهيد الهامِّ يحق لي مفتخراً أنْ أسجِّلَ الملاحظة التالية:

إنَّ ديناً يجعلُ الحقيقة العلمية في هذه المرتبة من القدسية الفكرية، ويجعل البحث العلمي وظيفة دينية تناط بكل مسلم، ويجعل من وسيلتها ونتيجتها القاطعة أمراً شرعياً مُلزماً، ومن بذل الجهد على ذلك إثابةً، ومن التنكب عن البحث والإعراض عن ثمرته حساباً وعقاباً، لا يستبعد في حقه أن يتصدى منذ بداياته الأولى لكل مَن نذر نفسه لتشويه صورة الدعاة، والمصلحين الصادقين في تاريخ البشرية انتصاراً منه للحق، وغيرةً على الحقيقة العلمية أن تضيعَ في تناقضات المصالح، وتذهب أدراج الرياح خلف زوابع اصطناعية من الأكاذيب التي اختلقها مُرَوِّجوها حتى سارَ بها الركبان، وتقادم عليها الزمان.

هذا الذي سجَّلتُهُ يقودني إلى إحدى حكم الباري عز وجل وراء إيرادِ النص القرآني لقصة الأنبياء والمصلحين. فالقصة القرآنية تناولت أحداثاً عن ماضٍ بعيد أو قريب بالنسبة إلى زمن نزول القرآن الكريم، إلا أنها على أيِّ حالٍ أحداث لها شخصياتها البارزةُ المؤثرة في الحَدث والمنفعلة فيه، وهي في معظمها شخصيات معصومة، اصطفاها الله لتكون رسلَ السماء إلى الأرض، تؤدي وظيفتها في دعوة سيد هذا الكون - وهو الإنسان - ليتعرف على ربه، ويعمر البسيطة وفق منهجه فيتبصر صفةَ

الحكمةِ في الخالق أكثر فأكثر عندما تتحقق له السعادة الجسدية والفكرية والروحية وينال الرفاهية وسائر الحقوق الحضارية، وأنَّى لذلك أن يتأتّى للإنسان وهو يرى أمامه مزقاً من الصور والأفكار المشوهة؟ إنَّ القصة القرآنية تهدف فيما تهدف إليه إلى تصحيح هذه الزاوية، أي: ما دخل على سيرة الأنبياء وعقيدتهم من مفاهيم خاطئة. كما أن من مهام رسل الله عز وجل تعريفَ الإنسان بالمجاهيل من حوله، وتحديد علاقته بها، وبالتالي الإجابة على الأسئلة التي حارَ أمامها الكثير من الفلاسفة دون أنْ يجدوا لها إجابةً شافيةً إلا من خلال الدين، ألا وهي: مَنْ أنا؟ من أين أتيت؟ إلى أين أذهب؟ ما وظيفتي في هذه الحياة؟ هل وُجدتُ على هذه الصفة مصادفة أو ثمةَ ذاتٌ متصفةٌ بالإرادة والاختيار والقدرة والعلم وسائر صفات الكمال هي التي أوجدتني؟

فكان لابد من التصدي لكل مَن يُشوِّش الردود الشافية على هذه الأسئلة عن طريق إثارة العجاج حول سيرة الأنبياء، ودور المرسلين في البناء الحضاري لبني البشر.

ثم هناك الصفات التي زُوِّد بها هذا النوعُ من المخلوقات ألا وهو الإنسان، وهي صفات تجعلُ منهُ النوع المؤهل من بين سائر الموجودات لبناء الكون وعمارته، لذلك سُخِّرَ لهُ كلُّ ما في الوجود تيسيراً لأداء هذه المهمة.

في مقدمة هذه الصفات العلم، وهل تبنى حضارة على قاعدة الجهل مثلاً ؟.

وفي مقدمتها القدرة، فالعجز لا تستقيم معه الإرادة، ولا يصلح معه التنفيذ.

ومنها الإرادة، وإذا ما سُلب الاختيار فإنَّ أبسط وحدة في المجتمع الإنساني – وهي الأسرة – لايصلح شأنها، ولا يفلح مشروعُ سيدِ البيت فيها. فكيف بالبناء المتكامل للأسرة الإنسانية الكبرى.

ومنْ هذه الصفات قائمةُ العواطف والمشاعر الإنسانية من الحب والكره والانفعال وهي متمِّمَاتٌ لقيام حضارة الإنسان، وبها وحدها تتميز حياةُ البشر عن حياة سائر المخلوقات التي تحكمها الفطرة المسيرَّة لها – الغريزة – وفق قانون لا تستطيعُ أنْ تحيد عنه، أو تكونَ فاعلة فيه، بل هي في موقع الانفعال والاستقبال. غيرَ أنِّي قبل

أسطرٍ كنتُ أحدثُك عن صفات الذات التي أوجَدَتِ الإنسان وسخَّرتْ له الكون من حوله، وقد قُلتُ إنها تتصف بالقدرة والإرادة والعلم، وهنا مكمن الخطر، أي: إن هذه الصفات التي سلَّح الله بها الإنسان لأداءِ مهمة الإعمار في الأرض هي في الأصل صفاتُ الخالق جلَّ وعلا، ومع أنَّ الإنسان لم يزوَّد إلا بظلال تلك الصفات قياساً على ما هي عليه الذاتُ الإلهية منْ اتصافها المطلق على وجه الكمال بها، إلا أنَّ الإنسان قد تأخذه سكرة ونشوة بسبب ذلك فتتحول هذه الصفات إلى مصدر هدم بين الناس، وهي التي زُوِّدَت لتكون عنوان حضارةٍ وبناء.

يقول أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه اللهُ:

«ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصفات أنَّ من شأنها أنْ تحمل صاحبها على أن يستعمل صفة القوة في ظلم الآخرين، وأن يشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الجماعات وأن يتجه بما لديه من نزوعٍ للتملك إلى أموالِ غيره يستلبها ويعثو بها. ثم من نتائجها أن تتسابق جماعات من الناس بدافع هذه الصفات في ميدان من الصِّراع الدموي على السلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة. ووقائع التاريخ المطردة تدلُّك على هذا دلالة واضحة.

وهكذا تنقلب هذه الصفات إلى عاملِ اضطراب وشقاء في حياة الإنسان، وهي إنما رُكبت فيه لتكون عامل سعادة ورُقي ونظام.

فمن أجل ذلك كان لا بدَّ من قوة أخرى توجهُ هذه الصفات إلى الوجهة الصالحة، وتمنعُ الإنسان من أن يستعمل أسلحتها إلا من حدِّها المفيد، فما عسى أنْ تكون هذه القوة التي تسيطرُ على شرة تلك الملكات والصفات جميعها وتدفعها في طريق الصلاح وحده؟

تلك هي حاجةُ الإنسانية كلِّها إلى الدين: أي: إلى العقيدة الصحيحة عن

الإنسان والكون والحياة وما وراء ذلك كله»[1].

نعم إنه الدين، الذي جاء لوضع امتيازات أصحاب الامتياز في موقعها الصحيح، فلا تطغى على الآخرين في لحظات الشعور الكاذب بالقوة المطلقة، والعنصرية المزيفة. وما الأنبياء والرسل إلا مرشدون صادقون لأبناء الأسرة الإنسانية إلى هذه الحقائق التي لا يستقيم بغيرها رُقيٌّ لبني الإنسان، سواء ما كان منها في ذات الله وصفاته، أو في الكون والمجهولات من حولنا. ولولا هؤلاء القوم الكرام لأكلت البشرية نفسها منذ زمن بعيد، وإنني أستطيع أنْ أجزم بأنَّ المصائب التي ألَمَّتْ بالناس منذ فجر التاريخ، وقعت في أزمنةٍ وظروفٍ غابَ فيها عن أرباب النفوذ صفةُ العبودية لله عز وجل، وبوسعك أن تُطلق فكرك في مقارنةٍ عاجلة بين قول رسول الله ﷺ لأهلِ مكة بعد أنْ دخلها منتصراً وهي التي آذته وأخرجته وحاربته وطلبت رأسه حياً أو ميتاً: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء» وبين تدمير أوروبا بكاملها من قبل هتلر في كل مدينة أو قرية دخلها منتصراً. بين تدمير اليهود لفلسطين وتشريد أهلها بالملايين بعد أن استتبَّ لهم الأمرُ فيها، وتدمير الأمريكيين لفيتنام وهدمها على رؤوس أهلها. وقبل ذلك ما فعله نيرون في روما في أتباع السيد المسيح من جرائم يشيبُ لهول ذكرها الولدان، . وبين ممارسة رسول الله ﷺ في مكة في عَفْوِهِ وسُمُوِّهِ فوق الثأر. لذلك فالقصة القرآنية تدخل في صُلْب واقعنا ومسيرتنا الإصلاحية على مستوى نظرتنا لرسل الله وعلى مستوى إقتدائنا بهم، وعلى مستوى تطبيق شرع الله ذاته.

هذه هي أبرز وظائف رسلِ الله بين عباده، وهي ذاتُ الرسالة التي نادى بها محمد ﷺ، لذلك فإن الانتصارَ لهم انتصار للحق، وانتصار للإسلام، لا سيما وأن الفكر الإسلامي يجزم بوحدة العقيدة، ووحدة التشريع في ثوابته التي لا تحتمل تغيراً على مرور الزمن، ووحدة الرؤية إلى الكون من حولنا ماضيه، وحاضره ومستقبله، ومن مسلَّمات الفكر الإسلامي في هذا الشأن أن سفينة الحق واحدة يتناوب عليها ربَّان بعد

---

(١) «كبرى اليقينات الكونية: وجودُ الخالق ووظيفة المخلوق» باب: تمهيد، الفصل الثاني فيه: ما الذي أحوج الانسان إلى العقيدة الصحيحة عن الكون والحياة والتزام مقتضياتها؟ ص ٥٧

ربّان، فالبداية جاءت من نبي الله آدم والخاتمة قامت على يد نبيٍّ الله محمد عليهما السلام، وما إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم إلا شخصيات كريمةٌ قادت سفينة الحق رَدَحاً من الزمن، كلٌ تلقّى الراية عن سلفٍ له، وأدّاها لخلفٍ جاء بعدَه.

من هذه الزاوية الجديدة فإن الحديث عن رسالة الإسلام وَسيرة مُبلِّغها محمد ﷺ والحديث عن رسالات الأنبياء والرسل الذين سبقوه، حديثٌ واحدٌ لايتجزأ؛ لأن الرسالة في ذاتها مضمون واحدٌ لا يتجزأ أيضاً.

لكن إذا كانت الشخصيات المرسلة إلى الناس على طول التاريخ الإنساني وعرْضه على هذه الصورة من السموّ والرقي والنبل في الوظيفة والغاية، وتناولتْ موضوعاً على هذه الدرجة من الأهمية، فما وجْهُ الحاجة للحديث عن ظلمٍ أصابها؟ وما الداعي إلى بحث مقارن مخصص لدراستها؟.

هذا الإشكال يصحُّ ورودهُ فيما لو وَقف الناس من الرسلِ موقفاً واحداً يتصف بالوضوح والإيجابية. لقد انقسموا حيال الحق الذي جاء به الرسل إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين.

المؤمنون هم الفئة التي انسجم سلوكها مع قرارها العلمي الذي اتخذته بعد رحلة البحث الطويلة، فآمنت بالرسل الذين عرفتهم نَسَباً ونشأة وسيرة طيِّبة. وأدركت صحة ما نادَوْا به بين الناس، وضرورتَه في سبيل حياة سعيدة في دنياهم وأخراهم على السواء.

أما الكافرون والمنافقون فهم جماعةٌ من البشر تعارضت تعاليم الأنبياء مع طموحاتها المشبوهة، ووسائلها المريبة، فوجدت في تلك الدعوات خطراً يهدد مصالحها بالزوال، ويُعرِّض فكرة الإباحية للمال والجنس وسائر المتع الدنيوية بالمحق الكامل أمام الضوابط التي يخطها الأنبياء والمرسلون، فأنكرتهم، وأخذتْ العهد على نفسها أن تُشَوِّهَ صورتهم، وتفسد صفاء دعوتهم، كي تصل إلى الناس معكّرة مبتورةً عن كل مصداقية.

هذا ما تكرر فصولاً متتابعة لم يخلُ منهُ عصر. دعاةٌ يَعْرِضون مبادئهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والأساليب العلمية المختلفة بين الحوار والإقناع، ومناوئون لهم يشككون في إخلاص نيتهم، ويُثيرون العَجاج القويَّ في طريقهم.

غيرَ أنَّ المتتبع لخُطى الصراع يرصد طائفة متميزة من أولئك المناوئين لم تفتر همتها يوماً في مقاومتها لدعوات السماء.

منذ أن ظهرت تلك الجماعة على مسرح الأحداث، وهي لا تترك فصلاً من فصول التكذيب والعناد إلا وتجعلُ لنفسها فيه مشاركة قوية سواء بصورة مباشرة، أو عن طريق تحريك خيوط اللعبة من بعيد.

أولئكم هم اليهود في الخط الغالب لجماهيرهم على مر التاريخ.

الغريبُ أنَّهم أوْفرُ خلق الله حَظّاً في عدد الشخصيات الإصلاحية المرسَلة إليهم، وفي نوعيتها، ورغم ذلك فإنها حافظوا على حصةٍ ثابتةٍ كحدٍ أدْنى للنيلِ مِن رسلِ الله، حتى إنهُ لم يَنْجُ من براثنهم أحدٌ، لا فرق في ذلك بين مَنْ بعث فيهم، أوْ بُعثَ في غيرهم.

الذاكرة الشعبية للأمم احتفظت بالكثير من تلك الأساطير التي روَّجها أعداء الحق، يتناقلها الناسُ جيلاً عن جيل، حيثُ زُيِّفَتْ الحقائق، وطُمِسَتْ معالم الوجه الصحيح لأنبياء الله ورسله، وانحدرت الحكايات الشعبية إلى مستنقع آسن يندى له جبين الرجل الحر، ويأباه كرامُ الناس ومفكروهم الموضوعيون.

استمرَّ الحال على هذا الوجهِ الأسود مئاتٍ من السنين، ثم ما لبثَ ظلامُ الليل أن انقشع مع انبلاج فجرٍ جديد لسفينة الأنبياء، وظهور رجل جديد يحملُ راية آدم وموسى وعيسى عليهم السلام ليقود البشرية إلى شاطئ الأمان على ذات الطريق الذي سار عليه سلفهُ عيسى ومَنْ تقدَّمه من رسل الله، وإذا بآيات القرآن الكريم تتنزَّلُ على قلب محمد ﷺ، تصحيحاً لفهم أعوج، وانتصاراً للحق وأهله، وللحقيقية ومصداقيتها، وإذا بأتباع هذا الدين يطؤون بأقدامهم كلَّ أرض، يفتحون العقول والقلوب فتفتح بذلك القلاع والحصون، وإذا بقراءة جديدة لقصة كل مصلحٍ من

رسل الله الكرام تُفْتَحُ صفحتها، ويتلألأ نجمها، وتطفو على السطح كلماتها، وَبذلك مَحى دينُ الإسلام، ما سار به الركبان من الإساءة المتعمدة والظلم المقصود لتلك الشخصيات وسيرتها ومبادئها وغاياتها، مثبتاً لهم كل كمالٍ من وصفٍ أو فعل، نافياً عنهم كلَّ نقصٍ مِن نية أو خلق أو سلوك.

لقد شكلت البعثة المحمدية منذ أيامها الأوْلى منعطفاً غيرَ مسبوق في انتصارها للحقيقة العلمية، والذود عنها، حتى لو كان أبطالُ تلك الحقيقة شخصيات ترجع إلى جماعات أظهرت مزيداً من الكيد والعداء للإسلام وأهله. وتمضي قافلة الحياة تنهبُ الزمنَ نهباً إلى أنْ وَصَلَ المسلمون إلى عصرٍ لم يعد فيه الإسلام سيدَ الكلمة، حتى شهدنا في الناسِ اليوم مَن يتطاولُ على خاتمة الشرائع السماوية مُدَّعياً أنهَ دينٌ يُرْسي بين أتباعهِ مفاهيمَ التقليد العمياء، وأنهُ لا يقيمُ للحقيقة العلمية وزناً!.

على الطرف الآخر نجدُ اليهود في زماننا يؤكدون نسبتهم إلى أنبياء الله الكرام من أمثال إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وداود، ويزعمون أنهم فرعٌ طيِّبُ من شجرتهم المباركة! وأنَّ رسل الله الكرام أعطوهم لقب «شعب الله المختار» أو ملكية أرض الميعاد! فهل في الدنيا ظلمٌ للحقيقة العلمية أكثرُ من هذهِ المزاعم؟!

لهذا وغيرِهِ بادَرْتُ إلى كتابة بحثٍ متواضع، لكنه عميقٌ في نظرته وشموليته، أظهرُ من خلاله بجلاءٍ لكلِّ مَنْ يدرسُ التاريخ بموضوعية أنَّ القرآن الكريم كان الحصن الذي تحتمي خلف أسواره الحقيقة العلمية في منبتها ونشأتها وضوابطها وأرضية تطبيقها، وأنَّه لولا سيادة الإسلام وظله لما قُيِّضَ للحقيقة أنْ تحيا في وقت عصفت رياح الجهل والأساطير في سماء الناس، يوم لمْ يكن في الأفق مركبُ نجاة إلى أنْ ظهر الدين الجديد في مكة وبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها، ومنها إلى بلاد الشام حيث أفل نجم الروم إلى يوم القيامة، وبلاد العراق وفارس حيث غادرتها حضارةُ عباد النار إلى غير رجعة، ومنهما إلى حدود الصين وقلب أوربا وأفريقيا، حيث تعرَّف الناس على الدين الحنيف وأخذوا يقطفون من ثماره في البحث العلمي بوسائله

ونتائجه ، ليتفيَّؤوا بظلال أعظم حضارة علميَّة وإنسانية عرفها التاريخ .

منذ أربعة عشر قرناً ألغيت الأساطير لتتربع في موضعها حقائق العلم ودراسات العلماء ، ومنذ ذلك الوقت عاد لتلك الشخصيات مكانتها في القلوب والعقول ومناهجها في التربية وَالإصلاح .

إنني فيما بذلته من وقتٍ ومداد كنتُ أسير على الطريقة القرآنية في انتصارها للحق ، وتجنيد كل شيء في سبيله .

ثم إنَّ المنهج الذي اعتمدته في دراستي هذه يفي في اعتقادي بالغرض الذي نذرتُ له نفسي ، إقتداء مني بإمامِ العلماء وسيد النبلاء محمد عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم .

ففي كل دراسة أقوم بها أضع اسم الشخصية محلِّ البحث في أعلى الصفحة .

بعد ذلك أحدِّدُ موضوعاً أو أكثر لتسليط الضوء عليه في البحث .

اخترتُ في منهجي أسلوب المقارنة ، حيث أبدأ أولاً بالنص القرآني الخاص بذلك الموضوع[1] فأثبته بتمامه بين يدي القارئ ، لأقوم من ثَمَّ بالنظر فيه والتفسير لألفاظه وآياته على ضوء التفاسير المعتمدة وضوابط البحث العلمي ، وفي مقدمتها تفسير القرآن بالقرآن ، لأنَّ خيرَ مَنْ يُفْصِحُ لنا عن مراد كتابِ الله تعالى هو كتاب الله نفسه . فإن لم أجد وضعتُ رَحْلي عند السنة المطهرة المصدر الثاني في الميزان الإسلامي ، وربما أكدتُ البحث بكلٍّ من القرآن والسنة معاً ؛ لأنَّ كلاً منهما وحي ثابتٌ من عند الله .

في المرتبة الثالثة وأحياناً الأولى تُشكِّل اللغةُ العربية النبعَ الصافي الذي يفتحُ لنا آفاقاً صحيحة ، وَفي بعض الأحوال جديدةً ، للكشف العلمي لما نعلمهُ من أن القرآن الكريم نزل على قلب محمد ﷺ باللغة العربية ، فلا بد لنا لفهمه من الاستعانة بدلالات ألفاظها وأساليبها وضوابطها ، وهل ننسى قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا

---

(١) هذا غالباً ، ففي المبحث الثاني من هذا الكتاب مثلاً قدّمت الرواية التوراتية على الرواية النبوية لحكم متعددة .

عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف : ٢].

إنَّ عملي في شرح الآيات القرآنية لا يقتصرُ على النواحي التفسيرية ، بل هناك الإعجاز القرآني على أكثر من مستوى ، كل ذلك سبكته بطريقة أفرغت فيها كلَّ إمكانياتي الأدبية المتواضعة في سبيل إظهار الكتاب بأبهى حُلَّة .

بعدَ الانتهاء من دراسة الموضوع على ضوء النصوص القرآنية ، أنتقلُ إلى فِقرة أو أكثر من فِقرَات العهد القديم تتناول ذات الموضوع ، معتمداً في شرحه على قاموس الكتاب المقدس بالدرجة الأولى ، وعلى نصوص العهدِ القديم الأخرى .

من الإثبات والشرح ألتفتُ إلى التعليق والبحث مُسجِّلاً من خلال مقارنتي بين النص القرآني والنص اليهودي ملاحظات ونتائج في غاية الدقة والعمقِ والموضوعية ، مظهراً مدى الإساءة التي تعرَّضَ لها خيرة خلق اللهِ على الإطلاق .

هذا هو السببُ الرئيسي لكتابة البحث .

غيرَ أنَّ ثمة أسباباً أخرى تقف وراءَ كتابتي في هذا الموضوع .

أولها : أنَّ وَضع النصوص القرآنية وغير القرآنية بعضها في مقابل بعضها يتيحُ للقارئ إمكانية مقارنتها من جهة تحديد ما هو سماوي وما هو منسوبٌ إلى السماء ، وَالطريقة مفيدةٌ في تحديد هذا المطلوب ، وهي جديدة إذا لاحظنا الشمولية وإثبات النصوص بتمامها ، فأكثرُ ما وقعَ تحت يدي من كتب إسلامية وغير إسلامية في علم مقارنة الأديان تكتفي بالإشارة إلى معنىً ما في السِّفر ورقم الفقرة ، وإذا ما ذَكَرَتِ النَّص فإنها لا تتمه ، بينما استطردتُ هنا في تدوين النصوص كاملة لأِتْرُكَ فُسْحَةً من النَّظَرِ خاصةً بالقارئ الكريم .

ثانيهما : أنَّ تلمُّس المرء بيده لحقيقة التلاعب التي ألَّمت بالكثير من فقرات العهد القديم يساعدُ المثقف العربي والمسلم في هذا العصر على لجمِ الدعوات المسمومة الزاعمة تمليك الرب لليهود أرضَ الميعاد فلسطين ، وما وراءها من أرض

الشام والعراق! وربما ما وراء ذلك أيضاً !

إنَّ نبذ الباحث الحرِّ للكثير من مقولات التوراة المسلَّم بها عندهم تستلزم منه رفض أيٍّ فكرةٍ من هذا القبيل، وهو مايُساعدُ في تصديه لمؤامرات صهينة المنطقة العربية تحت ستارٍ توراتي نُسب إلى الله وإلى موسى وتوراته ظلماً وعدواناً.

ثالثها: البحث بتمامه في رأيي هو خطوةٌ جديدة في صياغة علم مقارنة الأديان من ميزانٍ إسلامي يضعُ الحق في مكانه، وينبذ الباطل من أي المصادر وفدَ علينا، كما يستنبط الفائدة ويدوِّنها، ليكون ذلك أدْعى إلى انتفاع الأجيال بها.

رابعها: الاستفادة من القضايا التربوية في ترسيخ المبادئ الحضارية في ذهن الناشئة اعتماداً على سيرة المبعوثين الصادقين المرسلين إلى البشر رحمةً من رب العالمين، لننظر في استعداداتهم العقلية والفكرية والنفسية، وفي ماهية دعواتهم، وطريقة مخاطبة المخالفين لهم، وموقف المخاطبين منهم، وكيف صبروا على أذاهم.

خامسها: تقديم بحث بهذا العمق والشمولية، وبهذا الأسلوب من المقارنة والتسجيل يُعدُّ بادرةً على صعيد دراسة القصَّة القرآنية.

سادسها: من خلال طريقة المقارنة التي انتهجتها أثْبَتُّ للقارئ الكريم أنَّ النبي محمداً ﷺ ليس صاحب القرآن الكريم، بدليل عدم تأثره بروايات أهل الكتاب التي ذاعت في عصره، بل إنه يعارضها في مواطن كثيرة في خطوط سيرتها ودوافعها وغاياتها.

أسألُ الله عز وجل أن يُتوِّج مسيرتي الكتابية في الذوْد عن حقائق الإسلام الناصعة، وتجلية الأمر في أذهان الناشئة، بالتوفيق والنفع والقبول، فإنه خيرُ مسؤول، وأعظمُ مأمول، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله رَبِّ العالمين.

دمشق ١٣ محرم ١٤٢١ الموافق ١٧/ ٤/ ٢٠٠٠

**محمد محي الدين حمادة**

# تمهيد

قلنا في المقدمة السابقة إنَّ العلمَ هو إدراك الوقائع على ما هي عليه في الواقع. فالوسيلة التي تصلُ بنا إلى هذا اليقين هي سبيلٌ علمي لا تقلُّ في قيمتها العلمية عن الحقيقة العلمية ذاتها. هذه الوسيلة تختلفُ باختلاف الدعاوى التي تقعُ بين يدي الباحث. فإن كانت الدعاوى مما يتعلقُ بطبائع الأشياء المادية وجوهرها، كعلم الفيزياء مثلاً فهذه لا يقوم يقينها العلمي إلا بواسطة إخضاعها للتجربة والمشاهدة، لأنها مما يقع تحت الحسِّ البشري بأنواعه سواءٌ كانَ لمساً أومشاهدةً أو سماعاً أو ذوقاً أو هذا كله. وإن كانت الدعاوى أرقاماً مجرَّدة كعلم الرياضيات فالطريقة الوحيدة المتبعة للتحقق من صحة النظرية أوْ فسادها هو المسلماتُ والبراهين العلمية المعروفة عندَ المختصين من أهلِ هذا الفن. وإن كانت الدعاوى من قبيل الأحوال الشخصية وما يتصل بها من الحقوق المدنية فهذه لا ينفعُ معها إلا البيِّنات من الصكوك والشهود وما إلى ذلك مما تعارف عليه القضاةُ تحت أروقة المحاكم. وإنْ كانت الدعاوى من قبيل الأخبار التي مضت فهذه لا سبيل إليها من خلال التجربة والمشاهدة؛ لأنَّ أعيانها قد ذهبت بذهاب زمانها، ولا سلطان للبراهين الرياضية عليها؛ لأنها أبعد ما تكون عن الرموز والأرقام، ولا تُعرفُ من قبيل شهادة الشهود فَمَنْ شهدَ تلك العصور غاب عن الدنيا بغيابها، ولم يبق أمامَ الباحث سوى الخبر الذي تتناقله الأجيال كلٌّ يؤديه لمن بعده حتى يصل إلينا، ونحن بدورنا نقدمه لمن بعدنا وهكذا.

لكنَّ الأفراد الذين يعيشون بين ظهراني الأمم ليسوا على سوية واحدة، فمنهم الصادق الذي لا يكذب، ومنهم الصِّديق الذي يتحرى الأمانة والدقة في القول والنقل. وفي المقابل هناك الكاذب الذي لا يقيمُ للحقيقة وَزناً، والكذوبُ الذي يبالغ في الاعتداء على الحق وأهله. هذه سنةٌ في الكون لا تحتاج منا إلى إثبات، ومن نصادفهم في واقعنا الاجتماعي اليومي هم خليط من هؤلاء وأولئك.

فما السبيل - أمام هذا التناقض - لتنقية الحقيقة العلمية في شأن الماضي الذي لاسبيل لنا لإدخاله إلى أحد مختبراتنا من الأساطير التي هي حصيلةُ الأخيلة الشعبيَّة التي تُروى غالباً على شكل قَصَصٍ وحكاياتٍ من غير أن تخضع للرقابة العلمية.

إنَّ الوقائع التاريخية وما ترتبط به من شخصيات دارت تلك الأحداثُ في فلكها، هي من قبيل الأخبار الماضوية التي وصلت إلينا من خلال حلقات متصلة من الرجال والنساء يمثلُ كلٌّ واحدٍ منها جيلاً من قومه الذين عاصرهم. والتوثق من الخبر الذي نبحثُ فيه يتطلب منا جهداً للتأكد من وجود تلك الحلقات من الرواة، فلو انقطعت إحداها، لأحيطت الرواية بالشكوك التي يفرضها علينا التساؤل التالي: من هو هذا الرجل الذي فُقِدَ؟ لعلهُ أحدُ الكذبة؟ لماذا نجهل هويته؟ لولا أنَّ الخبرَ غيرُ مختلقٍ من قِبَلِه لاستوثقنا من وجود ممثلٍ له أو أكثر عن جيلٍ سابقٍ له نَقَلَ إليه الخبر محلَّ البحث. وإذا ما ازداد انقطاع الحلقات كثرت المطاعن في سندِ هذه الرواية.

وعلى العكس فإنَّ اتصال كلِّ حلقة بالتي تسبقها إلى المصدر الأصليِّ للخبر دليل على صحة ذلك الخبر شرطة أن لا يكون أحدُ الرواة كاذباً أو متهماً. ثم إنَّ اجتماع عدد كبير في كل حلقة يستحيلُ على العقل تواطؤهم على الكذب يرتقي بالخبر إلى درجة اليقين حيث يقطعُ العقلُ بصحته.

من الأمثلة التوضيحية على هذا المعنى الخلافةُ العثمانية. فالإنسان الذي يقف على عتبة القرن الحادي والعشرين وَيسمع عن خلافة إسلاميةٍ عاصمتها «إسلام بول - استانبول» كانت تبسُطُ سلطانها على المنطقة العربية والعالم الإسلامي بأسره، هذا الإنسان يعجز عجزاً كاملاً عن وضع الحدث تحت سلطان حواسه فلا الحدث بات حاضراً، ولا رجاله حافظوا على وجودهم فوق هذه الأرض، ورغم ذلك فلن تجد إنساناً واحداً في البشرية قاطبةً يجرؤ على إنكار الخلافة العثمانية وجوداً وامتداداً، حضارةً وممارسة. فما السبيل الذي اعتمده الناس حتى بلغ عندهم الجزم في أمر الخلافة هذا اليقين القطعي؟ إنهُ الخبرُ المتواتر المتصل الذي يترفَّعُ العقل عن قبول تواطىء جماهيره على الكذب. أيُّ امرئٍ منا

يستطيع سؤال والده عن الخلافة فيخبره بوجودها. وإذا ما توجَّهْتَ إليه بالسؤال التالي: هل عاصرتها؟ يجيبك بالنفي، إذن كيف علمت بوجودها؟ يقول لك والدي أخبرني وقد عاصرها، وهو يقول: إن والِدهُ ينقلُ لنا أكثر عن والده وَجدِّه ومَن بعدهم من الذين كانوا جزءاً من تلك الخلافة، ويقيمون في ظل سلطانها. وهكذا يزداد عددُ الأسانيد بازدياد عدد الأسئلة والتي ستتصل إلى عدد سكان الأرض الذين سيخبرونك عن وجود الخلافة العثمانية فيما لو سألتهم فرداً فرداً. فالذي يفصلُ بينك وبين آخر خيطٍ لزمن الخلافة هو سند يتألف من حلقتين أو ثلاث حلقات من الرواة، كل حلقة يُجسِّدُها جمهورٌ غفيرٌ من الرواة الذين اجتمعت كلمتهم على هذه الحقيقة.

هذا هو المنهج العلمي في إثبات حادثةٍ تاريخية ما. لكن إذا جاز لنا التحقُّقُ من أمر الخلافة العثمانية من خلال علم السند والرواية والخبر، فكيف يمكننا التوثق من أخبار مضى عليها آلاف السنين، لم تجتمع كلمةُ الناس على تفصيلاتها؟ كيف لنا أنْ نخترق جدارَ الماضي السحيق، وظلماته المستورة عنّا؟ فلا الرواية تسعفنا.. ولا المشاهدة والحواس ترفدنا، ولا أخبار الأمم تتفقُ في ذلك على شيء. وقبل أنْ أدخل في الإجابة أرى من الخير أن أضع بين يدي القارئ الكريم مثالاً توضيحياً أو أكثر.

أولاً: قصةُ خلق آدم، موغلةٌ في القدم توغّل أوّلِ إنسان ظهر في هذا الوجود وهو آدم. وإذا ما اتفقت كلمةُ البشرية على وجود شخصية ابتدأ بها الوجود الإنسانيُ تاريخه، فإن أخبارَ الأمم لا تكادُ تتفقُ على روايةٍ واحدة في شأن تلك البداية، على أنَّ مِنْ أدعياء العلم اليوم مَنْ ينكر المحور الذي تجتمع عليه تلك الروايات، وهو وجود آدم عليه السلام، فتدَّعي التطور أو غيرها من النظريات التي لا تستند إلى رُكن علمي يُثْبِتُها.

ثانياً: يوسف عليه السلام. أخبار الأمم تلتقي عنده على حقيقتين اثنتين:

إحداهما: نبوة يوسف عليه السلام.

الأخرى: تعرُّضه للإغراء من قِبَل سيِّدة القصر.

ومن وراء ذلك لا يكادُ يستقيم شيء، فمن قائل: إنه خضع لإغرائها، ومن قائل: إنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته حتى ارتسمت أمامهُ صورة أبيه يعقوب فارتجف وأعرض عنها! ومِن قائل: إنه تأبّى ولم يهمَّ بها لأنه كان نبياً معصوماً! ومن قائل غير ذلك.

روايات كثيرة يناقضُ بعضها بعضاً فما السبيل إلى تحديد ما ينفعُ الناس ليمكث في عقولنا وذاكرتنا العلمية والتربوية فنرفدَ به ثقافتنا، ونبذِ ما هو زَبَدٌ فيذهبَ جُفاءً فنُنَقّي منهُ ساحتنا الفكرية، ومَصادرنا التاريخية.

ثالثاً: ما هو تاريخ الأرض قبل الإنسان؟ وماذا كان ويكون وراء العالم الكوني الذي تدركهُ حواسنا؟ كيف كانت بداية أول مخلوق وجد على هذه الأرض؟ وما الحكمة من خلقه وإيجاده؟ وهل ثمة مخلوقاتٌ أخرى واكبت الإنسان في وجوده أو سبقته في ذلك؟ ما هي صفاتها؟ أهي كالبشر تعتلجها نوازع الخير والشر والحب والكره أمْ إنها معصومة؟ وهل هي نوعٌ واحد أو أكثر؟ وإلى أين تسير؟ ما هي نهايتها؟ وما علاقة ارتباطنا بها؟

هذه الأسئلة وغيرُها عن البدايات السحيقة ـ وأيضاً عن النهايات البعيدة التي نسيرُ إليها دون أن نعلم عنها شيئاً ـ كانت المعضلة الكبرى التي عانى منها الفلاسفة قديماً وحديثاً دون أن يعودوا من ساحتهم الفكرية منها بطائل له وزن في قيمة البحث العلمي، وإن هي إلا مجرد ظنون وأوهام ونَظريات تتخبط وتتناقض أكثر من تَخبط روايات الشعوب ذاتها!

ورغم وجود هذه المعضلة في حياة الأمم والمجتمعات فإن المسلمين لم يعانوا في يوم من الأيام من أزمة المعرفة التي يعاني منها فلاسفة العصر الحديث وفلاسفة كل عصر ما لم يكونوا مؤمنين. لماذا؟ لأن المسلمين آمنوا بالله رَبِّ العالمين وأيقنوا بوجوده، ووعدِه ووعيده، فسألوه عمّا يجول في خاطرهم فأسعفتهم حكمته بخريطةٍ حَدَّدت بوضوح مسيرة السفينة الإنسانية منذ بداية انطلاقتها في غابر الزمان إلى أن تصل إلى المحطة

الأخيرة المرسومة لها. لذلك سار العقلُ والإيمان في خطٍ واحد يداً بيد يتعاضدان ولا يتعارضان، فالصانعُ جلَّ وعلا يخبر الإنسان عن الغيبيات السابقةِ واللاحقةِ لوجوده على حدٍ سواء، وعن سلطان الخالق المطلق عليها، والعقلُ يسجلُ تلك المعلومات مستخرجاً منها الدلائل والشواهد ليحدد موقعه من رحلة الحياة وعلاقَتهُ بها، ومصيَرهُ المحتوم الذي يسيرُ إليه مع مرور كلِّ لحظة من تاريخه وتاريخ البشرية.

من هذه النقطة الهامَّة أستطيع البدءَ بإجابتي التي أخَّرْتها قليلاً ريثما تتضحَ الصورة، ويزول الإبهام:

من البدهيَّات التي تعرَّضنا لها في هذا المدخل أنَّ العقل الإنساني لا سلطانَ لهُ على خفايا الكون المغيَّبةِ عنَّا؛ لأنَّ النوافذ الخمسة التي يُطلُّ بها الفكرُ الإنساني على الكون لا قدرة لها على النفاذ إلى أعماق الحياة في ماضيها المحجوب ومستقبلها المخبوء. ومهما أوغل الباحثُ في خياله المتوقد فإنه لن يستريح إلى شيءٍ مما يصل إليه بعد طول جهد وعناء، بل إنه لا يكادُ يصل إلى شيء، ولن يعود من رحلته إلا بمزيد من الاضطراب في الرأي والرؤية.

والعقلُ الحُرُّ يقول لنا بصراحةٍ وموضوعية:

الحقيقة لا ينبِّئُ بها إلا من شهِدَها، فهو الخبير بملابساتها وخفاياها فكيف إذا كان هو الخالق لها، والإنسان اليوم يمكنه أنْ يتحقق من بعض الوقائع التاريخية لكنَّهُ لن يكون قادراً على رؤية الماضي من موقعه لأنهُ لم يشهده، ولن يُسلَّط عليه بإمكانياته المعروفة؛ لأنها غيرُ مؤهلة للقيام بتلك الرحلة، فلماذا نسألُ المخلوق الذي لم يُزَوَّد بأسلحةٍ لاقتحام هذا الغمار وندعُ الخالق الذي أبدع وصوّر وشهد حوادث الكون منذ نشأته الأولى وعبَّدَ له الطريق ليسير ضمن الخط الذي رسمته يدُ العناية الإلهية.

هذا المنهج وضع قاعدته البيان الإلهي في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

إنها إحدى البدهيَّات التي يتلقاها العقلاء بالقبول في كل مكان، فالإنسان أيّاً كانت أرضه أو ثقافته ما إنْ يدخل سوقاً للبحث عن حاجةٍ ما، حتى يبادر للتعرف على مصدرها، ويطلب من البائع النشرة الصادرة عن الصانع الحقيقي لها؛ لأنهُ أعلمُ بما صنع، وحقيقة ما صنع، وكيفية استعمال هذا المصنوع، وعلاقتهِ بالموجودات من حوله، فإن كان المصنوع ساعةَ يدٍ مثلاً فإنَ أول سؤال هو: منْ صانعها؟ شركة سويسرية أم غيرها؟ هل في التعليمات - الكاتلوك - تأثرها بالماء أو لا؟ هل؟ هل؟ . . . . وإذا كان المصنوع سيارة فالأسئلة عن خفاياها تزداد. وإذا كانت سيارة تعمل على أجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) فإن صفحات النشرة الصادرة عن جهة الصنع تتضاعف كمّاً وكيفاً ودقة وهكذا. فأيُّ فرقٍ بين ما صنعه الإنسان وماصنعه الخالق في وجوب الاعتماد على هذه المسلَّمه؟ لا بل إنَّ الإنسان أكثرُ تعقيداً وعظمة، والكونَ من حوله هو الجهاز الكبير دِقَّةً واتساعاً وعملاً في الوجود كله.

الإجابة على هذه المعضلة المستعصية تكمن في الإسلام ذاته الذي تعرَّض لأسئلةٍ حول خلق الإنسان، وبداية الكون، ومصير المنظومة الكونية برمتها بما في ذلك هذا الجِرم الصغير الذي أودعَ اللهُ فيه من الأسرار ما أودعَ لإقامة الحضارة الإنسانية فوق هذا الكوكب، والذي عَرَض لقصص المصلحين المرسلين منذ فجر البشرية الأول حتى بعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ. غيرَ أنَّ ما سجله القرآن والسنة في هذا الصدد لم يكن من قبيل الحكايات التي يتناقلها الناس وتتبادلها الشعوب، فلم يدخل الإسلام في تفصيلات لا طائلِ منها، ولم يعرِّج على أسماء شخصيات ومواقع وأزمنة مما يدخلُ في اختصاص المؤرخين، أو مؤسسات تسجيل المواليد والوفيات في مختلف المجتمعات. لقد اكتفى البيانُ الإسلامي بتدوين الحق الذي يعود بالنفع على الإنسانية في نهضتها ومستقبلها، كما أكَّد على تبرئة الشخصيات المرسَلة من كل شائبة أو مطعنٍ نفذ إلى سيرتها من قوس الأعداء التقليديين للحق.

لكنك ربما تسأل: كيف أستوثق من صحة ما جاء في القرآن الكريم؟ كيف أستوثق

من مصداقية الشخصية الإبراهيمية وهي التي يكثر بعض الملاحدة من التشكيك في وُجودها؟ وكيف أعتُمد ما جاء عن يوسف عليه السلام في السورة التي تحمل اسمه في القرآن الكريم؟ كيف لي الاستيثاق من كل سؤال تصدّى القرآن للإجابة عليه؟

قبل أنْ ألج في الإجابة سأسألك بدوري: أليست الصحيفة القرآنية من قبيل الأخبار الماضوية المدونة في عصرٍ سابق؟ ستجيبني بالإيجاب. إذاً. التوثق منها لايخرج عن جوهر المنهج الذي حدثتك عنه في صدرِ هذا المدخل. فالقرآن الكريم الذي بين أيدينا اليوم خبرٌ يفصلنا عن طرفه الآخر المتمثل بسيدنا رسول الله ﷺ حلقات من الرواة كل حلقةٍ يجسدها جيل بكامله، فإذا ما تحققنا من صحة السند القرآني من طرفه الذي بين أيدينا وهوالنسخةُ التي تضم ما بين دفتي المصحف المعروف إلى بداية الطرف الآخر ومصدره حيث تلا رسول الله ﷺ هذه السورَ على أصحابه استوثقنا من قرآنية الألفاظ التي نقرؤها، وأنها ذاتُ الألفاظ التي تُليت في صدر الإسلام.

نبدأ في رحلة البحث من آخر خيط في هذه السلسلة، ألا وهي النُّسَخُ القرآنية المكتوبة في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين.

لدى الإمعان في هذه النسخ نجدُ أنها تجتمع على حرف واحد وآيات ثابتة، وسورٍ واحدة، وأنَّ المصاحف التي نقرؤها هنا في بلاد الشام على اختلاف الأقطار الشامية وسياسات دولها، ومذاهب أهلها، هي ذاتُ المصاحف التي يقرؤها الناس في بلاد العراق، وهي ذات المصاحف التي يقرؤها الناسُ في بلاد الحجاز واليمن، وفارس والصين، وبلاد القوقاز، وشرق أوروبا، بل هي ذات المصاحف التي يقرؤها الناس في بلاد المستعمر القديم التي نسميها اليوم بلاد الغرب، فلو دخلت أيَّ مسجد في الولايات المتحدة الأمريكية أو في فرنسا أو ألمانيا أو هولندة.... فستجدُ مطابقةً في كلِّ شيءٍ حتى في الشكل مع المصحف الذي بين يديك في بلاد العرب.

إذن جماهيرُ الأمة الإسلامية في أصقاع الأرض، وجماهير البشرية في أرجاء المعمورة تجتمع اليوم على صحيفةٍ واحدة لا ثاني لها، وهذه خصوصيةٌ لا يتمتعُ بها

أيُّ كتابٍ سماوي على الإطلاق.

فمن أين تلَقَّتِ الأمة نسختها المكتوبة؟

لقد تلقتها عن جمهور الأمة في العصر السابق لها، أي في النصف الأول من القرن العشرين، وهذا الجمعُ الغفير، بل وهذا الإجماع الفريد لا يقبلُ فيه العقل مطعناً، ولا يرضى بقبول اجتماع الأمة، أو هـذا العدد الهائل من العقلاء ـ على اختلاف الألوان والأجناس والقوميات والثقافات، بل وَ الأديان[1] ـ على تلك النسخة، مطعناً.

وهؤلاء من أين تلقوا صحيفتهم المكتوبة؟

لقد أخذوها بدورهم عن الجيل الذي سبقهم ضمن هذا الإجماع التام.

وهكذا كل جيل أخذ نسخته عن الجيل الذي قبله، إلى أن نصل إلى مصدر الإلقاء لآيات الكتاب الكريم على لسان صاحب الرسالةِ، أي: محمد ﷺ.

والملفت للنظر في رحلة البحث هذه أننا نملك في مكتباتنا الإسلامية نسخاً مخطوطة للقرآن الكريم عن كل عصرٍ بما في ذلك عصر جمع القرآن الكريم، وعن كل قطر بما في ذلك الأقطار النائية وهي جميعها تتفق مع النسخة التي يقرؤها طلابُ الابتدائي والجامعات، والعامة والخاصة، العرب والعجم، المسلمون وغيرُ المسلمين في الأرض قاطبةً.

فالقرآن الكريم وصل إلينا بواسطة التواتر القطعي جيلاً عن جيل، فارتقى بذلك إلى ذروة الحقائق العلمية التي يقطع العقل ويجزم يقيناً بصحة نسبتها إلى عهد النبوة.

ليس هذا فحسب:

فالقرآن الكريم لهُ طريقٌ أخرى للاستيثاق من صحته ونقله عن طرفه الأول رسول الله محمد ﷺ، ذلك هو النقلُ بالحفظ. فالحفاظ لآيات القرآن الكريم بتمامه

---

(١) فأهل الكتاب وأهل الوثن من بوذيين وهندوس وغيرهم بين أيديهم ذات النسخة التي نقرؤها والتيَ يحاوروننا على أساسها.

يعدُّون بالملايين، والحَفَظَةُ اليوم على اتساع رقعة العالم الإسلامي التي وصلت إلى كل قرية ومدينة في الدنيا، تتفق محفوظاتهم وتتطابق مع بعضها تطابقاً تامًّا لا فرق في ذلك بين قُرَّاء العجم وقُرَّاء العرب من المسلمين، ولا فرق بين مَن يُتقنُ العربية، ومَنْ لا يدري عنها شيئاً، وهي تتطابق في الوقت نفسه مع ما هو مدوَّن في النسخ المطبوعة التي حدثتك عنها.

وربما كان القليلُ من الناس يعلمُ أنَّ لكل حافظٍ سنداً متصلاً يتلقاهُ عن شيخه، ويصلُ به إلى رسول الله ﷺ. فأنا مثلاً واحدٌ ممَّن أجيزوا في حفظ كتاب الله من رواية حفص عن عاصم، وقد تلقَّيْتُ إجازتي عن شيخ قُرَّاء دمشق الشيخ حسين خطاب عليه رحمهُ الله. وفضيلة الشيخ حسين مجازٌ عن شيخه في حفظ القرآن الكريم وهكذا كلٌ عن شيخه يعرفه ويعرفُ نسبهُ وَمكانته إلى المصدر الأول لتلاوة القرآن وهو سيدي رسول الله ﷺ. ومثلي في هذا كل حافظ للقرآن في دمشق ومثلهم كلُّ حافظ للقرآن في جده أو مكة أو المدينة أو القاهرة أو باريس أو . . . . أو في أيٍّ بلدة في الدنيا. فلدينا من الأسانيد بعدد حفظة القرآن في هذا الوجود.

فجمهور الأمة اليوم تلقى القرآن حفظاً وتلاوة عن جمهور الأمة في مرحلة الجيل السابق له، وهكذا كل جيل يُجمِعُ على ذات النصوص القرآنية يتلقاها عن سلفه، ويؤديها لخَلَفه، إلى أن نصل إلى عصر الإسلام الأوَّلِ، حيث النور المبين محمد سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فالقرآن الكريم وصلَ إلينا عن طريق التواتر القطعي كتابة، وعن طريق التواتر القطعي حفظاً، وكلا الطريقين ارتقى بالنص القرآني إلى أعلى درجات اليقين، كما أنَّ النتيجة في نهاية الطريقين تطابقت تماماً دون أيِّ نقطةِ اختلاف تسجلُ في ذلك. وفوق هذا كله هناك أشرطة التلاوة القرآنية المنتشرة في كل الأرجاء، ووسائل البث المختلفة كالمحطات الفضائية (الستلايت) والأرضية والإنترنت وغير ذلك وهي على توزعها وتنوعها وشموليتها تتفق في كل حرف مع المحفوظ والمدوَّن من القرآن الكريم.

فالآن نحن نقطعُ بقرآنية الألفاظ القرآنية، أي: إن النصوص التي نقرؤها اليوم هي ذاتُ النصوص التي تلاها محمد بن عبد الله على أصحابه قبل ما يقاربُ خمسة عشر قرناً.

هذه هي المرحلة الأولى في رحلة البحث عن مصداقية القرآن: هل هو كلامُ الله؟

المرحلة الثانية: نقطعها في رحلةٍ جديدة تبحث في مصداقية محمد نفسه. بمعنى أنَّ محمداً ﷺ لم يبتدع النصوص القرآنية، ولم ينسبها لرب العالمين، وإنما هي في حقيقتها وحيٌ من الله جلَّ وعلا نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ مِن غير كسبٍ منه ولا سعي، ليكونَ من المنذرين، بلسان عربيٍّ مبين.

آفاق هذه الرحلة متعددة بدءاً من دراسة تحليلية لظاهرة الوحي، وتعريجاً على سيرة النبي محمد ﷺ قبل البعثة وبعدها، وقبل التمكن وَبعْدهُ - حيث الانتصار الساحق على أعداء الدعوة الإسلامية - ومروراً باستقراء واقع الأميَّة التي التصقت بشخص رسول الله ﷺ وبأهل البادية العربية، وواقع الإعجاز اللغوي والعلمي في القرآن الكريم. فإذا كانت الملاحظات التي تمَّ رصدها في صالح نبوة محمد ﷺ، وسموه فوق الادعاء المزعوم، وعجزه المطلق عن خط الحروف القرآنية كتابةً وإعجازاً، وتفاعله مع ظاهرة الوحي على أنَّها أمر خارج عنه وعن بيئته وإمكانيات البشر، فإن القرار العلمي الذي نجزمُ به بعد هذه السياحة الفكرية أنَّ القرآن الكريم هو كلامُ الله وخطابه إلى العقلاء من عباده ما في ذلك شك ولا ريب.

أما إذا كانت ثمرة انطلاقتنا في البحث والاستنتاج عكس ذلك، فإنَّ قرارنا العلمي سيكون منسجماً معها، وهو أمرٌ يُلزمُ المسلمون به أنفسهم في جميع رحلاتهم العلمية، لأنَّ الدين الذي ينتسبون إليه بنى دعوته بينهم على أرضيَّة تحرير العقل من شوائب العصبية، والأهواء والشهوات، ومقتضيات المصالح المادية؛ لأجل أن يبقى صوتُ الحقيقة حرّاً لا سلطان لغير العقل عليه.

سأوَجه البوصلة في طريق الرحلة الجديدة أولاً إلى نسب وَسيرة رسول الله ﷺ قبل البعثة وَبعدَها نظراً إلى أن ظاهرة الوحي لم يكن لها وجود في حياة المصطفى عليه

الصلاة والسلام قبل الأربعين من عمره.

اختار ربنا جلّتْ قدرته نبيَّنا محمداً ﷺ منْ أزكى قبائل العرب، وأفضل بطونها، وأطهر أصلابها، فليس في آبائه وأجداده، مَنْ اتُّهم في نسبه أو صفاته العربية الأصيلة، فالجميع باتفاق النُسَّابِ كانوا مترفِّعين عن أنْ يتسلل إليهم شيءٌ من أدْران الجاهلية.

وَلم تكن سيرته عليه السلام أقلَّ طهراً من نسبه الشريف، وإنما كانت في طهرٍ يزكو بتقادم السنين، وهو ما أوْجزهُ لك في نقاط:

أولاً: لم يسجل على رسول الله ﷺ في حياته كلها قبل البعثة وَبعدها ما يشينُ الرجل الحرَّ، مع أنهُ كان يعيش ضمن إطار مجتمع جاهلي، المتع فيه متاحة لكل إنسان، ويكفي أن تعلم أن الناس من غير قريش كانوا يَطوفون بالبيت عراة، معللين ذلك بقولهم: كيف نطوف بثيابٍ عصينا اللهَ فيها؟!.

ثانياً: بدأ النبي محمد عليه الصلاة والسلام حياته في رعي الأغنام، وهي ملاحظةٌ هامة يجدرُ بالباحث أن ينظرَ فيها مَليّاً؛ لأنَّ عمه أبا طالب كان قد ضمه إلى أولاده، وتكفل برعايته، إلا أنه لم يكن أنانياً ولا متكلاً، وإنما كان ذا ذوق رفيع، وإحساسٍ دقيق دفعه إلى اكتساب الرزق من كدِّ يمينه، ما إنْ آنس في نفسه القدرة على ذلك.

ثالثاً: رعايةُ الأغنام تحمل في طيّاتها معنى آخر، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يكن مُتشوِّفاً إلى زعامةٍ أو ملك، ولو كان كذلك لما اختار أسلوب الرعي سبيلاً للعيش، ولاختطَّ لنفسه ما يعودُ عليه بالربح السريع والوفير. هذا المعنى نكررهُ أيضاً في طبيعة الحياة التي تقلبَ فيها محمد ﷺ، فهو قد وُلدَ يتيماً انتقل من كفالة جده عبد المطلب إلى كفالة عمه أبي طالب، وأثناء ذلك كان يرعى الغنم، ثم التفت إلى العمل أجيراً في تجارة خديجة، فالحياة التي عاشها كانت قاسية، ولم تكن حياة ترف ومُلك لذلك لا يجوز لنا أن نعتقد أنه كان يسعى إلى ملك، بدليل آخر هو أن آباءه لم يكن فيهم مَن مَلَك.

رابعاً: أمانةُ النبي ﷺ صفةٌ ملازمةٌ لسيرته منذ نشأته المباركة في عمله بمال

خديجة، التي دفعها صدقُهُ ونبلُ أخلاقه إلى طلب الزواج منه، وهو ما تحقَّق بالفعل بين كريمين جمعهما النسبُ الشريف، والخلق الكريم، أحدهما رسول الله ﷺ الذي بلغ خمساً وعشرين سنة، والآخر خديجة التي كان لها من العمر أربعين عاماً.

وَظهرت كذلك في اختيار قريش لمحمد ﷺ ليكون أمينها على الحجر الأسود، فأخذت برأيه، وَتركتْ لمحمد ﷺ حمل رمز عِزَّتها، وهي من كانت على وشك الاقتتال لولا تدخله في اللحظة الحرجة. كما تجلَّتْ أمانته بشكل أكثر وضوحاً في حادثة الهجرة إلى المدينة، حيث وقعت بعد زمن طويلٍ من التصدي للدعوة الإسلامية، وتكبيل أتباعها، والتفنن في إنزال ألوان العذاب الشديد بهم، وبعد الحصار الاقتصادي الذي شكل رمزاً من رموز منابذة المسلمين في كل شيء، بما في ذلك البيعُ والنكاح ووصول أسباب الرزق إليهم، فالحصار والموت في هذا الجانب لم يكن في مقدور المرء التمييز بينهما، ثم ختمت هذه الحقبة بسلب أموال المهاجرين إلى المدينة، ومع هذا كله فإنَّ نبي الأمانة محمداً ﷺ لم يضع يدهُ على ودائع المشركين التي كانت في حوزته، والتي كان المشركون لا يجدون أميناً مثلَ محمد عليه الصلاة والسلام ليضعوها في عهدته رغم عدائهم المستحكم له، فلا هم بحثوا لهم عن أمين آخر ـ والحق أنهم لم يجدوا مثله وإلا لاختاروه لذلك ـ ولا هو سلبهم ما استودعوه عليه مع ما يقيمه مسلسل الإرهاب المنظم ضدَّ دعوته وَرجالها من ألف تسويغ له لو فعل. لا، لم يُقْدِم على مثل هذه الخطوة، وإنما سارع إلى ابن عمه عليٍّ بن أبي طالب ليستخلفه على الودائع ليُؤَديَها إليهم بعد أن عزم على الهجرة إلى المدينة.

وبعد البعثة، حيث الهجرة إلى المدينة، وقيام أوَّلِ كيانٍ للمسلمين على وجه الأرض ظهرت أمانته وأخلاقه الرفيعة مع الأوس والخزرج من الأنصار، ومع اليهود القسيم الثاني في مجتمع المدنية، وَمع المشركين الذين وَفَّى عهوده معهم فنقضوها، لكنهُ ما لبث أنْ قال لهم عقب انتصاره عليهم: اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء.

قبل أن ينتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت الجزيرة العربية كلها تدينَ بالولاء

له، وهاهو يجهز جيش أسامة لغزو بلاد الروم، وهو الحَدث البارز الذي أعقب إرسال الرسل، وكتابة الكتب إلى كل من كسرى والمقوقس وهرقل فأمْرُ محمد ﷺ صار عظيماً، وسلطانه بات واسعاً، لكنَّ ذلك لم يمنعه من أن يخرج من الدنيا ودرْعُهُ مرهونةٌ عندَ يهودي. فهل عرفت البشرية أميناً بين أبنائها مثلَ سيد الخلق محمد ﷺ.

وإذا كان محمدٌ ﷺ لم يخن الأمانة قطُّ طَوَالَ حياته المضيئة التي امتدت ثلاثاً وستين سنة، فهل يجيزُ العقلُ خيانتها في حق السماء! وهل كان يذرُ الكذبَ على الناس ليكذب على الله! المنطقُ السليم، والاستدلالُ العقلي يأبى ذلك. ثم لماذا يكذب الإنسان؟ ليرفعَ من نسبه؟ لقد كان محمد ﷺ أزكى الناس نسباً وطهراً. لينال الملك؟ لقد عرضت عليه قريش ليكون ملكاً عليها فامتنع. ليحصِّل مالاً؟ لقد وُضعَ بين يديه ما يشاء من مالٍ شرط أن يترك أمر الدعوة فترفَّع وثبت على مبدئه. ليغنم امرأة جميلةً؟ أيضاً دُعي إلى مائدة النساء ليختار منها أكثرهن جمالاً فأكّدَ للقاصي والداني أنه إمام دعاة المبادئ. فإذا كانت الدنيا قد فتحت له ذراعيها فأعرض عنها، وإذا كانت دواعي الكذب منتفيةً في حياة محمد ﷺ، فمَنْ هو هذا الناعق الذي يُرَدِّدُ بغباء مثل هذا الادعاء؟ ومن هو هذا الأحمق الذي يُقَلِّد ذاك على غير بيِّنةٍ أو هدى؟.

النقطة الأخرى في الرد على الزعم القائل بتأليف محمد ﷺ للقرآن الكريم! أنَّ رسول الهدى ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يحسب، نشأ في أمةٍ أمية هي أيضاً على هذه الصفة[1]، فليس بين يدي العرب مراجعُ عن أخبار الأمم وتاريخ الشعوب، ولا كتاباتٌ عن نشأة الكون، وفلسفة الحياة، وقواعد الفكر والنظر، وإذا ما وُجِدَ عند البعض منهم شيء قليلٌ منها فإنَّ محمداً ﷺ كان عاجزاً عن الإطلاع على هذا النَّزْرِ

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الصوم عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ، لانكتبُ، ولانحسُبُ، الشهرُ هكذا وهكذا» يعني مرة تسعة وعشرين، ومرَّةً ثلاثين. رقم ١٨١٤، وفي رواية أخرى رقم ١٨٠١: «وخنسَ الإبهام في الثالثة. وهذه الثانية رواها مسلم برقم ١٠٨٠.

اليسير، لاحظَّ له في الحرفِ وعلومه، كما أن التاريخَ على اختلاف مصادره لم يأتِ على إثبات العكس، لابل إنَّ وقائعه المختلفة شاهدة على تلك الأمية.

على الطرف الآخر نجدُ في القرآن الكريم مساحةً واسعة للكلام، عن أحداثٍ مستورة خلف جدار الزمن البعيد، حيث تُعَدُّ قصص المرسلين بعضَ محطاتها. فمن أين جاء محمد ﷺ بكل هذا وليس في بيئته العربية مواقع حضارية ترفِدُه بشيء من ذلك؟ ثم الأهمُّ من هذا كله أن القرآن الكريم صحح ما وقع في روايات الأمم من أخطاء سواء في العقيدة الدينية، أو الغيب المخبوء، أو السيرة الطيبة لأنبياء ورسلِ الله ضمن تفصيلات لا يأتي عليها إلا مَنْ شهد تلك الحوادث بعيني رأسه، فلو لم يكن القرآنُ كلامَ رَبِّ العالمين لتعثر محمد ﷺ في خطوته تلك، أوْ لا تَّفَقَت روايات القرآن مع ما اشتهر بين الناس من حكايات واعتقادات، أو لما قدر على الدخول في أدق التفاصيل ضمن أداءٍ بلاغي معجز. هذه النقطة بالذات تُزيل شبهةً قديمةً جديدة طالما عزف أعداءُ الإسلام على وترها، وهي قولهم: إنَّ القرآن الكريم مجموعة من النصوص متطورة عن الديانتين اليهودية والمسيحية، متجاهلين عن قصد أنَّ الإسلام دينٌ توحيدي أخذ على عاتقه منذ اللحظات الأوْلى لفجره تصحيح ما وقع به اليهود والنصارى من تصورات في حق الله والرسل وفي رؤيتهم للغيب وعلاقتهم بالشهود. كما تجاهلوا تماماً اختلاف الإسلام في تشريعهِ وتكاليفه عن كلٍّ من الشريعتين في كلا الديانتين. فلا العقيدة واحدة، ولا الشريعة واحدة، ولا مسيرة الأنبياء واحدة.

ثم كيف يمكن لمحمد ﷺ الاطلاعُ على تفصيلات الديانتين وهو أميّ، في أمةٍ أمية؟ وإذا ما جاز له أنْ يطلع - والأمية وصفه - فأنَّى له أنْ يُصَحِّحَ؟ وإذا ما افترضنا التصحيح - وهو مستحيل في ظل اختلال الشروط - فمتى كان التصحيح نسخاً كاملاً لقصص وعقائد وتشريعات، وتسجيلاً للأحداث حتى أدقِ الجزئيات، إلى درجة تجزم فيها بأنَّ الذي يقول ذلك إنما يُعلن عن رؤية ومشاهدة، وليس عن قيلَ وقال. لعلَّ القائلين بهذا الهراء يستشهدون على زعمهم بإقرارِ محمد ﷺ لنبوَّةِ من سبقه، وكتبِ

مَن سلفه ، لكنه استشهاد يتكيءُ على سرابٍ ؛ لأنَّ المبدأ الأساسي للدين الإسلامي أنَّ الدين في عمومه واحد ، فدينُ الإسلام ليس نسخة منقَّحة عن دين موسى وعيسى ، بل نسخةٌ مطابقةٌ ، فالنسخة في دين عيسى وموسى ومحمد أصلية سواء في العقيدة أو الأخلاق أو الأصول أو الرؤية ، والإسلام يُصَرِّح بأنَّ الاختلاف الحاصل ليس بين دين ودين ، وإنما بين دين وأيْدٍ تدخلت في الدين تحت دعوى التطوير والتغيير والتأثر بالحضارات والظروف والمفاهيم ، ولولا ذلك لبقي الدينُ واحداً كما هو حتى زمنِ ظهورِ الدعوة الإسلامية .

الغالب أنَّ أصحابَ هذه الدعوات منكرون للنبوة من أصلها ، وللدين برُمَّته ، لذلك فإنهم ينظرون إلى كلٍّ من موسى وعيسى ومحمدٍ ـ عليهم السلام ـ على أنهم مؤسسون لديانات لا أنبياء في دياناتٍ أمروا بتبليغها ! وهم يُفَرِّعون عن هذا الفهم الفاسد مقولتهم : إنَّ محمداً اطلع على مذاهب منْ سبقه من المؤسسين ـ حسب زعمهم ـ فأخذ منها وطوَّر ! .

إنَّ أدنى معرفة للدين الإسلامي ، ولطبيعة الرسالات التي سبقت ظهورهُ ، ولواقع محمد ﷺ والجزيرة العربية من حوله التي لم تعرفْ بين عربها ديناً ما إلا على مستوى أفرادٍ محدودين ، والتي كانت غارقة في غياهب الجهل ، بعيدة حتى عن فكِّ الخط ، إنَّ ذلك كلَّه يقضي بصورة تامة على فُرَص هذا الاحتمال الذي ليس أكثر من أمنيَّة يحلمُ بها المعرضون ، ولا يرضى بها الباحثون ، ويسخر منها المؤمنون ، ومعهم الأحرار الموضوعيون . وبمناسبة ذكر الأداء البلاغي فإنني أسجل هنا نقطة أخرى :

محمد ﷺ عربي ، نشأ في أمة عربية يتفاخرُ أبناؤها باللسان العربي الفصيح ، ويعقدون على ذلك الأسواق السنوية ، ويقدمون الجوائز الراقية التي يسيلُ لها لعابُ كل بليغ والتي تُشبه إلى حد ما جوائز نوبل العالمية في زماننا . الناسُ يومها كانوا يتناقلون اسم الفائز ليرتقي في قلب القبائل العربية قاطبة منزلةً وعزاً على جادة تشبه من بعض الوجوه قائمة «غينيس» للأرقام القياسية ، فإذا ما سلّمنا جَدَلا أنّ القرآن من تأليف محمد فهل

ترضى عقولنا أن يملك محمد هذا الإنسان الذي ينبض بالبشرية فوق ما يملكه العربُ مجتمعين، فيعجزون عن مجاراته ولو في سورة واحدة من سور القرآن الكريم، وهم أربابُ الفصاحة والبلاغة والبيان، وهم المشجعون على قيام الأعمال الأدبية نثراً وشعراً في أرجاء الجزيرة العربية، وهو الذي ما زال يسخرُ منهم ويتحداهم في أسلوب استفزازي يدفعُ المعرِض إلى النزال، ويُحرِّك في داخله نوازع الردِّ انتصاراً للكرامة الشخصية، والقبلية، والقومية. أضِف إلى ذلك أنَّهم جميعاً أعلنوا على محمدٍ ﷺ حرباً لا هوادة فيها ولا رجعة عنها، استباحوا لأنفسهم في ساحاتها كل صنوف الأسلحة المسموح بها والممنوع منها في عُرْفِ ذلك الزمان، وهم في كل هذا ما زالوا يشككون في مصداقية القرآن الكريم ليل نهار فمن المستبعد أن يتحداهم محمدٌ ﷺ على طريقةِ الاستدراج والسخرية التي شهدناها في آيات القرآن الكريم حيث أعلن عجزهم ومعهم الإنسُ والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلم يأتوا، ثم خفَّف من شروط التحدي فسألهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم مفتريات ـ على حد زعمهم ـ ثم إنَّه تحدِ أخذ معهُ الخصمُ الوقت الكافي للقبول والردِّ فاستمر قائماً حتى وفاة رسول الله ﷺ، أفيُقالُ بعد ذلك: إن القرآن من تأليف محمد ﷺ! وهو الكتاب الذي أجمع العرب قاطبةً على اعتماده المرجع الأول في اللغة العربية وَشواهدها وضوابطها، وهو الذي أغنى اللغة العربية وحفظها من العوادي طَوَال خمسة عشر قرناً. ألا فليملك التائهون شيئاً قليلاً من شجاعة الأحرار العقلاء فإنه يكفي لاتخاذ قرارٍ صائب في نفي صفه البشرية مطلقاً عن آيات الذكر الحكيم.

هذه هي صورة موجزة عن أبرز النقاط في سيرة محمد ﷺ مصدرها المراجعُ الإسلامية، ولا شيء سوى هذه المراجع. لكن لماذا؟ لأن سيرة المصطفى عليه السلام من أقوالٍ وأفعالٍ وتقريرات كانت المفتاح لفهم كتاب الله، لذلك بادر المسلمون إلى العناية بها، فالقرآن دستورٌ، والدستور من شأنه الاختصار على القواعد العامه، فمن يشرح تلك القواعد؟ إنها السنة، وَحيُ الله إلى رسوله ﷺ. مَن يفسرُ الوحيَ المتلوَّ

لفظاً ومعنى - أي القرآن - غيرُ ما أوْحيَ بـه معنى فقـط وهـي السـنة التـي جـرى لفظهـا والتعريف بها على لسانِ رسول الله ﷺ، والتي لولاها لـم نعـرف تفـاصيلَ الأحكـام في العبادات والمعاملات وسائر جوانب الإسلام. لذلك بذل علمـاء السـنة جهـوداً مضنيـة وصلت إلى تفحُّصِ أكثر من نصف مليون شخص نقداً مستفيضاً، وهـذه ميزةٌ تحسب لأمتنا، فالتاريخ لم يعرف أمَّةً نقدت رجالها إلا أمـة الإسـلام، وهـي بمنهجهـا القاسـي الذي وضعته في سبيل تمحيص الحقائق، ومعرفة الدقـائق، وكشـف الحديـث الصحيـح من الموضوع على لسان رسول الله كذباً وزوراً، تخطَّت العقبات التي لاقتها من ظهـور مشـاحنات تولـدت عنهـا أحـزابٌ ومذاهـبُ واتجاهــات، فـالضوابطُ الصارمـة لـرواة الحديث، وسلسلة الحديث، والأسانيد الأخـرى كـانت الوسيلة العلميـة الدقيقـة التي أرساها المسلمون لحفظ السنة، لأنها المصدر الثاني للتشـريع الإسـلامي، فـالدافعُ كـان دينياً ولولاهُ لما تحملوا كلَّ هذا العناء: فما لا يتمُّ الواجب إلا به فهـو واجـب، ولا يتـم حفـظ السـنة إلا بـالجهود الجبـارة التـي بُذلـت، فصـارت واجبـةً، ولذلـك قـالوا: لـولا الإسنادُ لقال من شاء ما شاء، ولذلك بدورنا نقول: يحق للمسـلمين أن يُفـاخروا بهـذا الصرح العلمي العظيم المسمَّى علوم السنة، يفاخروا به بين بعضهم، وأمـام أجيـالهم، وعلى مسمع ومرأى الدنيا بأسرها.

قـد يتخـذ بعـض الطـاعنين بالسـنة مســألة التدويـن سـبيلاً للتشـكيك بالسـيرة والأحاديث القولية والتقريـرات النبويـة. إلا أنـه كسـابقهِ شـباكٌ أخـرق لـم يعـد صالحـاً لصيد ذوي الثقافة المحدودة كما اعتاد المحترفون لعملية الغزو الفكري على أمتنا.

التدوين عاصر عهد النبـوة، غـيرَ أنـهُ لـم ينطلـق معـه مـن نقطـة البدايـة، بسـبب التعليمات الصادرة عن رسول الهدى محمد ﷺ في صدر الإسـلام بـالنهي عـن تدويـن السنة كي لا يضيعَ القرآن، خشية اختلاط الكتاب بالسـنة، في زمـن لـم يسـتقر فيـه أمرُ الوحي بعد، ولا تدعو الحاجة إلى كتابة السـنة وهـي مـا زالـت في مهدهـا، ومادتهـا مـا زالت قليلة جداً، ولأنَّ الصحابة الكرام حديثـو عهـدٍ بكـلٍّ مـن الكتـاب والسـنة، فلـم

تكن لديهم في تلك الأيّام مَلَكَةٌ يقدرُ بهـا الصحـابي علـى التمييز بين النـص القرآنـي، والخطاب النبوي، لكنهم مع مـرور الوقـت اكتسبوا الخبرة الكافيـة فـأذِنَ لهـم بتدويـن السنة، غير أنه إِذْنٌ ظل جزئياً مقتصراً على بعض الصحابة المتمكنين مما يسجلون، فلم يعمم إنما حُصِرَ في دائرة كتابة هؤلاء لأنفسهم. من الأمثلة صحيفـة عبـد الله بـن عمرو ابن العاص، وفيها أحكام الجنايات التي فصّلَتْ تفصيلاً واضحـاً[1]. ويكفـي أن تعلـم أنّ رسول الله ﷺ كان يقول لكتّاب الوحي: اكتبو لأبي شاه[2].

أمَّا التدوين الكلي فقد جاء متأخراً؟ لكن كم من الزمـن مضـى بـين وفـاة رسـول الله ﷺ والتدوين الشـامل؟ ليس وقتـاً طويـلاً، إذا مـا تذكرنـا أن العـرب أمـة أميـة جـلُّ اعتمادها على ذاكرتها مما أكسبها حافظة قوية صقلتها الممارسة.

على سبيل المثال نذكر ما يتعلق بالسيرة النبوية، فأوَّلُ من اهتمَّ بكتابتها هو عـروة بـن الزبير المتوفَّى سنة ٩٢ هـ، وهو مـا يعنـي أنَّ التدويـن سـارت عمليتـه مـع بدايـة القـرن الأول الهجري، ونشأ فصله الأول على يد ابن أحد كبار الصحابة، هو الزبير بن العوام، مَنْ كان في قلب الحدث، وجزءاً منه، وفاعلاً فيه، أي: واحداً من رجاله الأكارم.

إذن الكتابـة والإسـناد سـارا معـاً في خطـين متوازيـين ثـم التقيـا متعـانقين في آخـر الطريق خدمة للقرآن الكريم للأسباب التـي أتينـا علـى ذكرهـا فالإسـناد وسـيلة علميـة لحفظ السنة.

والإسناد كان ديناً، وكذا التدوين.

وبكلٍّ منهما حُفِظت علوم القرآن الكريـم، لذلـك قـال ابـنُ عبـد البـر: «القـرآنُ أحوجُ إلى السنة من حاجة السنة إلى القرآن».

---

(١) طبقات ابن سعد ج٢ ص٢٧٣، ج٤ص٢٦٢.

(٢) أبو شاه صحابي من عامة الصحب الكرام من أهل اليمن سـمع مـن رسـول الله ﷺ كلامـاً فلـم يحفظهُ، فقال: أُكتبوا لي يارسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أُكتبوا لأبي شـاه» انظر صحيح البخاري، كتاب اللقطة رقم ٢٣٠٢، صحيح مسلم كتاب الحج رقم: ١٣٥٥.

ثم متى كان العدو يؤرخ بأمانة؟!.

لو سألنا اليوم فرنسا عن حقبة استعمار سوريا ولبنان والمغرب العربي فماذا ستكتب؟

لو تصفحنا كتابات البريطانيين عن مرحلة استعمار مصر أفلا نُصْدَم؟

لو تقدمنا إلى إيطاليٍّ اليوم أو الأمس لصياغة تاريخ ليبيا فماذا ننتظر منهم؟.

إن العدو لا يعرف النزاهة، ولقد وقف منذ أيام الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقه في باريس يطالب جاكْ شيراك وحكومته أنْ تعدِّل دراساتها حول فترة وجود فرنسا في الجزائر والتي تدرَّس على طلاب فرنسا بما يتنافى مع الكرامة الجزائرية، فهلا أيقظ هذا الكلام من كان نائماً، وهو يحلمُ أن يجد في مصادر غير إسلامية حقيقة يظن جهلاً وحقداً أنه لم يجدها في مصادرنا الإسلامية.

فلماذا التشكيك إذن بالمصادر الإسلامية؟

ألأنها عربية؟

إنَّ محمداً ﷺ بُعث عربياً، في شبه الجزيرة العربية، فأصحابه الكرام كانوا في معظمهم عرباً، فمن البدهي بعد ذلك أن تكون المصادر عربية، فالعرب هم مادة الحدث، وهم الشاهد على الحدث، وهم المتابعُ والمهتم له. ومحمد ﷺ لم يُبعث فيهم فحسب، وإنما سفَّهَ آلهتهم، وتجاوز الخطوط الحمراء في حواره معهم، ولأنَّ دينهُ أحدث زلزالاً في مجتمعاتهم طالَ كل بيت، وحيٍّ وقبيلةٍ بين مؤيد، ومعارض، ومنتظر، ثم إنَّ الأمرَ لم يتوقف عند هذا الذي ذكرت، وإنما تجاوزه إلى بذل النفس والمال في سبيل الإيمان بمحمدٍ أو الكفر بدينه، إلى أن اجتمعت كلمة الجزيرة العربية أخيراً على تقديم الغالي والرخيص في سبيل تبليغ دين الله للعالمين، فكيف نعجب بعد هذا كله من الأخذ بالمصادر الإسلامية، وهي الأم لأبناء الإسلام حدثاً ومادةً وتطلعاً!

هذه إحدى البدهيَّات التي لا تتطلبُ من الباحث إثباتاً أو تأكيداً، ورغم ذلك فإنَّ الأفَّاكين لا يزالون مصرِّين على إثارة الغبار حول السنة أملاً منهم في أن يبلغوا في

هـذا الدين مطعناً ، فهل علـم هـؤلاء المتفيهقـون شيئاً عـن علـم مصطلـح الحديـث والضوابط العلمية الدقيقة في منهج تمحيص الأخبـار عنـد المسلمين؟ هـل سـمعوا شيئاً عن علم تراجم الرجال والجهود الهائلة التي بذلها علماء الحديث منعاً مـن تسـلل خـبر مريض إلى جسم السنة الصحيح؟ هل تلقَّوا شيئاً عن علوم السند والمتن والإسـناد؟ أنا أجزم أنهم يجهلون كل هذا ، فهم من غير المتخصصـين بـالعلوم الإسـلامية ، ثـم إنهـم محترفون وُظِّفُوا لأجل إقصاء الأمة عن دينها فهذا عملهـم ، وتلـك غـايتهم ، فمثلهـم مثـل الجنـدي الجـاهل الـذي زُجَّ بـه في سـاحات المعركـة ، وقيـل لـه مسـؤوليتك تدمـير حصون العدو لكن لماذا؟ وهل هو عدوٌ بريئ أو ظـالم؟ يجيبـك أن لا علاقـة لـه بشـيء من ذلك . إنهم يصمون آذانهم عـن الحـق ، ويغمضـون أعينهـم عـن رؤيتـه ، ويقيمـون بينهم وبين الحقيقة سوراً عالياً قد حُقِنَ عداوةً وحقداً ، لذلك فالقراراتُ عندهم دائمـاً جاهزة هي أشبه ما تكون بالوجبة الجـاهزة التـي لا يكلـف آكلهـا عنـاء تحضيرهـا ، وقـد تكون مغشوشة لكنها على أي حال تكون ممتعةً تشعر من يتناولها بالشبع ، غير أنَ ذلك إذا جاز في الطعام الذي يشترك فيـه الحيـوان مـع الإنسـان ، فلـن يكـون الأمرُ مفيـداً في مسائل الفكر الإنساني ، ووسائل تمحيص الخبر ، وهي ما خـصَّ الله بـه الإنسـان وحـدهُ دون سائر المخلوقات .

أما لماذا لا نعتمدُ المصادرَ غيرَ الإسلامية؟

فالجوابُ على ذلك بسيطٌ جداً .

أوَّلاً : لأنَّ كلاً من دولتي فارس والروم كانت بعيدةً عن الحـدَث ، ولـم تكـن في قلبه يوماً ، اللهــم إلا في أواخـر عصـر النبـوة ، يـوم غـزوة تبـوك ، ووقـت تجهيـز جيـش أسامه ، والبداية انطلقت مع إرسـال الكتـب إلـى أبـرز ملـوك الأرض آنـذاك الذيـن لـم يكونوا يوم نادى محمد ﷺ بدينه في جوار الكعبة . وما علموا شيئاً عن الطغيان الظالم الذي تعرَّض له الصحب الكرام طوال ثلاثة عشر عاماً في مكة . وما شاركوا ولا انتبهوا إلى جيوش العرب وهي تزحف على المدينة تريدُ دكَّها على رؤوس أصحابها . لـم يـدر هؤلاء شيئاً إلا يومَ ذاعَ صيتُ الإسلام في كل مكان ، ولـم يعد حديثاً عن صابئ مجنونٍ

خارج عن قومه، ليتحوَّل إلى نقاشٍ يشوبه الحذر حول داعية استطاع رغم الإجماع العربي على محاربته بالحديد والنار والحصار، استطاع وخلال ثلاثة عشر عاماً أن يخترق العقول العربية المتصلبة وهو أعزل من السلاح. منذ ذلك الوقت دخل محمدٌ ﷺ وإسلامه في حسابات أصحاب النفوذ، وهم مَنْ كانوا ينظرون إلى عرب الجزيرة العربية على أنهم على هامش الأحداث، يدفعون لقاء حمايتهم ثمناً معلوماً، وما كان أحدٌ قبل الإسلام يُفكر بشأن القبائل المتناثرة في صحراء العرب التي ترى حياتها اليومية حرباً شغلتها عن مهمات الأمور.

ومتى كان المتحضرون يدوِّنون تاريخاً لقبائل أميَّةٍ جاهلة تعيش فوق أرض لاحضارة فيها ولا موارد، وترضى بحالة الذَّنبية، لسادة متحضرين مرفَّهين مشغولين بقضايا الحكم والنفوذ.

ثانياً: لأننا لا نثقُ بنزاهة المصادر غير الإسلامية، لأنَّ الدولتين المتاخمتين للمنطقة العربية فارس والروم، قامتا على التوسع والطغيان، واعتمدتا أسلوب القهر والإذلال، لقبائل العرب ومواطني العراق والشام، واختصَّتْ دولةُ الروم باللعب بمهارةٍ على ورقة الدين المسيحي حين أفرغته من معانيه النبيلة، وامتطت جواده لتغطية أطماع استعمارية متسلطة.

فالدولتان وجدتا في الدين الجديد عامل وحدة للقبائل المتناحرة، وظاهرةً تهددُ مصالحهما بخطر الزوال، بل تنذرُ برياح تغيير لوجودهما معاً وهو ما تحقق فعلاً فيما بعد، فقد انحسرت دولة الروم عن بلاد الشام إلى غير رجعة، وغابت دولة الفرس من تحت قرص الشمس عن أرض فارس إلى الأبد. ثم إن في انصهار حضارتي الإمبراطوريتين في بوتقة الإسلام العظيم بالكامل، وفي دخول أبنائهما في دين الله أفواجاً، في هذا كله ما يجعل من كتابات مؤرخي تلك الأمم موضع نقد وريبة؛ لأنها بلا شك كتابات يتسربل مدوِّنوها بلباس الضغينة والحقد، ولا أدلَّ على ما أقول من قَتلِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بخنجر مسموم على يد أبي لؤلؤه المجوسي انتقاماً

لعباد النار في فارس وزوال نفوذهم، ومقتل عثمان بن عفان على يد فتنة ابن السوداء ثأراً لاندحار اليهود من الجزيرة العربية ومن قيام حروب طاحنة قبل ذلك كله بين أبي بكر الصديق وعملاء هرقل في قلب جزيرة العرب تطلبت إرْسال أحد عشر جيشاً فيما عرف بحروب الردة التي قامت خوفاً من امتداد النفوذ الإسلامي.

النقطةُ الرابعة: إعجاز القرآن الكريم من الناحية العلمية:

قدَّمنا في الفقرتين السابقتين أن محمداً ﷺ كان أميّاً في أمةٍ أمية. هذا يعني أنَّ رصيد العربي من العلم والمعرفة كان قليلاً جداً، وغيرَ محرر أمام ما هو عليه الروماني أو الفارسي آنذاك. وبالقياس على العصر الذي نعيش فيه حيث الثورات العلمية على معظم جبهات الفكر الإنساني إلى حد حصّل فيه حامل الشهادة الابتدائية على كنزٍ من المعلومات الكونية يتفوق فيه على سائر علماء العصور السابقة بما فيهم أبناء الحضارات الرومانية والفارسية والكونفوشيه... لذلك فإنَّ النسبة بين العربي الذي يقيم في الجزيرة العربية، وبين أبناء القرن الحادي والعشرين هي أكبرُ من ذلك بآلاف المرات بل بعشرات الآلاف منها.

عند هذه الملاحظة الدقيقة قد يعلو صوتُ بعض المفتونين بالحضارة الغربية وإنجازاتها فيقول: ما الذي يجعلنا نعكفُ على كتابٍ مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرناً، وعصرنا تجاوز عصر النبوة بمئات المراحل من الكشف العلمي؟ أنا ابن القرن الحادي والعشرين، ابنُ عصر الفضاء والحاسوب (الكمبيوتر) والإنترنت، ابنُ ثورة الاتصالات حيثُ الأرض قرية صغيرة تُريدون مني أنْ أعودَ أدراجي إلى الوراء! وأن يحكمني نبيٌ من الصحراء!

فمن يردُّ على هذا المفتون في دعواه؟

إنهُ القرآن الكريمُ مرة أخرى؟ القرآنُ الذي ألجم أفواه أصحاب التبعيات لفارس والروم، يعود مرَّة أخرى ليلجم دعاةَ التبعية المطلقة للحضارة الغربية ويوقظ المفتونين بصرحها بعد أنْ صار أصحابُ هذه الدعوات لا يرون لأنفسهم وزناً، وهم ينظرون بعين النقص لأمتهم أمامَ المارد الغربي العملاق!

القرآنُ الكريم يمهلُ الحضارة الغربية لتأخذ حظها من البحث العلمي في موضوعٍ ما مسخّرةً كلَّ إمكانياتها التي جَنَتها في ثوراتها العلمية، أو اعتصرتها من خلاصة التجربة الإنسانية عبر العصور المتقدمة عليها، ثم بعد سنوات من البحث المضني، والجهد المتواصل تخرج الأبحاث العلمية بثمرة دراستها، لتفاجأ بأن القرآن الكريم الذي أنزلت آياته منجمة على قلب رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، في أمةٍ أمية، وفي ظروف حضارية بدائية قياساً لما هو عليه الإنسان في عصرنا الحاضر، أنَّ هذا القرآن قد سبق الغرب والشرق والحضارة نفسها في إعلان هذا الاكتشاف المثير، فإذا بالعقل الإنساني يسجد لمنزل هذا الكتاب، وَيعتقد جازماً أن محمداً ﷺ مهما أوتي من علمٍ ومعرفة فلا يمكنه أن يسبق أدوات ذلك عند ابن القرن العشرين الذي أتيحتْ لهُ أسباب الدراسة والبحث، بينما أدوات البحث ووسائله عند أبناء البسيطة آنذاك لا تفي بالغرض أو شبه معدومة فكيف إذا كان مَنْ نتحدثُ عنه لم يؤت قسطاً منها بسبب أميته وأمية قومه، وحياةِ الصحراء التي عاشها بمنأى عن ظروف المدنية التي عُرِفَت بها كل من فارس والروم.

لا يرضى عاقل حرّر قراراته من وساوس النفس وإيماءات الشهوة، ودوافع العصبية، وسلطان المصالح أن يقول: إنَّ القرآن الكريم كلام محمدٍ اختلقهُ ونسبه إلى الله! مَن هو محمد ﷺ في بشريته لينسف عالم الأسباب وقانون المقدمات والنتائج ويتجاوز عصر الاكتشافات العملاقة في تاريخ البشرية على الإطلاق، فيقرر في بساطة الجزيرة العربية ما يراهُ الغربيون اليوم اكتشافاً ثميناً جندوا له كل ما لديهم من خبرة وأجهزة ووقت!.

وكم من عالِمٍ من علماء الغرب دخل في الإسلام بسبب هذه المعجزة العظيمة التي يلقي القرآن الكريم بظلالها علينا نحن من نقف على عتبة القرن الحادي والعشرين.

وللتوثيق من صحة ما أقول، أختارُ لك من الأمثلة ما يزيدُ المسألة تلألُؤاً، ولن أستقصي لأنني حينئذ أحتاجُ إلى عمري بكامله أسجل موسوعة لا تنتهي في إعجازات القرآن الكريم دون أن أبلغ غَوْرَ هذا البحر الزاخر، أو شاطئه البعيد.

المثال الأول نصٌ في سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا

﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

الله عز وجل خلق الإنسان من نطفة وهو ما تضافرت عليه نصوصُ الكتاب والسنة. والنطفة هي الحيوان المنوي بدليل قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]. الحيوان المنوي يدخل رحم المرأة في عملية الجماع حيث يتم تلقيح البُيَيْضَة بواسطته، لكن الخلية المتكونة منهما تبقى في مرحلة النطفة حتى أربعين يوماً من استقرارها هناك. هذه المعلومة صرّحت بها السنة النبوية المطهرة بالأرقام على لسان رسول الله ﷺ حين قال: «يُجمعُ أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة»[1] فالنطفة مرحلة تقدير الطفل بأعضائه ومواصفاته. قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عَبَس: ١٧ ـ ١٩].

بعد اثنين وأربعين يوماً يبدأ التصوير في النطفة، وهو ما طلع علينا به رسولُ الله بقوله: «.. إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً بعث اللهُ ملكاً فصورها وشقَّ سمعها وبصرَها وجلدها ولحمها وعظامها»[2] وقوله أيضاً: «يجمعُ أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يوماً علقه».

هذا ما أخبرَ به رسول الله فماذا قال العلم؟

قال علماءُ الأجنة: إن الطفل يبدأ بمرحلة الحيوان المنوي ـ النطفة ـ ويبقى كذلك حتى نهاية الأربعين يوماً الأوْلى، والنطفة عندهم برنامج إلهي لتحديد وظائف كل جزءٍ في الخلية بواسطة شريط DNA الذي سجلت عليه كل المعلومات المطلوبة: الجنس: إنسان ـ سبع ـ طائر ـ قط ـ فأر، والأعضاء: فالجهاز الهضمي للسباع مختلف تماماً عن الجهاز الهضمي للإنسان بما يتناسب مع كل منهما، وهو ما يوجد مختزلاً في

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٠٣٦ ومسلم ٢٦٤٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم ٢٦٤٥.

سجل المعلومات المثبتة على الشريط الوراثي. الدماغ كذلك. اليدان والأجنحة وهكذا. فالبداية من خلية واحدة، ثم تتضاعف لتصبح خلايا كثيرة وفق هذا البرنامج. وهو ما يحدثُ للإنسان تماماً. لكن متى تبدأ عملية التصوير؟ قال علماء الأجنة لا يكونُ تصوير قبل اثنين وأربعين يوماً. وهنا موقعُ المعجزة. محمد ﷺ يأتي على ذكر المراحل الجنينية المتعددة ويصفها وصفاً دقيقاً من خلال الكتاب والسنة بالأرقام والوظائف وهو الأمِّي الذي عاش في قلب الصحراء قبل أربعة عشر قرناً حيث لم يكن ثمة علمٌ يُدعى الأجنة! ولم يعرف العالم بعدُ شيئاً اسمهُ المجهر! ولم يكن باستطاعة أحدٍ أن يصفَ ما وراء فرج المرأة! ولا ما يجري داخل الرحم! نطفةٌ تحافظ على وصف النطفة اثنين وأربعين يوماً من أخبر محمد ﷺ بذلك؟ إنهُ الله.

التصوير يبدأ بعد ذلك. من أين أتى محمدٌ ﷺ بهذه المعلومه؟ إنه الله؟

أرقامٌ دقيقةٌ كيف حدَّدها ﷺ؟ إنه الله.

علماءُ الأجنة ذُهلوا عندما وجدوا مطابقة تامة بين حديث رسول الله ﷺ والواقع الطبي. لقد أخذت شركة (سِيبن) الصورة في يوم (٤٢) للحمل، فلم تبدُ صورة الجنين، ثم أخذت صورة له بعد أسبوع من هذا التاريخ فبدت واضحة المعالم، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

بعض من يلوي عُنُق الحقيقة يقول: لقد ذَكَرَ محمدٌ ﷺ هذا صدفةً! لكنَّه قولٌ مردودٌ بما بين أيدينا من نصوص قرآنية ونبوية في تفصيل هذا الموضوع وصلت إلى خمسةٍ وعشرين نصاً. فأين الصدفة؟ قد تأتي الصدفة في عبارة يقولها الإنسان من غير قصد فتوافق الحقيقة، لكن عندما تكون بهذا الكم وهذه الكثره فإن القول بالصدفة هو محضٍ كبر وغباء. ثم إن الصدفة تردُ على جزئيةٍ ما، أمَّا عندما يتناول النصُّ حياةً جنينية مدتها تسعة أشهر بمراحلها، وزمن كل مرحلة، ووظيفتها، فأين الصدفةُ من هذا كله؟

ربما ادّعى بعضهم مكابرةً منه في إغماض عينيه عن الحقيقة بأن محمداً ﷺ كان يمتلك مجهراً لمعرفة ما يخرج به على الناس! لكنهُ مردودٌ أيضاً؛ لأنها دعوى تحتاج إلى

إثبات؛ ولأن أول مجهرٍ في الدنيا اكتشف في القرن السادس عشر، ثم طُوِّرَ بعد ذلك، كما أن هذه المعلومة لم يقل بها أحد من علماء الأجنة قبل العام ١٩٤٥ .

التقدير في مرحلة النطفة، والتصوير في مرحلة العلقة إعجازان إسلاميان، فالأولى لم تكتشف إلا بعد بروز علم (الكروموزومات) الصبغيات، أما الثانية فإنها ظهرت مع تطوير المجهر على الوجه الذي نعرفه اليوم، فأين موقع الصدفة من كل هذا؟ .

على أنَّ من مفكري الغرب والشرق وأساتذتهم من تنسجم مواقفه تماماً مع قرارات عقله لذلك يقول الدكتور «مور» أحدُ علماء الأجنة المشهورين: «لا أستطيع أنْ أوافق عقلي إلا أنّ هذا الهامٌ أو وحيٌ». نعم إنهُ الوحيُ الذي نزل بعلم الله. قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ويقول بروفسور كَنَديٌّ: «إنَّ محمداً كان رجلاً عادياً جداً بل كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، ونحنُ نتحدث عن رجل يدلي ببيانات مدهشة، وتصريحات عميقة ودقيقة وذات طبيعة علمية، وأنا شخصياً لا أستطيع أن أتصور أن أرى كيف يكون هذا مجرد مصادفة». ويقول أحد المختصين بعلم الأجنة في موسكو: «لو كنا نحنُ نملك هذه المعلومات لكنَّا أقمنا الدنيا، ولم نقعدها» ثم يتابع: «لقد أصبحتُ أُدَرّسُ طلابي الذين أجيزهم في رسالات الدكتوراه المصطلحات القرآنية: النطفة ـ العلقه ـ المضغة ـ العظام» قال: «وجدتها أنفع لهم» وقال البرفسور الياباني يوشيدي بوزان: «إن الذي يصف الكون في هذا القرآن هو واصفٌ ينظر من فوق»[1] .

النقطة الخامسةُ في هذه الرحلة المتشعبة: هي دراسةٌ تحليليةُ لظاهرة الوحي، التي يكثر محترفو الغزو الفكري من العزفِ على وترها، وهم يملكون لذلك الدوافع الكافية، فالوحيُ هو بريدُ الذات الإلهية إلى واحدٍ من عباده في الأرض، يُعْلِمُهُ

---

(١) مادة الاعجاز القرآني التي ذكرتها بين يديك مقتبسةٌ من دروسٍ كانت تلقى في رمضان في عام ٢٠٠٠ على قناة قطر الفضائية للباحث في معجزة القرآن الكريم فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني.

باختيار الله له، ليحمل أعباء رسالةٍ إلهيَّة ضمن ضوابط شرعٍ إلهي ملزم.

والوحيُ على هذا الوجهِ هو الأساسُ الذي تترتب عليه جميعُ حقائق الدين بعقائده وتشريعاته، ومن غيره لا نستطيع التميز بين إنسان يفكرُ من عنده، وآخر يبلغ عن ربه دون أن يكون لهُ جهدٌ في ذلك، أو سعيٌ منه إليه. من خلال هاتين النقطتين ندرك أنَّ الوحيَ هو المدخلُ الذي لا ثاني له إلى فهم النصوص القرآنية من غيبيات وتشريعات، وأنَّ الطعن فيه هدمٌ للدين الاسلامي من أساس بنيانه.

والوحيُ من هذه الزاوية حقيقةٌ يشتركُ فيها كلُّ رسل الله بدءاً من آدم عليه السلام وانتهاءاً بمحمد ومروراً بموسى وعيسى عليهم صلواتُ الله وسلامه.

أما من الزاوية الأخرى، أي: الاستيثاق من صحة النصوص الواردة في القرآن الكريم بواسطة الوحي الإلهي، فقد أخبرتك قبل قليل أن الطريق إليها يتطلبُ منا اجتياز مرحلتين في مسيرة البحث العلمي تأتي ظاهرة الوحي الثانية فيهما.

يوضعُ النص أوَّلاً تحت المجهر لمعرفة ما إذا كان عينَ ما قال به النبي أو أنهُ اختلق على لسانه ونسب إليه. وبمناسبة أن كتابتي هي خطوة في الدراسة على ضوء علم مقارنة الأديان فإنني سأعمم البحث في هذه النقطة، إذ من المعلوم أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما الكثير من التطوير والتعديل والحذف زيادة ونقصاً خلال قرون طويلة، وهي بدهية يعترفُ بها أصحاب الكتابين، ويؤكدها اختلاف االنسخ التوراتيه والإنجيلية في الموضوع، والفقرَات ولغةِ الكتابه، فالتوراة كتبت على ثلاث نسخ السَّبْتَاجنْت والماسُورة والفُوَلْكات[1] وهي التي تعرف بالتوراة اليهودية، وإلى جانبها

---

(١) السبتاجنت: ترجمة يونانية للتوراة، وُضعت في القرن الثالث قبل الميلاد، على يد يهود الإسكندرية، وعلى نصِّها اعتمد العهد الجديد. وقد ظلت معتمدة حتى القرن السابع للميلاد. وتضمنت الشرع اليهودي بصفة خاصة دون التعرض لتاريخ اليهود. وهي النسخة التي كانت تقرأ في الكنائس القديمة خلال العصور النصرانية القديمة حتى القرن السابع للميلاد.

الماسورة ـ الماصوره ـ: توراة باللغة العبرية، جمعت في القرن الأول للميلاد، وهي تختلف عن السبتاجنت كل الاختلاف في ترتيبها وعامة نصوصها. وهي المعتمدة لدى اليهود، وكذا

توراة لا تقيم لها وزناً تعرف بالسامرية، ما يزال أتباعها إلى اليوم في فلسطين يقيمون في نابلس من أرض السامرة حسب التسمية اليهودية، وهي تختلف عن الأوْلى في كل شيء. وسائر أسفار العهد القديم على هذا الوصف، على حين أنها ليست جميعها موضعَ تسليم من قبل جمهور أهل الكتاب.

أما العهد الجديد فيكفي فيه أن المنزَّل على سيدنا عيسى عليه السلام إنجيلٌ واحد وهو اليوم أربعة أو قلْ خمسة[1].

وبخلاف القرآن الكريم، فإنَّ البشرية لا تملك نسخة مخطوطة تعودُ إلى عهدي الرسالة الموسوية والعيسوية، وما بين أيدينا متأخرٌ جداً، ومختلفٌ فيه. كما وقع الاختلاف بين نسخ عصرٍ وآخر، وترجمةٍ وأخرى، ومدوناتِ مذهب وآخر.

هذا كله يقعُ في طريق توثيق الخبر المنسوب إليهما بعد أنْ دخل غيرهُ عليه فلم تعد معالمُ النص التوراتي أو الإنجيلي تستبين في زحمة النصوص الأخرى، لذلك فإن موقف نبيِّ الرحمة محمد ﷺ يمثل جادة الوسطية والموضوعية في هذه القضية، فإنه لمْ يرضَ منْ أمته أن تُكَذِّبَ التوراة والإنجيل لأنها ستقعُ في محذور تكذيبها لما أوحى الله به إلى كليمه موسى، وإلى روحه عيسى، كما لم يرض منها أن تصدق الكتابين لأنها ستضطر إلى الأخذ بما لم ينزل به الوحي الإلهي.

ومن ثَمَّ فانَّ مسألة التقديس عندنا لنصوص القرآن الكريم ليست من بابِ أننا مسلمون، وأنَّ العصبية لها دورٌ في انسياقنا إلى هذا التقديس، بل لأن المسلم استوثق من نصوص الكتاب الحكيم، حتى بلغت عندهُ علم اليقين، وصارت قطعيةً في ثبوتها قطعيةَ

---

= لدى طائفة البروتستانت من النصارى.

الفولكات: توراة مدونة باللغة اللاتينية، وهي مختلفة عن الماسورة كل الاختلاف، وقريبة إلى حدٍّ ما من السبتاجنت، وهي المعتمدة اليوم لدى الكنائس النصرانية خلا البروتستانت الذين عدوها منحولة أي الفولكات، وجعلوها ذيلاً للماسورة، وسموها: العهد المنحول.

(١) اشارة إلى إنجيل برنابا الذي لا يعترف به جمهورهم.

في إلزام الأخذ بها، وذلك بعد اجتياز المرحلتين اللتين حدثتك عنهما، حيث لا زلنا في آخر شوط من الثانية منهما. أما التوراة والإنجيل فإن المُسْلِمَ مستيقن بكون كلٍّ منهما وحياً مقدَّساً من عند الله لا فرق في ذلك بين تقديسها وتقديس القرآن الكريم، إلا أن التقديس المطلق عنده يختص بالتوراة التي أنزلت على موسى والتي يعترف اليهود بأنها أعدمت، ويختص بالإنجيل الذي أنزل على عيسى النبي عبد الله ورسوله وليس الإنجيل الذي صار أربعة أناجيل ويتحدث عن يسوع الإله. فالتقديس لا يُعَمَّمُ لأنَّ الخبر لم تتحقق فيه شروط السلامة وضوابطها، ودليل الموضوعية في هذا أن المسلم لا يصحُّ إيمانه إذا حذف من دعاة الإيمان موسى، أو حذف من القائمة عيسى أو اعتقد فيهما ما لا يليقُ بهما، كما لا يصح إيمانهُ ولا يقبل إذا أنكر كتابَ التوراة الذي أنزل على موسى، أو كتاب الإنجيل الذي أنزل على عيسى، كل ما في الأمر أن الله أوْكل حفظ الكتب السماوية غير القرآن إلى أهلها فامتدت إليها يدُ المتلاعبين، وتكفَّلَ بحفظ القرآن الكريم فلم تقدر تلك الأيدي أن تصل إليه بسوء، وكم حاولَتْ، وكم تمنَّتْ، لكن كرَّها أخفق وارتد خيبةً وفراًّ. والحكمة في ذلك أن القرآن خاتمة الكتب السماوية، وأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ولو طالهُ التحريف، فمن يقوم بتصحيحه بينما القرآن نفسه قام بتصحيح ما وقع في كتب السابقين مِنْ عبث، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالقرآن الكريم بالنسبة لكتب السماء الأخرى يمتاز بصفات ثلاث:

أولاً: يتممُ ما كان ناقصاً، وهذا في جانب التشريع، فإن التشريع الإسلامي ناسخ لكل الشرائع الأخرى، وعامٌ لكل الناس، وصالحٌ لكل زمان ومكان، في الوقت الذي جاءت فيه كل شريعة سابقة خاصة بزمنٍ محدودٍ وقومٍ بعينهم، أي: تلبي حاجات وقتيَّةً ومكانيةً.

ثانياً: يُصَدِّقُ ما كان حقاً، من الوحي والرسالة والعقيدة والتشريع، فالحق هنا

ينطبقُ على قسمين: المسَّمى الأول: كلُّ بعثـةٍ متقدمـة في الزمـان على بعثة محمـدٍ ﷺ فهي حقٌّ بكل ما لهذه الكلمة من معنى وأبعادٍ، وأتباعها مؤمنـون مسـلمون، حتى إنَّ حواريَّ عيسى مثلاً هـم كأصحـاب محمـد عليهمـا السـلام، و هـؤلاء وأولئك تحت سقفٍ واحد في الجنة. المسمى الآخر: ما وصل إلى عهد النبوة مما لـم تطلـه يـد التغيير فهو حقٌّ ويقرهُ الإسلام.

كما دلَّ على الأولى والثانية ما رواه البخاري ومسـلم مـن قـول رسـول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمثل رجلٍ بنى بُنياناً فأحسنهُ وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية مـن زواياه، فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون ويقولـون: هـلا وضعـت هـذه اللبنـة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1].

ثالثاً: القرآنُ يصححُ ما أصاب سيرة الرسـل وعقـائدهم وموقعهـم الإصلاحي من تشويه متعمد من قبل أعداءٍ اندسوا بين صفوف أتباعهم، واستقطبوا قلـوب الكثير مـن عـامتهم، وهـو المقصـود مـن الهيمنـة في قولـه تعـالى: ﴿ومُهَيْمِنَـاً عَلَيـه﴾. وهــذه الخاصية الهامة كانت وراء كتابتي لهذا الموضـوع برمتـه مـن خـلال البحـث المقـارن بـين النصوص، ليظهر بجلاء إنصافُ الإسلام للحق وأهله، وللرسـل ودعوتهم.

فظاهرةُ الوحي حقيقةٌ لازمت رسل الله قاطبةً، وهـو أمـرٌ بدهـي، فإنَّ أيَّ ملِـكٍ عندما تتعلقُ إرادته بإرسال مبعوث من شعبه إلى بلـدةٍ مـا فإنـه يُبْلغـهُ الأمـرَ الملكي مـن خلال رسـولٍ وسـيط بينهمـا، ومـن ثـمَّ تتوالـى التعليمـات حسـب مقتضيـات الحـال، بواسطة ذاك الرسول الذي يقدم للمرسَل إليه كتاباً إثرَ كتاب يأمرُ وينهى ويخط الحـدود ويضعُ الضوابط لأهل تلك البلدة، أما الوالي فإنه يُبَلِّغُ فقط. هذه إحدى المسـلمات، فلماذا نرضى بها لملوك الأرض، ويستنكرها بعض المنتسبين للأمة بالنسـبة لملـك الملـوك وهو الله عز وجل. فالمرسِلُ هناك هو حاكم أو ملك. والمرسِلُ هنـا هـو الحـاكم المطلق

---

(١) أخرجه مسلم بروايات متقاربة: ٢٢٨٦

للكون والملكُ الحقيقي عليه. والرسول هناك جنديٌ يعملُ في بلاط الملك، والرسول هنا هو أحدُ الملائكة المجندين للعمل في عبادة رب العالمين ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، والمرسَل إليه هناك واحدٌ من الرعية الذين تتوفر فيهم الصفات المناسبة من الخبرة والسياسة والأمانة وحسن الولاء للملك، والمرسل هنا هو واحدٌ من عباد الله الذين وقع اختيار السماء عليهم ويتمتعون بالأمانة والصدق والفطنة والتبليغ، فهم أمناءُ أذكياء وفي منتهى الولاء. والمرسَلُ إليهم هناك بلدةٌ أو إقليمٌ يحسنُ الوالي التعامل معهم ويعرفُ عاداتهم وتقاليدهم، فهو منهم، وهم منه، والمرسَل إليهم هنا هم شعبٌ أو أمةٌ أو أبناءُ مدينةٍ يعرفُ الرسول لغتهم وخصوصيتهم، لأنه منهم، ونشأ بينهم، كما يعرفون نسبهُ وسيرته، وهو يفهم عنهم أدق التفاصيل.

فلماذا يرى هؤلاء في الكتاب الممهور بخاتم الملك، المرسل به إلى الوالي بواسطة رسولٍ، المخاطب به أهل بلدة من البلاد، يرون فيه نصاً موثقاً يلزمُ الناسُ القبولَ به، ولا يرون في الكتاب الذي أرسَلهُ جبارُ السموات والأرض إلى رسوله بواسطة الوحي الإلهي جبريل المخاطبِ به قومُ أولئك الرسول، أو أبناء الأسرة الإنسانية قاطبة، والتي تُحكَمُ مِن قِبَلِ هذا الإلهِ الرحيم، لماذا لا يَرَوْنَ فيه نصاً موثقاً وملزماً ؟

لماذا يرون في الخطاب الأول قانوناً وفي الثاني ادعاءً؟

ولماذا يجدون في إخبار الأول معلومة وفي إخبار الثاني أسطورة؟

ترى هل يدركون معنى الأسطورة؟

الحقُّ أنهم لا يدركون ما يقولون، حتى يميزوا بين حقيقة وأسطورة، وليسوا أكثر منْ ببغاوات تُرَدِّدَ مقولات أسيادها الغربيين في ذلة وهوان!

يتحدثون عن ظاهرة الوحي، ثم يؤولونها حسب إيماءات المستشرقين أصحاب القرار في كل فكرة وافدة، حيث يقومون بالدوران في فلكها في نفس الزاوية والاتجاه التي يدور بها الذَّنَبُ في حركة قصرية مع حركة الرأس والجسد.

قالت طائفة من مستشرقي الغرب[1] : إن ظاهرة الوحي نوعٌ من حالات الصرع أصابَ محمداً فإذا بطائفةٍ من أذنابهم في الشرق تنعِقُ بذلك ! .

وقالت أخرى : بل هي شعورٌ داخلي تكوَّن في نفس محمد بسبب التفكير في سبيل يأتي بها خلاصُ قومه من الوثنية ، فما لبث أن نشأت لديه تلك العقيدة بواسطة الكشف التدريجي ! وهذه أيضاً وجدت مِن الأذناب مَن يرددها بنشوة عارمة تتجنى على العلم ولا تعرفه ! .

وقال آخرون : هي إشراقٌ روحي فقيل مثل قولهم !

وقال غيرهم : لا توجدُ ظاهرة وحي ، كل ما في الأمر أنَّ محمداً تعلَّم القرآن ومبادئ الإسلام من بحيرا الراهب ، فنسبها إلى ربه ! أيضاً لاقى الزعمُ عند المتغربين من أبنائنا قبولاً ، وهم بالطبع جاهزون لترديد كل الوصفات الفكرية المقدمة إليهم من هناك ! ولا ضير عندهم في هذا المسلك فقد تركوا غيرهم يُفكر عنهم ؛ مكتفين بأنهم غربيون ! وأننا شرقيون ! فهم العلماء ونحن في رأيهم الجهلاء! ولا تستغرب أخي القارىء فالذَّنبيَّةُ تصنعُ أكثر من ذلك ! .

فمن أين استقى المستشرقون وأصداؤهم ما يُعرَفُ اليوم بظاهرة الوحي؟ وهل هي مصادر متعددة أدتْ إلى تعدد الآراء والتوجهات؟

الحقُّ أنَّ المصدر الوحيد الذي أتى على ذكر ظاهرة الوحي هو الإسلام نفسه ، فالقرآنُ صرَّح بذلك في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥]، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١].

---

(١) عن كتاب : «كبرى اليقينات الكونية» لأستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ظاهرة الوحي ، من ص١٥٣ـ ١٦٠ .

والسنة الشريفة شرحت ما أجمله القرآن وأعلن عن ذكره، مفصلة ذلك من خلال وثيقة بدء الوحي التي سأتناولها بالنصِّ والبحث المعمق إنْ شاء اللهُ تعالى.

فالمصدر واحدٌ لا ثاني له. والمتحدثون عن ظاهرة الوحي من أصحاب التوجهات السابقة يأخذون من هذا المصدر اسم الظاهرة فقط، وينسفون حقيقتها التي أوردها ذاتُ المصدر، بالرغم من أنَّهم لا يؤمنون بالوثيقة القرآنية ولا بالوثيقة النبوية، وفي هذا تناقض يتنافى أول ما يتنافى مع دعاوى العلم التي يتشدقون بها، دون أن يدروا شيئاً عن كُنهها.

ولو كانوا في حالة انسجام مع العلم وضوابطه - وهم مَنْ يكثر من ترديد ذلك دون ملل - لأنكروا شيئاً اسمه ظاهرة الوحي لأنَّ المصدر الذي أخبرهم بها لا يؤمنون به أصلاً فكيف يأخذون ما يتفرعُ عنه! كيف يأخذ الإنسان ثمرة شجرة ما وهو يكفرُ بوجود تلك الشجرة أصلاً؟! حتى المصادر التاريخية تحدَّثت عن تلك الظاهرة من خلال حديث وثيقة بدء الوحي. يقول أُستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله:

«أما من لم يكن يقرُّ بوجود هذه الوثيقة في حياة محمد عليه الصلاة والسلام، فما ينبغي أن ينسب إليه هذا الذي يسمَّى بظاهرة الوحي، فضلاً عن أن يشغل نفسه بالتأمل في تحليلها وتفسيرها، ليصل إلى القول بأنها كانت إشراقاً روحياً أو شعوراً داخلياً في كيانه»[1].

فما هي هذه الوثيقة؟ وما هو مصير تلك الاتجاهات على ضوء نصوصها؟ روى علماء السيرة والحديث قصة نزول الوحي جبريل على رسول الله ﷺ لأوَّل مرَّة على هيئة رجل، وهو في غارِ حراءِ، فقال له: اقرأ، فأجابه محمد: ما أنا بقارئ: قال محمد عليه السلام: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدُ ثم أرسلني، فقال اقرأ: قلتُ: ما أنا بقارئ، فضمني ثانية حتى بلغ مني الجَهْدُ ثم أرسلني، فقال: أقرأ: قلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني ثالثةً فضمني حتى بلغ مني الجَهْدُ ثم أرسلني، فقال:

---

(١) «هذه مشكلاتهم» المثيولوجيا.. والعلم.. والقرآن. فصل: كلمة عن ظاهرة الوحي ص١١٨.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[1][2].

هذه الوثيقةُ تضعك أمامَ حقيقة هذه الظاهرة، فالوحيُ جبريل تجسَّدَ لرسول الله ﷺ على تلك الهيئة الإنسانية لكي يراهُ - أي: محمد ﷺ - بعيني رأسه، ولكي يعلمَ أنَّ هذا الذي هو مُقْدِمٌ عليه ليسَ شعوراً داخلياً، ولا صفاءً نفسياً، ولا مرضاً عصبياً يُخَيِّلُ لصاحبه رؤية أشياء وهي غيرُ موجودة، وإنما هو أمرٌ خارجٌ عن كيانهِ يأتيه من باب الغار، يحدِّثه، يهزهُ يضمه ثم يرسله، ثم يكرر ذلك المرَّة تلوَ الأخرى، تأكيداً لمعنى الإرسال. وتتوالى الأحداث مزدحمة في المنحى ذاته. فالنبي محمد ﷺ إثر هذا اللقاء المؤثِّر يخاف وَيرتعد وينزل من الغار إلى خديجة مصفراً الوجه وقد أخذتهُ البَرْدَاء. وتذهبُ به زوجه إلى ابن عمٍ لها عالم بالنصرانية يكتب الكتاب العبراني أَرْبى على المائة عام، هو ورقةُ بنُ نوفل، فيخبره محمد ﷺ بما رأى فيجيبه بما يقطع عنهُ الهموم، ويدفع عنهُ الرعب، ويجلّيْ له حقيقة ماجرى، ويصرح له بأنَّ الذي جاءهُ هو الناموس - الوحي - الذي نزل على موسى وعيسى وسائر الإخوة في أسرة رسل الله[3].

تتضحُ الصورة عند محمد ﷺ ولكي تزداد جلاءً فإن الوحيَ يتأخرُ كثيراً على رسول الله ﷺ وهو من كان ينتظر قدومه بشغفٍ غير أنَهُ لم يأتِ. واستمر الحال على هذا ستة أشهر أو أكثر، وهي مدة أعطت رسول الله ﷺ الوقت الكافي ليزول عنه ما أصابه وليفكر في الوظيفة التي اختارته لها السماء، وليتحول القلق من خوفٍ على نفسه إلى خوف من ربه، لئلا يكون الانقطاع مسبباً عن ارتكاب محمد ﷺ لما يغضبُ الله.

فأين الوثيقة من تلك الادعاءات العارية عن التوثيق والاستدلال؟.

---

(١) سورة العلق الآية: ١-٢.

(٢) صحيح البخاري برقم (٣).

(٣) وأيضاً صحيح البخاري برقم (٣).

أعداء الإسلام يركزون على ظاهرة الوحي، في تمحُّل وتكلفٍ لايخفى على ذي بصيرة. وكلامهم عل ما فيه من هراء وتناقض مع أدنى قواعد العلم وموازينه لامناص من الرد عليه تحت مجهر البحث العلمي ومسلَّماته المعتمدة لدى كل العقلاء وفي كل زمان، وهي في هذا المقام دلالةُ الالتزام. فما هي هذه الدلالة؟ هي إحدى البدهيات المعمول بها في النظر والبحث والاستنتاج. ترتكز دلالةُ الالتزام على التأمل في الدعوى المقدمة إليك. فإن وجدتَ عن طريق الاستقراء التام أنَّ تلك الظاهرة تستلزمُ حقيقة بعينها، لزمك الإيمانُ بها، ولو لم تشاهدها، والأمثلة على ذلك كثيرة لامجال لحصرها في حياتنا اليومية. أما إذا عُدْتَ من جولة تأملك بخلاف ذلك، فان استقراءك يُعَدُّ دليلاً على كذب الدعوى[1].

اللازم في هذه الدعاوى العريضة أن يكون الصفاءُ الذهني، أو الإشراق الروحي، أو الصرع مفتاحاً لأنواع الثقافات المختلفة، وَباباً يلج منه الناس إلى عالم الغيب المستور،

---

(١) عَرَّف أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظهُ الله دلالة الالتزام، وشرحها بقوله: "وهي أن يطردَ ترابطٌ بين شيئين بحيث إذا تأملت أحدهما تصوَّرْتَ الآخر. وإنما يتم ذلك بعد أن يشهد لهُ الاستقراء التام، وهو أن تتَّبعَ الحالات والظروفَ المختلفة كلها لوجود هذين الشيئين فتجدهما متلازمين دائماً. وذلك كدلالة النحول الشديد على المرض، وكدلالة المآذن في البلدة على إسلام أهلها، وكدلالة صوت الصفارة الخاصة بعربة الإطفاء على حدوث حريق، وكدلالة عربدة الرجل في الطريق على أنه قد شرب مُسكراً. فالدالُّ في مثل هذه الأمثلة كلها ليس علّة للمدلول، حتى نقول إن دلالته عليه من قبيل دلالة العلة على المعلول، إذ النحول ليس علّـه للمرض، والمآذن الصاعدة ليست علة لإسْلام أهل البلدة، وصوت الصفارة ليس علة لحدوث الحريق، وعربدة الرجل ليست علة لشُرب المسكر. وأنت عندما تشاهدُ الدالَّ في هذه الأمثلة لا تُبصرُ معها المدلول ولا تشاهده، حتى تقول إنَّ الدليل هو الرؤية والمشاهدة، بل هو شيءٌ خفيٌ عن مشاهدتك وإحساسك. . . . إنَّ سبيل الدلالة أنها عُرِفَتْ بملازمتها الدائمة لمزوماتها. وتكرر ذلك دون تخلف، وتم على ذلك الاستقراء، فتكونت من هذه المقارنة الدائمة رابطة دلالة سارية بينهما». «كبرى اليقينات الكونية» مبحث: تمهيد، فصل: المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة ص ٣٦ والتي تليها.

فهل الواقعُ كذلك؟ نستقرأ حالات الصرع بين المصابين بهذا الداء، فنتوصلُ من خلال دراستنا على ضوء اللازم والملزوم إلى فساد مقولتهم، ومقولة من ينعق على وترهم.

متى كان الصرعُ منبعاً للعلم، ومدخلاً لكتابٍ عجزت أمة العرب مجتمعة في جوٍّ من التحدي والسخرية والاستدراج من أن تأتي بمثل سورة واحدة منه بلاغةً وفصاحةً، وهي المتفوقة في هذا المضمار؟. كما عجزت جهودُ البشر على مرِّ التاريخ من ردِّ حقيقة واحدة من حقائقه.

ويحق لي أنْ أسأل: هل يحتاج عَربُ الجزيرة العربية البلغاء إلى أن يصابوا بمرض الصرع حتى يمتلكوا القدرة على اختراع كتابٍ ليردوا به سهم التحدي إلى صَدْرِ من يدعوهم إلى النزال؟.

الإجابة بلا ريب عندك أيها القارئ الكريم.

ونستقرىء حالات الصفاء الذهني، أو الاشراق الروحي، أو التأملات العلوية، أو حالات الإلهام، فنجدها أبعدَ ما تكون عن الخوف والقلق وامتقاع اللون، وهي الظواهر التي أخبرتنا بها وثيقة بدء الوحي. لا بل إنَّ الصفاء والتأملَ والإشراق يستدعي حالةً من السكينة والطمأنينة وليس العكس. يقول أُستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله: «وليس ثمة أيّ انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أُخرى، وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة»[1].

ثم متى كان هذا أو ذاك يفتح آفاقاً لصياغةٍ أدبيةٍ وتشريعية وعلمية تعجز عن مجاراتها البشرية وعلى مرور العصور؟ وعلى فَرض أن ذلك صحيحاً فهل التأمل نصيب فرد واحد في الأمة؟ أليس الكثير من محبي العزلة والتفكير لهم حظٌّ منهُ؟ فلماذا لم يأتِ صفاؤهم وتأملهم بطائل يجاري هذا المتحدي من أبناء جزيرتهم؟ لقد

---

(١) «فقه السيرة» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، المبحث: القسم الثاني: من الميلاد إلى البعثة»، فصل: بدء الوحي ص ٩٩.

أعطاهم محمدٌ ﷺ الوقت الكافي، ثلاثاً وعشرين سنة فما بالهم لم يسبقوه فضلاً عن أن يجاروه. ثم ما هو ارتباط الشعور الداخلي بعالم ما وراء المستور؟ أو بمعجزات الكشف العلمي، أو التنبؤات التي أخبر عنها الوحي الإلهي في كتابٍ أو سنة فجاءت مثل فلق الصبح من مثل انتصار الروم في بضع سنين من تاريخ هزيمتهم على يد الفرس، وفتح القسطنطينية، وأشراط الساعة؟. ومن مثل قصص الأنبياء الموغلة في القدم لتأتي الدراسات الأثرية الحديثة مؤيدة لما أخبر به القرآن؟. أيُّ مكان للكشف التدريجي لحوادث وقعت بعد مئات السنين؟ إنه الوحي الإلهي وما سوى ذلك غثاءٌ في هراء. يقول أستاذنا الكبير الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله:

«إن هذه الحالة التي مرَّ بها رسول الله، تجعل مجرد التفكير في كون الوحيٍّ إلهاماً نفسياً، ضرباً من الجنون، إذ من البداهة بمكان أنَّ صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمرُّ إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال.

إذاً فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح، ينطوي على تهديم كل ما يحاول المشككون تخييلَهُ إلى الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام. وإذا تبينَ لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة في أنْ تكون بداءة الوحي على النحو الذي أرادهُ اللهُ عزَّ وجل»[1].

هذا هو الشرط الأخير من المرحلة الثانية في رحلة البحث عن مصداقية القرآن الكريم، والنتيجة:

القرآنُ الكريم مرويٌّ بالتواتر القطعي من جهة الخط، وبالتواتر القطعي من جهة الحفظ، وهو من رواية محمد ﷺ عن جبريل بريد الوحي الإلهي عن ربِّ العزة. إن كشف اللثام عن ظاهرة الوحي مع بيان وافٍ لنسب النبي وأمانته وسيرته ينفي عن محمد ﷺ احتمال الكذب في التبليغ، أو الكذب في النسبة إلى الله، وفيما أوردته عليك من الأدلة الكثيرة الدامغة فيه كفايةٌ لذوي العناية.

---

(١) «فقه السيرة»: القسم الثاني من الميلاد إلى البعث، فصل: بدء الوحي ص١٠٠.

والآن: ثمرةُ البحث كله أنَّ القرآنَ الكريم هو الوثيقة الوحيدة التي نستقي منها خبراً قطعيَّ الثبوت، يقينيَّ الوقوع، وما سوى ذلك من الكتب السماوية فهي نهْبُ لاحتمالات شتى، أما غير الكتب السماوية فهي دراسات وإن كانت علميةً إلا أنها تبقى في حدود القبول الدنيا إذ هي ليست أكثر من استنتاجات أو استدلالات، أو كتاباتٍ أثرية لا ندري شيئاً عن ميولِ وَمصداقية مَنْ كتبها، إلا أنها تقع في قلوبنا موقعاً مرضياً بعد رحلة من المقارنة والتثبت والنظر، فهي على الأقل ثبت لنا كتابتها بأيدٍ معاصِرَةٍ للحدث، بخلافِ الكثير من أسفار العهد القديم فإن دراستها بعمق تثبت أنها نسخت بأيدٍ متأخرة جداً عن زمن الحدث، وفي بعض الأحيان الفاصل الزمني يصلُ إلى ثمانمائة عام بالرغم من أن كاتب السفر يزعمُ أنهُ معاصرٌ لشخصيات القصة وَمسرح الأحداثِ فيها[١].

غيرَ أن الدراسات العلمية الأثرية تظلُّ دون النص القرآني في ثبوتها والجزم بها، والمسافة التوثيقية الفاصلة بينهما كتلك التي تفصل بين الأرض وأبعد نجم عنها.



هذا المدخلُ توخيتُ منه أن يكون البوابة التي نفتحها لدراسة سيرة مَن اصطفاهم الله عز وجل رسلاً مبشرين بالجنة، ومنذرين من النار، ومعرِّفين بذات الله عز وجل، وعلاقة المخلوق بالخالق، وَبالمكوَّنات من حولنا.

بقي عليك أن تعلم في هذا التمهيد أنَّ الأنبياء يشتركون في حقيقة واحدة اسمها النبوة، وهذه لا تفاوت بينها ولا اختلاف، من حيث إن المرسِلَ واحدٌ وهو الله، ومن حيث ظاهرة الوحي ـ فالواسطة بين الله ورسله واحدة كذلك ـ ومن حيث الدعوة التي نادى بها كل نبي.

هذا ما جلاَّه لنا البيان الإلهي في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾،

---

(١) هذا ما خصصتُ له رسالة كبيرة استقصيتُ فيها أسفارَ العهدِ القديم سِفْراً سِفْراً، غير أنها لم تطبع بعد.

وذلك عقب قوله تعالى مباشرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والآيةُ لا تتنافى مع قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإثبات التفضيل في هذا النص يَرِدُ من جانب المنزلة التي رفعَ الله إليها بعض أنبيائه بقطع النظر عن النبوة التي هي قدرٌ مشتركٌ بين الجميع.

فأفضلية إبراهيم من حيث إنَّ الله اتخذه خليلاً ـ فهو إلى قيام الساعة خليلُ الرحمن ـ ومن حيثُ إنه أبو الأنبياء، وهما مِيزَتان ليستا لنبي سواه. ثم من حيث إنه مَنْ بنى بيديه بيت التوحيد في الأرض، وهذه لم يحظ بها الآخرون.

وأفضلية موسى عليه السلام من حيث إن الله كلَّمهُ في الطور، وهذه ميزة لم تكن لغيره فإنَّ ربنا سُبحانه لم يُكلِّمْ أحداً من خلقه فوق هذهِ الأرض إلا موسى عليه السلام.

وأفضليةُ عيسى عليه السلام أنهُ خُلِقَ من نفخة مِنْ رُوحِ الله من امرأةٍ بلا رجل، فكان معجزة شاهدة على قدرة الله المطلقة، وأنها لا تُحَدُّ بقيود الأسباب ومسبَّاتها، فما الأسباب وما المسبَّبات إلا مخلوقات ناطقةٌ بعظمة الله.

وَأفضليته من حيث نطقه في المهد، ومِن حيث بقائه حياً إلى ما قُبيل الساعة بقليل، ومن حيث نزوله إلى الأرض بدين الإسلام ليقيم الحجة على مَنْ يُفَرِّقون بين جوهر الرسالة، ويدَّعون قيام أديان شتى، وهي في حقيقتها دينٌ واحد، والذي لولا أهواءُ الناس لما كان ثمة اختلاف. فهذا كله لم يكن لأيٍّ مِّمن اصطفاهم الله عز وجل.

أما محمد ﷺ فأفضليته مطلقةٌ على الجميع، بل هو أفضلُ خلق الله بلا منازع بما فيهم الرسل والأنبياء؛ لأنهُ خاتمهم جميعاً؛ ولأنَّ كل نبي كان يبعث إلى قومه خاصة وَبُعث محمد ﷺ إلى الناس عامه؛ وما بُعث رسول إلا دعا قومهُ للإيمان بمحمد ﷺ حين يخرج في الناس، وهو ما صرَّح به البيان القرآني على لسان عيسى بن مريم في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ومن النصوص التي كانت وراء إجماع المسلمين قاطبة على هذا الذي قُلته قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولا شك أنَّ خيرية الأُمةِ تابعةٌ لخيرية نبيِّها محمد ﷺ، وخيريةِ شريعته في شموليتها وعمومها، وقواعدها التي أغنت الفكر الإسلامي، وجعلت من الإسلام الدينَ الصالح لكل زمانٍ ومكان.

وفي المزايا الثلاث للقرآن من التأكيد والتتميم والتصحيح، وفي تواتر القرآن الكريم وقطعية نصوصه في ثبوتها واستمرارية إعجازه إلى يوم القيامة، ما لم يكن لأحدٍ غير محمد ﷺ من أصحاب الكتب السماوية فجوهر النبوة واحد، والتفضيل بين الأنبياء قائمٌ على أساس ما فضَّلَ اللهُ به بعضهم، خارج نطاق هذا الجوهر.

على ضوء هذا التفصيل تتضح لك الحكمةُ من الذوْدِ عن رسلِ الله لإزالة ما أُلصقَ بهم من اتهام، فالحقيقة التي شُرفوا بها لها جوهرٌ واحدٌ لا يختلفُ بين رسالة وأخرى، ولا عند بني وآخر. هذه النقطة كانت أيضاً وراء تأليفي لهذا الكتاب حيثُ يظهر لك بجلاء أنَّ الإسلام دينُ كل البشر، ودعوة كل الرسل، والحقيقة الثابتة في كل العصور.

بعد هذا المدخل الهام أنتقلُ مباشرة إلى صُلْب الموضوع مع أبِ الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

**إبراهيم خليل الرحمن:**

إبراهيم واحدٌ من أنبياء الله الذين أجمعت الأُمم على وجودهم ومكانتهم، إلاَّ أنَّ كلمتها لم تجتمع على العديد من القضايا المتصلة بهم، لذلك مسَّهمُ الأذى من حكاياتٍ تناقلتها الشعوب دون رقابة العلم، وضوابط الخبر، رغم ما قدَّموه في سبيل إعلاء كلمة الله، وخير البشر، ونصرة الحق والحقيقة، فكان من الواجب الديني - وهم أنبياء - والواجب الأدبي - وهم حملة الحق - أن ننتصر لمسيرتهم في رفعة البشرية لِنُنَقِّي ساحتهم مِن الشوك الذي غُرس في جسم حقيقتهم كي لا يتسلل إليها الفساد فتذبل.

وَيُعَدُّ إبراهيم من أوْفرَ الأنبياء حظاً، فإنَّ الإجماع الذي لقيه من كلّ الأُمم والأديان يجعلُ من تلك السموم المنفوثة في وجه دعاة الحق عند المستوى الأدنى. إلاَّ أنَّ منزلته التي خصَّهُ الله بها، وسعيَ الجميع للانتساب إليه، والتشرف به، وإلقاءَ المزاعم على لسانه – وفي مقدمة أولئك اليهود – يجعل من دراسةٍ تحليلية على ضوء الكتاب والسنة، وعلم مقارنة الأديان، أمراً له أهميته وفائدته التي لا تخفى.

حدَّدْتُ في شخصية إبراهيم ثلاثة أبحاث لتسليط الضوء عليها:

المبحث الأول: نبوته، والعقبات التي لاقاها في طريق تبليغ دعوة الله.

المبحث الثاني: قصته مع النمروذ بشأن زوجهِ سارة.

المبحث الثالث: علاقتهُ بالبيت الحرام.

البدايةُ على الترتيب المذكور.

إحدى الوثائق القرآنية التي بحثَتْ في هذا الموضوع هي ذاك النصُّ المثبت في سورة الأنبياء، والذي ساقَهُ البيانُ الإلهي تسليةً للنبي محمد ﷺ في جهاده للمشركين، ليتأسَّى بمن سبقه في الصبر والبلاء.

وإليك النصَّ بتمامه – كما وعدتُكَ في مقدمة الكتاب – ثم ننتقل بعد ذلك إلى البحث والتعقيب.

جاء في الوثيقة القرآنية الآياتُ التالية:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١]

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [ ٥٢]

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [٥٣]

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [ ٥٤]

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [ ٥٥]

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[٥٦]

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[٥٧]

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [٥٨]

﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٥٩]

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [٦٠]

﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [٦١]

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [٦٢]

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [ ٦٣]

﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [٦٤]

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ [٦٥]

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [٦٦]

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [٦٧]

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [٦٨]

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [ ٦٩]

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [٧٠]

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [٧١]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [٧٢]

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [٧٣]

قصةٌ تشهدُ لقارئها بالمراحل الصعبة والمتابعة التي يمرُّ بها هذا الصنفُ من الدعاة.

أُولى الفصول تبدأ من تهيئة العناية الإلهية للأنبياء للقيام بالمهام الشاقة الموكلة إليهم، من الصفات التي تزودهم بها، إلى الرعاية التي تشملهم، إلى تعريفهم بطبيعة المجتمع الذي يقيمون فيه، وينتسبون إليه.

الفصلُ الثاني يبدأ مع وصول الوحي جبريل إلى الأرض مُعْلِماً الشخص المختار بافتتاح أول صفحة في عهد التبليغ.

الفصل الثالث تجسدهُ صور لا تكادُ تنتهي من صبر النبي وجهاده تبدأ من حوار فكري، وتعريفٍ بواسطة الكلمة الحرة، وردِّ الشبهة بالحجة، ثم تتطور لتشمل الثبات أمام كمِّ الأفواه، والسخريةِ من الأفكار، والإيذاء للأجساد، من قبل متغطرسين لايعرفون قيمة الكلمة، ولا يروقُ لهم سماع صوت الحق! وكم يستشيطون غيظاً كلما نادى النبي بالحق، أو قطع في طريق الدعوة إليه شوطاً طيباً! هذا ما أوجزهُ البيان الإلهي في الآية الأولى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: آتينا إبراهيم النبوة من قبل أن نخص بها موسى[١]، فالنبوة لها مقدمات، فهي اجتباء من الله عزَّ وجلَّ لاعلاقة لها بكسب مادي أو فكري، وإبراهيم ظهر في العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، بخلاف موسى الذي ظهر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾. أي عالمين باستعداده لحمل أمانة النبوة وتبليغها[٢].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢٢ ص ١٧٩.

(٢) نفس المرجع والجزء ص ١٨٠.

بعد هذه المقدمة نقرأ في الصفحة الأولى من كتاب السيرة الإبراهيمية مناظرةً بين داعية التوحيد إبراهيم، وعُبَّاد الوثن من قومه، ويسجلُ لنا القرآنُ الكريمُ الحوارَ التالي:

﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؟. سؤالٌ استنكاريٌّ يحقرُ ما يعبدون، ويهزأُ بالذي عليه يعكفون. ومن مظاهر رُشد إبراهيم امتناعه عن تسمية التماثيلِ آلهة، لِمَا تتصف به من الجَمادِيَّة، فهي ليست أكثر من مخلوقاتٍ لله عزَّ وجلَّ لا تعقل، ولا تضرُّ ولا تنفع، كما لا تؤثر ولا تدفع. ومن رُشْدِ إبراهيم أنَّه سخر من هذا الفعل الشنيع، وسمَّاه عكوفاً، وهو ما يفيد معنى الاستمرار واللزوم والتعظيم، ولَم يسمِّه عبادةً لأنها لا تليقُ إلا لِقيُّوْمِ السموات والأرض[1].

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾!. ارتفعَ صوتُ القوم بهذهِ الإجابة التي حملت في طيّاتها حالةً مرضية، فالدافعُ إلى تقديس الأوثان أنهم فتحوا أعينهم على الدنيا فرأوا آباءهم يؤدون لها طقوس الولاء، والابن في منظارهم لن يكونَ أفقه من أبيه الذي منه ينحدرُ، وَإليه ينتسب.

المَرَضُ الجاثم في واقعهم هو التقليدُ الأعمى لعقائد موروثه أغلقوا عندها عقولهم، وسدوا في طريق البحث عن مصداقيتها جهودهم.

وَينتقلُ الحوار مرَّةً أخرى إلى خصمهم المؤمن الذي يفاجئهم بقوله:

﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إجابةٌ قوية لا تنقصها الصراحة، يُعلمهم بها إبراهيم أن الباطل لا يصيرُ حقاً بكثرة المستمسكين به، فيُدُوِّنُها القرآن آيةً في كتابه ليعقلها المسلمون، وتكون نبراساً يضيء لهم طريق الحق.

إجابةٌ تجمعُ الآباء والأبناء في سلة واحدة هي الضلال المبين، فالتقديس لا ينبع من الكثرة القائلة به، ولا من طول العهد ـ التقادم ـ، ولا من الانغماس في مستنقع التقليد والتبعية، لكنه ينبع من تقويم صحيح على ضوء البحث المتعقل المتحرر من

---

(١) تفسير الألوسي جـ ١٧ ص ٥٩.

نوازع الانتماء والأهواء.

ويعود الدَّوْر إليهم مرَّة أخرى للتعليق وَالرد:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؟!. كلامُ إبراهيم هزَّ كيانهم، فالقومُ كانوا عاكفين على عبادة الأصنام من القمة حتى القاعدة، والبيئة التي تحيط بهم كلها على شاكلتهم منَ الشرك بالله واتخاذ الأنداد معه[١]، أما الأُصول التي ينحدرون منها فهي موضع تقديسٍ مطلق، يُعَدُّ الحديث عنهم بسوء من المحرَّمات التي يتجاوز بها المحاورُ الخط الأحمر الذي رسموه لأنفسهم، وحجَّروا عندَهُ عقولهم وسلوكهم، فهل يعقلُ بعد هذا كله أن يخرج منهم مَنْ يجرؤ على المساس بالثوابت التي أقاموها على غير بيِّنةٍ، ومَن غيرِ دليل أو استنباط يرضى به فكرُ العاقل؟

أمامَ هذا كُلِّه، وأمام عكوفهم على عقيدة لم يطمئنوا إلى صحتها في قرارة نفوسهم، وأمام امتلاكهم لأسباب البطش والأذى، كان لا بُدَّ من أن يستفسروا من هذا المحاور عن مراده: هل هو جادٌ فيما ذهب إليه من نسبة القوم وآبائهم إلى الضلال، أم هو هازلٌ يُلقي بكلامه على جهة المزاح دون أن يقصد ما يقول؟ ولا بدَّ أنه هازل: وربما هو ما جزمَ به البعض منهم أو جميعهم»[٢]، إذ مايزال وَقْعُ كلامه يعملُ عملهُ في زعزعة عقيدتهم.

ويحافظ الفتى على صلابته وَصراحته، لكنهُ يعدلُ إلى بيان الأدلة العلمية التي تقطعُ تخميناتهم، وتنزل نزول الصاعقة على موروثاتهم، مضرباً بذلك عن الإجابة بـ

---

(١) أطبقت جميع الدراسات التاريخية على ذلك، فإبراهيم بُعثَ ولكل قبيلة أو قريةٍ أو مدينة صنمٌ يُعبدُ من دون الله تتوجَّهُ إليه، وتستنصرُ به. على ضوءِ هذا نستطيع تحديد المراد من قوله تعالى: ﴿وأَنَا أَوَّلُ المُسْلمِيْن﴾ [الأنعام: ١٦٣]، هذا، والله تعالى أعلم.

(٢) إذا حملنا "أمْ" على المتصَلة، فالاستفهام ليس على ظاهره، بل هو سؤالٌ من يستبعد القول، ويتعجب منه. تفسير روح المعاني للألوسي جـ٧ ص ٦٠ أما إذا قلنا إنَّ "أمْ" هي المنفصلة، فالمعنى يتضمن اخراجهم عما أثبتوه من الحق، أي: أنت قطعاً من الهازلين.

نعم أو لا حسب توقعاتهم :

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ .

كلامٌ ساقه لاستدراج قومه إلى الحق ، وتفصيلهُ كالآتي :

إذا كنتم تعبدون أصناماً تعتقدون فيها الخلق والتأثير ! فالصحيح أن تُعرضوا عنها إلى عبادة من صوَّرها على تلك الهيئة ، فالفاطرُ للسموات والأرض وما بينهنَّ وَما حولهن ، وما فيهْنَّ ، وَمنها التماثيل التي نحتموها بأيديكم هو الله سبحانه وتعالى ، صاحب الربوبية والخالقية معاً ، ومَنْ هذا نعته يستحقٌ وحده العبودية الكاملة ، والاستسلام التام ، لأنَّ القادر على الخلق قادرٌ على إنزال الضرٍّ والنفع ، ودَمغةُ الخَلْقِ ظاهرةٌ في جميع الموجودات ، فإنها في تناسقها دليلٌ على مَنْ نَسَّقها ، وهي في وظيفتها دليلٌ على وجود مَنْ وظفَّها ، وفي تأثرها بمطارقكم ونحتها حسب مخيلتكم ، وهي راضيةٌ صاغرةٌ ، دليلٌ جازمٌ على تفاهة القول القائل : إنها موضعُ تقديس وعبادة . إنَّ ما أنتم عليه من آلهة مزعومة يأباها العقل ، ويمجها المنطق ، ويلفظها الذوق السليم ، يجعلكم في عداد السفهاء الجاهلين الذين اختلت عندهم الموازين فقلبت لديهم بسبب ذلك المفاهيم ، وهذا قرارٌ أُدْليْ به أمامكم ، وأَشهدُ بذلك مع الشاهدين . ياقوم لا تستغربوا مني شهادتي ، فإني وإن كنتُ لم أشهدْ خلقَ السموات والأرض بعيني رأسي ، إلا أنَّ الذات الإلهية أمدتني بعين باصرة تستطيع أن ترى الحقائق وتشهد عليها وإن لم يكن لعيني الرأس في ذلك نصيب ، تلك هي عين العقل التي حَرَّرتُها من كل قدسية إلا قدسية القرار العلمي الحر ، وكبلتموها بدعوى التقليد الأعمى ، فلم تعد ترى ما يراهُ العاقلون ! .

هذا هو الفارقُ بيني وَبينكم : فأنا قادرٌ على إثبات الربوبية والخالقية لذات الله العليٍّ ، لأنني لم أُعَطِّل العقل الذي شُرِّفتُ به بمكابحَ من الجمود والتحجر ، أما أنتم فعاجزون عن الاحتجاج لمذهبكم ، وَغَاْيةُ ما تقدمونه لي أن تبالغوا في التشبث بالقديم دون أن تملكوا دليلاً على صحته سوى ترديد أنه قديم ، متجاهلين أنها مقولةٌ لا تصلحُ

أن تقيم نفسها، فضلاً عن أن تتمسكوا بها.

ولتأكيد ما أُعلنه أمامَ الملأ فسأقرنُ الدليل النظري بالدليل العملي، لذلك أُقسمُ بالله الواحد القهار الذي لا إله إلا هو، والذي تشهدُ الأكوان أنهُ مُكوِّنها، أنْ أُعَرِّضَ أوثانكم لمكيدةٍ ساخرةٍ تثبتُ لكل ذي لُبٍّ أنها ليست أكثر من حجارة، وأنها عاجزةٌ عن إنزال الضر بمن يروم إيذاءها، فضلاً عن أن تدفع السوءَ عن ذاتها.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

لكنه كما ترى لا يُفصح عن الكيد الذي يُعدهُ لأصنامهم، ويتركه مبهماً.

وإبراهيم - كما هو معلوم - إمامٌ في كل شيء، ومن ذلك فنُّ الحوار، فهو يتنزَّل مع الخصم إلى اعتقاداته فيفترضُ جَدلاً أنها حق، ثم يرمي الافتراض بسهام الحجة ليُزهقها على مرأى الناس وسَمْعهم. يتضحُ ذلك من قوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾، والكيد كما قال الإمامُ الرازي: هو الاحتيالُ على الغير في ضرر لا يشعرُ به، وذلك لا يتأتى في الأصنام[1] لكن إبراهيم قال ذلك على افتراض أنها تعقل وَتشعر وَتترصد وتقدرُ على منع السوء وتأديب المغير على حُرْمتها، فأقسمَ إنهُ سيحتال عليها بكيدٍ يمارسهُ معها ويقسمُ إنهُ سيفلحُ في ذلك، فهو جازمٌ يقيناً بتفاهتها وتفاهة من يُصدِّق بها.

وتُسْدلُ الستارة على المشهد الأول من رحلة إبراهيم في محاجة قومه. وينتهي الحوار دون أن ينالهُ أذىً من قومه. ولا يتعرض البيانُ القرآني لتفصيلاتٍ لا بدَّ أنها أعقبت الحوار الساخن الذي دار بين إبراهيم وقومه، فالفتى أصابهم في الصميم، وتجرَّأ على مقدَّساتهم المزعومة، وَهدَّد وَتَوعَّدَ، وهي قضايا تستلزم تعرّضهُ للوعيد الشديد منهم، لكنهم لم يترجموا ذلك على أرض الواقع لأنهم بالغوا في تقديس أصنامهم فهم يعتقدون أنها تكفيهم مؤونة الدفاع عن نفسها، كما لم يَحْمِلُوْا موقف

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢٢ ص ١٨٢

إبراهيم وتهديداته - في تقديري - على محمل الجد، لأنهم رأوْا فيها ضرباً من طيش الشباب الذي يفور بصاحبه ثم يزول أو ربما اجتمع في داخلهم العاملان معاً.

وتُرفعُ الستارة مرَّةً أخرى فإذا بالمشهد الثاني يطوي لنا الأحداث طيّاً ليضعنا النصُّ القرآني وجهاً لوجه مع الحَدث الجلل الذي لم يكن في حسبان القوم. ويسجل البيانُ الإلهي الصورة التالية:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

التماثيل التي أصغَوْا إليها في مناجاتهم، وَسجدوا إجلالاً لها في معابدهم، وَأَغلقوا لأجلها كل بحث حُرٍّ بتقوقعهم، هذه المعبودات المزيفة تحوَّلت إلى حطام! وتناثرت إلى فتات! وحُطِّم معها كبرياء الجهل والتحجر والتقليد، لتنقشع الهالةُ الكاذبة حول أصنام لا تملك من أمر نفسها شيئاً ومع ذلك فقد عُبِدت!.

لم يَسْلَمْ مِن تلك المنحوتات إلا كبيرها، وهذا كان جزءاً من مكيدة إبراهيم الخليل الذي احتال على القوم في يوم عيدٍ لهم، فلما ولوا منطلقين إلى موضع اجتماعهم السنوي، تظاهر بالسُّقم كما تقول بعض الروايات[1]. وكانوا لا يأذنون بالبقاء في المدينة إلا لأصحاب الأعذار. وفي غفلة من غياب القوم حمل الفأس ودخل المعبد، وأخذ بتحطيم الأصنام واحداً واحداً حتى إذا وصل إلى كبيرها أي: في حجمه ومنزلته ورجوع الناس إليه في مهمات الأمور، علَّق الفأس في عنقه، وواقع حاله يقول: لعل القوم يرجعون إليه فيسألونه ما الذي حدث؟ ويستفهمون منه لماذا لم يُدَافِعْ عن شركائه في الأُلوهية المزيَّفة؟!.

ويمكنُ حملُ الضمير في قوله تعالى:

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ على إبراهيم، أي: لعلهم يرجعون إلى إبراهيم ليتابع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، جـ ١١ ص ٢٩٧.

معهم الحوارَ الذي انقطع، ويتمَّ الحجة التي بدأت[1].

هذا ما رتَّب له إبراهيم، وهو ما تأتي به المقدمات الصحيحة.

فهل اتفق موقفهم مع ما يمكن لأيٍّ عاقلٍ أن يرصدَه في مثل هذه الأحوال؟

لقد شذ قوم إبراهيم مبتعدين عن كل التوقعات المنطقية، مجسدين بذلك صورةً مخيفةً من التبعية وما تفعله في أصحابها!

يعود الحوار مرَّة أخرى ليتربع على عرش الحَدث، لكنه يبدأُ أولاً فيما بين القوم أنفسهم:

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ رجع قوم إبراهيم من عيدهم فهالهم ما شاهدوه من الجرأة على تحطيم ما يستوجب التوقير، والتمادي في الاستهانة بما هو موضعُ التعظيم، - أيْ: من وجهة نظرهم - فعدُّوْا الفاعل في زمرة الظالمين! وتوجهوا إلى بعضهم يستفهمون عن اسم الشخص الذي تجاوز معهم كلَّ الحدود.

ويجيب أصحابُ المناظرة في المشهد الأول: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: يذكرهم بسوء، ويَقُصُّون على إخوانهم ما جرى. يصل الخبر إلى النمروذ زعيم العراق آنذاك، فيسارعُ وأَشرافَ المجتمع العراقي إلى طلب عاجل يحضر بموجبه إبراهيم للتحقيق معهُ في قضية صارت حديث الناس في محافلهم العامة منها والخاصة. وتصدر الأوامرُ على الفور:

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: جِيئُوا به على مَرْأَىً مِنَ الناس ليشهد عليه مَنْ سمعهُ يتناولُ الأصنام بسوء، ولِيَشْهَدَ الناسُ جميعاً على فاعل ذلك بالعقوبة التي تردَعُ غيره[2]، والتي لن تكون عقوبة تقليدية، بل عقوبةً تاريخية تتناقلها الأجيال، وتتحدثُ عنها الأمم.

---

(١) القولان ذكرهما الامام الرازي في تفسيره الكبير جـ ٢٢ ص ١٨٣.

(٢) أي: يشهدون عليه بفعله، ويَشهدون عليه بعقابه. هذا أحدُ ثلاثة أقوال ذكرها الإمامُ الرازي، جـ ٢٢ ص ١٨٤.

وَيساقُ المتهم إبراهيم إلى غرفة التحقيق، لتبدأ جولة الاستجواب بين باطلٍ متنفِّذ يتمثل بالنمروذ وأتباعه، ورجلٍ حمل وحده لواء التوحيد في زمانٍ طال فيه ظلام الليل الحالك، وأُخْمِدَ صوت العقل حتى ضاع الحق في سراديب الجهل والتقديس الأعمى.

يتوجَّهُ ممثل الادعاء إلى إبراهيم بالسؤال التالي:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟.

سؤال ينتظرون من المتهم أن يجيب عليه بنعم أو لا، لكنَّ المحاورَ الواثق بنفسه، الذي ما زال يمسكُ بزمام المبادرة يوجِّهُ محاوريه إلى حيث القصد الذي يرمي إليه. قبل أنْ يُجيب الفتى يطلقُ نظرة سريعة إلى وجوه السادة فترتسمُ في مخيلته صورةٌ مطابقة لواقعهم، فهم يصرون حتى هذه اللحظة على تسمية الجذاذ الملقى في أرجاء المعبد آلهة! لذلك فهم ليسوا أكثر من سجناء في الموروثات المتعفنة، ومن كان كذلك فلا يصلح معهُ حوارٌ موضوعيٌ، وما يحتاجه جوابٌ مفحمٌ يهز الأساس المتهدم الذي بُنِيَتْ تلك المقولاتُ الفاسدة عليه.

وَينطلق لسانُ الفتى بالإجابة بعد النظر والتفكير، فإذا بها تقلبُ على القوم موازينهم، وتقطعُ عليهم كل التوقعات.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؟.

أسندَ الفعل إلى كبير التماثيل، وفي هذا تَجَوُّزْ يتناسبُ مع تسمية القطع المبعثرة والأصنام المهشمة آلهةً، أو أنه من باب التبكيت، وهو أُسلوب مشهورٌ عند الحاذقين باللغة العربية، ولا يسمى قائلهُ كاذباً إلا من قبيل تسمية المعاريض بما يُشبهها، أي لَمَا صارت صورة التعريض صورة كذب جاز تسميته به، وتسميةُ قائلِه كاذباً[1]. وهذا علمٌ عظيم من علوم بلاغة اللغة العربية، ومن خلاله نستطيع تفسير الحديث الصحيح الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنهُ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيْمُ النَّبِيُّ عليهِ السلام إلا ثلاثَ كذبات:

---

(١) «روح المعاني» للامام الألوسي جـ ١٧ ص ٦٥.

اثنتين في ذات الله :

قولَهُ : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1][2] .

وقولَهُ : ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[3] .

وواحدةً في شَأنِ سارة . . . . . . . . »[4] .

عندئذ اكتملت حَلَقَاتُ الحَدَث المؤثر :

فُتَاتُ أصنامهم يملأ أرجاء المعبد !

فَأسٌ معلقٌ على عنق كبير التماثيل الذي يحظى لديهم من الشهرة والتبجيل بالنصيب الأَوْفَرِ، والذيْ بقيَ سالماً على خلاف سائر المعبودات المزيفة !

---

(١) الصافات : ٨٩ .

(٢) قال الإمام الرازي عن هذه الآية : «فلعله كان به سقمٌ قليل» التفسير الكبير جـ ٢٢ ص ١٨٦ .

(٣) قال الإمام الرازي : "فإن قيل : بل فعلهُ كبيرهم ، كَذِبٌ (والجواب) : للناس فيه قولان : (أحدهما) وهو قولُ كافة المحققين : إنه ليس بكذب : وذكروا في الاعتذار عنه وجوها (أحدها) : أنَّ قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن أن ينسب الفعلَ الصادر عنهُ إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، واثباته لها ، على أسلوب تحريضٍ يبلغُ فيه غرضَهُ في إلزامهمُ الحجة ، وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت بخطٍ رشيق ، وأنت شهيرٌ بحسن الخط : أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أميٌّ لا يُحسنُ الخطَّ ولا يقدرُ إلا على خرمشةٍ فاسدة ، فقلتَ له : بل كتبتَه أنت . كأنَّ قصدك من هذا الجواب تقريرُ ذلك مع الاستهزاء به ، لا نفيُهُ عنك وإثباتُهُ للأميِّ والمخرْمِش ، لأنَّ إثباته والأمرُ دائرٌ بينهما للعاجز منهما استهزاءٌ به وإثبات للقادر . (وثانيها) (وثالثها) (ورابعها) (وخامسها) (وسادسها) . . . (وسابعها) (القول الثاني) : وهو قولُ طائفةٍ من أهل الحكايات أنَّ ذلك كَذِبٌ . ثم قال : «واعلم أنَّ هذا القول مرغوبٌ عنه . . . » . نفس المرجع والجزء ص ١٨٥ .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، رقم ٢٣٧١ ، والبخاري ، كتاب الأنبياء ، رقم ٣١٧٩ ، وسنن أبي داوُد ، رقم ٢٢١٢ ، وسيأتي تمامه في المبحث الثاني ، دراسة شخصية إبراهيم الخليل ، إن شاءَ الله تعالى .

وإجابة عاصفة زلزلت مفاهيم القوم المقلِّدين.

أمام هذا كله راجع المعاندون موقفهم في لحظةِ صدقٍ مع الذات، ومحطة صحوةٍ مرَّتْ بهم، فأخذوا يتساءلون:

أيمكن لأصنام المعبدِ أَنْ تكون آلهةً حقيقية وهي عاجزةٌ عن الدفاع عن نفسها؟

وهل يجوز الاعتقاد في أهليَّة كبيرِ الأصنام للألوهية، وهو الذي تناثرت هيبته مع تناثر أشلاء أقرانه في المعبد وهو واقف بلا كرامة ولا إرادة عاجزٌ عن أن يدفع عنها ضُراً، أو ينزل بأعدائها سوءاً؟.

دارت هذه التساؤلات وغيرها في خَلَدِ القوم، فتأكدوا من فساد عقيدتهم، وسُخْفِ مقولاتهم، وأنَّ رؤوسهم استغرقت في جهل وغرور مقيم، فخاطب بعضهم بعضاً ببطلان ما عكفوا عليه أحقاباً طويلة قائلين:

﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ موقفُ تدبر نبَّههُمْ بعد سباتٍ إلى قُبح طريقتهم، ومحطةُ تأملٍ هزَّتْهم بعد غفلةٍ إلى سوءِ صنيعهم، لكنَّهُ لم يكنْ إلا موقفاً عابراً، وهي لم تكن إلا محطة قصيرة، وَمِنْ ثَمَّ اختفى بصيص النور كالومضة تظهرُ فجأة ثم تزول، دون أن تجدي نفعاً، ليعقبها الظلام من جديد!.

وعادت القلوب إلى التحجر، والعقولُ إلى العمى! ومن غير المستبعد أن يكون كلٌّ منهم قد خاطب قومه بهذه الجملة بنظراتِ الاستنكار لواقع الجهل المطبق، أو من خلال خطاب النفس وحديثها، لأن الأصل، كما قال االشاعر:

| | |
|---|---|
| إنَّما الكلامُ في الفؤادِ وإنَّما | جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا |

القرآن الكريم وضعنا أمام المشهد الجديد المغاير لحالتهم السابقة:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾.

في موقف الومضة رجعوا إلى عقولهم فتدبروا.

وفي مشهد الظلام نُكِسوا على رؤوسهم فانقلبوا على تدبرهم[1].
في محطة التأمل استخرجوا الحق من عمق واقعهم.
ومع حلول التحجر أَسروا ثمرة تدبرهم بقيود تبعيتهم، وَسُقْمِ جدالهم.
لذلك ختموا جملتهم بالقول:
﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾

انقلب القوم إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، فأقروا بالبدهية التي طالما طالبهم بها الفتى، وهي نفيُ القدرة عن تلك الآلهة المزيفة، والإقرار بعجزها عن النطق والإرادة والفعل، لكنهم تكلفوا الاتكاء على الحجة للولوج بها إلى الباطل، فاتخذوها مِجَنّاً يدافعون به عن غيِّهم، وكأنهم يقولون لإبراهيم: ألستَ عاقلاً؟ ألاْ تعلمُ أنَّ آلهتنا عاجزةٌ عن النطق، وأننا عبدناها ونحن نعلم فيها هذا الوصف، فكيف تردُّنا إلى كبيرها وأنت تعرفُ وصفها!؟.

ويضجرُ إبراهيم من تلجلجهم، وينفُذُ صبره من تأبِّيهم بعد انقطاع عُذْرهم، فيُطلق اللفظة الدالة على ذلك: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهي في أصلها تُستعملُ في استقذارِ شيءٍ ما، لكن إبراهيم استثار بها حفيظة القوم لا سيما وأنَّهُ شفعها بكلام قبلها وآخرَ بعدها، أصاب في محاوريه مقتلاً:
﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟
﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

أَيُّها الجهال المعاندون: تعترفون بأنَّ أوثانكم تعجزُ عن الفهم والنطق ثم تصرون على عبادتها وهي بإقراركم لا تصلحُ للأُلوهية، ولا تملك لكم ولا لنفسها نصيباً من نفع أو ضُرٍّ! أيَعْلمُ العاقل ذلك ثُمَّ يعود للعبادة كرَّةً أخرى؟!

---

(١) قال الإمام الألوسي: أصلُ النَّكْس قلبُ الشيء بحيث يصيرُ أعلاهُ أسفلهُ.. وقد يستعمل لغة في مطلق قلب الشيء من حالٍ إلى حالٍ أُخرى، ويذكر الرأس للتصوير والتقبيح حـ ١٧ ص ٦٦.

موقفكم هذا لايليق به إلا تأَفُّفٌ واستقذارٌ لمارساتكم ومعبوداتكم الكاذبة، يامن تركتم الله وآثرتم جماداً من خلقه لا يعقلْ! وَيْلكـم، أفـلا تعقلـون قبـح مـاتصنعون؟ عنـد هـذا الحـدِّ من الحوار والاستجواب ضـاقت صـدور القـوم، وطفـا غيـظ قلوبهـم علـى السطح، إثر اجتماع الدليل النظري والبرهان العملي، والاستخفاف اللساني، فـأخذهم ما يأخذ الطغاة من العزة بالإثم حين يفقدون الحجـة، ويعوزهـم الدليـل، فيلجـؤون إلـى السلاح الوحيد الذي يجيدونه، سـلاح الإرهـاب والغَلَبةِ والغَشْم، مما لاتُصـادق عليـه حتى قوانين الغاب، وبهـذا يظهـر لنـا اختـلال التكـافىء في هـذا الحـوار، فالاحتكـام إلـى العقل وبدهياته كان فقط في جانب إبراهيم أما أصحابُ القوة فقد زيَّنوا بـه مجلسـهم من الخارج حتى إذا أُسقط في أيديهم حَلَّت العصبية مكان القرارات العلمية، وهيمن البطـش في موضع السلم، وهو ما لا يملكه إبراهيم الأعزل من كل سلاحٍ مادي وهذا هـو الوجـه الثاني في ميزان اختلال التكافؤ. لذلك قال من يملك مقاليد النفوذ:

﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ كلمـةٌ أَطلقهـا أصحـابُ النفـوذ انتصاراً لآلهتهم! ويَالها مِن آلهة زائفة تحتاج لمن ينتصر لها، ولا تنتصر هـي لذاتهـا ولا لعابديهـا! والعجب أنهـم يعلمـون منهـا ذلـك! وهـذا يعنـي أنهـم في حقيقـة الأمـر لا ينتصرون لها، وإنما ينتصرون لقوالب العادات والتقاليد التي جمدوا عقولهم داخلها.

حرِّقوه: كلمةٌ اختصرت كـل هـذه المعـاني، واختـزل البيـانُ الإلهـي معهـا قصـة الجهاد ـ في سبيل التوحيد ـ بُرمتها.

لكـن للحـدث تفصيـلات أخـرى أشـار إليهـا القـرآن الكريـم في قولـه تعـالى: ﴿قَالُواْ ابْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافـات: ٩٧]. فمـا الـذي حـدث بـالضبط؟ لانستطيع التوثق من مجريات الأحداث إلا من خلال ما ثبت في نص الوثيقـة القرآنيـة، فهناك أوامر ملكية صدرتْ ونارٌ أشعلت! وإلقاء حصل! كل ذلـك في بنيـان وُضـعَ فيـه إبراهيم مما يؤكدُ أن الحطب الـذي حُـرِّق كـان عظيمـاً بدليـل أن إبراهيـم عُـزل في بنيانـه المستقل. وتقول الروايات: جُمع لإبراهيم حطبٌ كثير حتى إِن المرأة إذا مرضت كـانت

تقول: إنْ عافاني الله لأجعلن حطباً لإبراهيم! وتذكرُ الروايات أن النار بعد اشتعالها صارت سبباً في إحراق الطير الذي يمرُّ في الهواء بجابنها لشدة الوَهَج ! لذلك لم يكن بوسع القوم إلقاء إبراهيم بأيديهم فاستعاضوا عن ذلك بتقييده ورفعه على رأس البنيان، ثم باتخاذ منجنيق وضع هناك، ومِنْ ذلك العلو رُمي إبراهيم إلى قلب النار البعيدة المحرقة التي يكاد يأكل بعضها بعضاً لتَغَيُّظها[1].

كلمةُ النمروذ قضت بتحريق إبراهيم انتصاراً للآلهة التي عابها وسبها، لكن تنفيذها تطلب جهداً ومالاً ورجالاً وآلات وحطَباً وزمناً طويلاً أيضاً[2].

في مقابلها أُطلقت كلمةٌ لم تتطلب شيئاً مما ذكر، ومع ذلك فقد أُبطِلَ بها كل كيد! إنها كلمةُ «كُنْ» الإلهية:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ تعلقت إرادة الله بمدلول البرد والسلام فكان ما قضاة الله، وإذا به يبخر في لحظةٍ واحدة ما دبَّره أعداء الله. وهيهات هيهات أن تكون العاقبة للظالمين ولو أمدَّهم الله بكلِ أسباب التمكين. ما بين قالوا وقلنا، تظهر قدرة الله، وحكمة الله وسنة الله.

النارُ التي أشعلت لم يعد لها من مدلول إلا اسمها، والاحتراق الذي جعله الله أحدَ خواصِّ النار سَلَبَه منها، وأودَعَ بدلاً عنهُ خاصتين اثنتين: خاصيةَ البرد، وخاصيةَ السلام. لقد ظهر للناس بالمشهد المؤثر الناطق أنَّ الحاكمية في الكون لله وحده، وأنَّ السبب مستقل عن المسبب، وأن كلاً منهما من خلق الله عز وجل، وأنَّ الارتباط بينهما ليسَ أكثر من ارتباط الاستيقاظ ودقات الساعة المنبهة، فهو ارتباط لا يشكل تماسكه حاجزاً يمنعُ الانفكاك، بل هو جعليٌّ من الخالق عز وجل ينفصل متى أراد الله، وهذا بالضبط ما وقع، فالنار التي خلقها الله تُجسِّدُ السبب هنا، والإحراق الذي خلقهُ الله

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ ٢٢ ص ١٨٧.

(٢) تذكرُ بعض الروايات أنَّ جمعَ الحطب وحدَهُ استغرق شهراً. الجامع لأحكام القرآن القرطبي جـ ١١ ص ٣٠٣.

أيضاً يجسدُ المسَّبب، وفي العادة يقترن المسبب بالسبب عند ملامسة النار لشيء ما، أو يكون المسَبَّبُ خاصيةً يعرف بها السَّبَبُ، لكن إبراهيم عند ملامسة النار لهُ لم يحترق، لماذا؟ لأن الله فكَّ الارتباط الجعليَّ بين السبب - النار - والمسبِّب - الإحراق - وخلق ربنا بدلاً عن ذلك شيئاً آخر، خلق البرد، وخلق السلام، فإذا بالنار التي أوقدها أهل الوثن تغدو موطن نعيمٍ لخليل الرحمن، وإذا بالناس يَرون بأُمِّ أَعيُنهم خروجهُ من النار سالماً، وإذا بقصته وتضحيته تُسَجَّل في سطور القرآن تحكي للبشرية على امتداد أجيالها صورةً من صور العقيدة، وصورة أخرى من صور الجهاد في سبيلها.

لا غرابة في الأمر عند مَنْ آمن بالله خالقاً لهذا الكون الفسيح فالكلمة التي نشأتْ بها الأشياء على اختلافها ومنها الإحراق، هي ذات الكلمة التي أُبطل بها مفعول الإحراق، وأُنْشىءَ بها شيءٌ آخر هو البرد والسلام، لا فرق في ذلك بين ما هو مألوفٌ عند الناس كالنار والإحراق وبين ما هو غيرُ مألوف كالنار والبرد والسلام.

ويعقب البيانُ الإلهي على ذلك بالقول:

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ إرادتان تعارضتا:

إرادةُ ملك الآراميين في العراق لإنزال الضرِّ بالنبي المصلح، والمحاور الحر.

وإرادةُ قَيُّوْمِ السموات والأرض في نُصرة مَنْ أخلص التوحيدَ لربه، وصدق في الدعوة إليه، وَعرَّض نفسه للموت في سبيله.

وكانت إرادةُ الله هي الغالبة، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [يوسف: ٢١] لكن كيف تجسد قول الله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾؟ وما

---

(١) كلمةُ "كنْ" تعبيرٌ عن الإرادة الإلهية التي تتدخلُ دائماً لإحلال الأمنْ والسلام على دعاة الحق من أفرادٍ ومجتمعات، شرط أن يأخذ الدعاةُ بأسباب ذلك، ومن أهم الأسباب التمسكُ بحبل الله كما تمسك إبراهيم، والوثوقُ بوعد ونصر الله كما وثق إبراهيم، والصدق مع الله، في الدعوة والتبليغ وبذل كل شيء في سبيل مرضاة الله كما صدق إبراهيم، والترفع عن المغريات كما ترفَّع إبراهيم: لقد غلب إبراهيم لأنه أراد مرضاة الله ولم يُرِد شيئاً غير الله، فبذل في سبيل ذلك الدنيا

هي الفصول التالية لعملية الإحراق؟ وكيف كان ردُّ فعل النمروذ والأشراف؟ وما هو ردُّ الشارع العراقي من نجاة خليل الرحمن بعد الجهود الجبارة التي بذلت مادياً وإعلامياً لسحقه؟

القرآن الكريم يطوي صفحة ذلك كُلِّه لأَنها لا تدخل في صُلب الرسالة التي يتوجه بها إلى أبناء الحضارة الإنسانية ليغترفوا منها من أجل بناءٍ إنسانيٍّ متماسك، فالقرآن أوّلاً وآخراً كتابُ حياة لا كتابُ حكايات، وما نصيب القصة في هذا الدستور إلا عصارةُ التجربة الإنسانية في أُسلوبها وانفتاحها وأهدافها لا أكثر، وما شخصيات القصة إلا محطاتٌ بشريةٌ مرّتْ في التاريخ البشري، بذلت وقدّمت فاستحقت أن ترتقيَ إلى مصافِّ القدوة، وأن تسجِّل قصتها في ملف الخالدين. لذلك اكتفى البيانُ القرآني بما أورده كدلالة ظاهرة على ما أنزلهُ الله على قوم إبراهيم من الخسران المبين. ذكر لنا أنهم غالبوه بالجدال فلقنهُ الله الحجة المبكتة. وواجهوه بالجبروت فنصره الله ونجاه. أرادوا إخماد صوته في العراق فارتفع صوته بالتوحيد في الشام، ومنها دوّى في كل أرض. لذلك انتقل بنا البيان الإلهي إلى النتيجة فوراً حيث قال:

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾: هذا من إتمام النعمة عليه. والضمير في "نجيناه" يعود على إبراهيم، أمّا لوطٌ فهو أَخُوهُ في الرسالة، أي: نبيٌّ مثله، أمّا في النسب، فإبراهيم عمه من أخيه هاران. وقَدْ مَنَّ اللهُ عليهما بالنجاة من سطوة حاكم العراق آنذاك، والانتقال إلى الجنوب، حيث نزل إبراهيم بفلسطين، ونزل لوطٌ بالمؤتفكة بمدين على بعد يوم وليلة من عمه[1].

---

= وزينتها، وتخلّى عن عمه وأُسرته وأشراف قومه لأنهم قاوموا الحق وهو الذي كان سيداً فيهم فحاور من غير خطوط حمراء، دون أنْ يُرَاعي أحداً على حساب الحق، فلقنهُ الله حجتَهُ، وأمَدَّهُ بعونٍ من عنده، وأبطلَ ـ انتصاراً لايمانه ـ كلَّ كيد، وجعل أعداءَهُ الأخسرين.

(١) الاصحاح الثالث عشر من سفر التكوين. هذا وتقع مَدْين شمال الجزيرة العربية، في الجنوب الشرقي من فلسطين وتعد معبراً بين الصحراء العربية وبين فلسطين وماحولها، وهي التي لجأ إليها موسى بعد هربه من مصر، انظر كتاب «اليهودية» لأحمد شلبي، الباب الأول: اليهود في التاريخ، ص٤٣.

أقاما هناك حيث الأرض المباركة.

لكن من أين جاءت البركةُ بلادَ الشام؟

بركة الشام لها مصدران:

أَحدهما ديني، والآخر دُنيوي.

فأمَّا الديني فلأن الكثير من أنبياء الله ورُسله ظهروا هناك، وانتقلت من الشام كمالاتهم، ومبادئهم حتى عَمَّتْ أرجاء الأرض. وفي الشام ثاني الحرمين الشريفين المسجد الأقصى الذي أُسِّسَ في الأرض لتوحيد الله بعد المسجد الحرام، بأمرٍ من الله عز وجل قبل أن يظهر في الوجود يهودٌ أو مسلمون.

جاء في الحديث الشريف عن أَبي ذر رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أَيُّ مسجد وُضِعَ في الأرض أوَّل؟ قال: (المسجدُ الحرام). قال: قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: (المسجدُ الأقصى). قُلْتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة[1].

وأمَّا الدنيويُّ فما نشاهدهُ من كثرة الماء، ووَفْرَةِ الشجر، وطيب العيش، وانتشار الثَّمَر لا يخفى على أحد، وما الغوطةُ الغنَّاء، وسواحل المتوسط إلا غَيضٌ من ذاك الفيض الإلهيِّ العامر.

ومع قدوم إبراهيم إلى الشام تضاعفت البركة وتزايدت. فالقُدُوْمُ بشخصه بركةٌ، والقدوم بدعوته بركة، والقدوم بمبادئ التوحيد التي سطعت بنور الإسلام على كل ميدان، وركنٍ في بلاد الشام بركة. ثم في نبوة ابنِ أخيه ودعوته بركة.

ثم ماذا بعد؟ لقد رُزِقَ إبراهيم بفرعين من شجرته المباركة استأثرا بسلالة الأنبياء الذين حملوا من بعد إبراهيم راية التوحيد فنشروا وبذلوا الغالي والرخيص في سبيلها، وأوصوا على حفظها أولادهم وأتباعهم.

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم ٣١٨٦.

إبراهيم تزوَّج أولاً من سارة فلم يُرزَق منها بولدٍ، حتى حثته على الاقتران بخادمتها هاجر التي رُزِق منها بإسماعيل البكر، الذي بنى مع أبيه دار التوحيد في مكة، حيث لا زالت مثابةً للموحدين إلى اليوم، وستبقى كذلك إلى قيام الساعة، ويكفي أن الله رزق إبراهيم من النسل الإسماعيلي خاتم الأنبياء محمداً ﷺ.

بعد سنين من ولادة هاجر رُزق إبراهيم بولدٍ كان قد يئس من قدومه بعد أن تجاوز العمر بسارة، فازدادَتِ البركةُ بقدوم إسحاق. ومن إسحاق خرج نسلٌ من الأنبياء ضمن سلسلة ذهبية بدأت بإبراهيم، وانتهت بالرجل المبارك عيسى خاتمةِ الأنبياء في بني إسرائيل.

وبالنجاة والاستقرار والنسل المبارك - حيث صار إبراهيم يكنى بأبي الأنبياء - تمَّت النعمة، وهو ما صرَّح به البيانُ الإلهي في ختام هذا النص:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾

فايُّ نعمةٍ أعظمُ من هذا كُلِّه؟

وطنٌ جديدٌ فيه ما فيه من النماء والبركة.

ونسلٌ بفرعين فيه الأنبياء والمرسلون، الذين يحملون الراية التي كاد إبراهيم يقضي نحبه في سبيلها، والذين تهتدي البشرية بهديهم ويسيرُ الخلقُ على منهاجهم، ويتعرفون بهم على ربهم ثم يُرسِّخون تلك المعرفة، حين يؤدُّون الصلاة على الوجه الذي أدَّاها به الصفوةُ هؤلاء بخشوع وخضوع وسكينة ووَقار فتُحَرِّكُ فيهم عوامل الرغبة لله، والرهبةِ من جنابِ حضرته، فإذا بهم يستسلمون لأوامره دون تبرمٍ أو اتهام، وحين يؤدون الزكاة التي تجمعُ بين حق الرب الذي أوجب، وحق العبد الذي افتقر، مما يرسي في المجتمع قواعد التكافل الاجتماعي، ومبادئ العدالة الدقيقة،

ويغرسُ بذور النهضة لبناء الأُسرة الإنسانية بكاملها. فنعم العوض، ونعْمَ الجزاء، وما أعَدَّهُ الله للموحدين في الآخرة لهوَ خيرٌ وأَعظمُ أجراً، والله ولي المؤمنين.



الشخصية الإبراهيمية في نسبها ومواقفها وسموها بَدَتْ لنا خطوطها العريضة والتفصيلية من خلال النصِّ القرآني السابق الذي يصف لنا خليلَ الرحمن أجمل وصفٍ على غرارِ سائر نصوص القرآن التي تناولت سيرته.

النصُّ المذكور أقام خليل الرحمن في مقدمة صفوفِ الرسلِ وَالأنبياء، فهو عند المسلمين إِمام مُرسل، وهو أول المسلمين في عصره، وواحدٌ من أُولي العزم من الرسل، كما أنَّه عندنا أحدُ أئمة التوحيد في تاريخ البشرية، صادقٌ في ولائه لربه، مخلِصٌ له العبادة والعمل، باذلٌ في سبيل نصرة دينه الرخيص والنَّفيس، الوقت والمال والمركز الاجتماعي والسياسي، حتى الروح إن اقتضى الأمر. فالعقيدة الإسلامية راسخةٌ في كيانه، مستوليةٌ على وجدانه، مهيمنة على جميع خطواته، ومن هذا اليقين الضارب في جذور قلبه وعقله استهان بالنار العظيمة، وفضَّل أن يُلقي جسدهُ الشريف بداخلها وهي تكادُ تميَّزُ من الغَيْظِ إعلاءً لكلمة ربه، وإرضاءً لخالقه، دون أن يدفَعَه الخوفُ البشري، لأنْ يضعف أو يتقهقر.

وإبراهيم فوق ذلك رجلُ علم، وصاحبُ قلب، ومالك حجة. آمن بمولاه عز وجل بكل من عقله وقلبه، فوصل بين العقل الذي صدَّق، والقلب الذي أيقن بشريان من ذكر الله، والإكثار من تعداد نعمه، والتفكير في آلائه، فاصطبغ فكره وَأحاسيسه بأوامر الإله الحق ونواهيه، حتى هان في طريقه كلُّ خطبٍ جَلَل وتَفتَّق لسانهُ بالبرهانِ المبكت، والدليل القاطع.

حاور أباهُ غيرَ آبهٍ بحرمانه من الامتيازات التي تختصُّ بها عائلته، وجميعُ

الدراسات التاريخية تثبت أَنَّهُ ينحدرُ من أسرةٍ عريقةٍ ذات سمعةٍ ونُفوذ، وأنهُ كان ذا مقام رفيع اجتماعياً وسياسياً ودينياً في كلِّ بلاد المشرق التي هاجرَ منها أو انتقل إليها[1].

حاور أَشرافَ قومه مُعَرِّضاً نفسه لنقمة همزهم ولمزهم، وإنزال جامِ غضبهم. حاور النمروذ ملك العراق في زمانه مستسهلاً الموتَ بأبشع صوره على يديه، لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا هي السفلى.

تدرَّج في الحوار مع قومه خطوةً خطوةً حتى ألجمهم بإقامة الحجة الكاملة عليهم.

هذا هو إبراهيم في الوثيقة القرآنية.

فكيف هو إبراهيم من زاوية الرؤية اليهودية؟

قبل أَنْ ندخل في هذا القَسِيْم أرى من الخير الإبحار في دراسة تاريخية على ضوء الأبحاث والوثائق التي وصلت إلى أيدي المكتشفين لنعرف من خلالها موقفَ تلك الدراسات، هل هي إلى جانب الوثيقة القرآنية أمْ هي في صفِّ النصوص اليهودية، ولِنطَّلع على أحدث ما توصَّل إليه الخبراء، ونتعرَّف على بعض القضايا التي لم يتعرَّض لها النصُّ القرآني.

إبراهيم بإجماع المؤرخين صورةٌ للرجل الكامل الذي اكتسب ثقة الجميع، على اختلاف أديانهم ومشاربهم وأزمنتهم وأماكن وجودهم، الخاصة منهم والعامة، وهو عند الجميع مُشتهرٌ بسموِّ المبدأ، واستقامة السيرة.

يقول الدكتور أحمد سُوْسه:

«وفي سيرة إبراهيم الخليلَ وصِلَته بالبلاد العربية يقول الأستاذ مونتوغومري: إنَّ ما اتسَّمَ به إبراهيم الخليل منَ الخُلُق الرفيع، وعزَّة النفس هو من صفات الآباء،

---

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سُوسه، الفصل الخامس: عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الفقرة الحادية عشرة: شخصية إبراهيم الخليل وصلته بالجزيرة العربية، ص ٤٨٤.

والاعتداد بالنفس التي يتصفُ بها الشيخ العربي[1]» .

ويقول أيضاً : « ومما لا شك فيه أن نبوءة إبراهيم الخليل[2] قد انتشرت في الآفاق، حتى خلد اسمهُ في جميع البقاع التي مرَّ بها، كما نشاهدها اليوم في المزارات والمقامات العديدة التي تحملُ اسمهُ، وهي منتشرةٌ في البلاد العربية عامة»[3] .

إن إبراهيم ما يزال إلى اليوم موضع تقدير الجميع من مسلمين ونصارى ويهود ومؤرخين - عُرْباً وعجماً - لا أعلمُ في ذلك مخالفاً .

وإذا كانت النصوص القرآنية لم تتعرض لموطن إبراهيم ولادةً وبعثةً، ولم تُحَدِّدْ زمن ظهوره، فإن المؤرخين العرب مجمعون على أنَّ الولادة وقعتْ في العراق، وهو عينُ ما أثبته أحدَثُ التنقيبات الأثرية، ففي الدراسات التي أجريت في منطقة بابل دلَّت الأبحاث الموثقة على وجود تسمية أبراهام أو أبرام في العديد من الألواح البابلية تعود إلى سلالة بابل الأولى، كتبت بصيغة (آبارما) و(آبام راما) وهي تدور حول عقود ومقاولات تعود حيازتها اليوم إلى جامعة يَال الأمريكية، كما ورد اسمُ (أبرام) في وثائق مصرية تعود إلى عهد شيشنق الأول (٩٧٤-٩٢٥) قبل الميلاد، حيث ورد فيها ذكر مزرعة أبرام في جنوبي فلسطين، ولعلها تقع في جوار (حبرون) وهذا يثبت بصراحة شيوع اسمِ أبرام في عهد البابليين .

ومن المعلوم بداهة أنَّ (بابل) من أرض العراق، وأنَّ إبراهيم كان عراقي المولد، وإلى جانب ذلك هناك التوراة التي أوردت ذكر إبراهيم مراراً، وسردت سيرته مفصلة، وقرنت ذكره بـ ( أور) الكلدانيين[4]، وهي المدينة التي عاش فيها فالتصق

---

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سُوسه، الفصل الخامس: عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الفقرة الحادية عشرة: شخصية إبراهيم الخليل وصلته بالجزيرة العربية، ص ٤٨٦ .

(٢) يريد «نبأ إبراهيم» .

(٣) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه، الفصل الخامس، الفقرة الحادية عشرة، ص ٤٨٥ .

(٤) جاء في الكتاب المقدس: أوُر الكلدانيين: وهي مسقطُ رأسِ إبراهيم التي ولد ونشأ فيها ولكنه خرج منها إطاعة لدعوة الرب وذهب إلى حاران ومنها ذهب إلى كنعان (تك ١١ : ٢٨ و٣١

ذكرها به، وغير هذا هناك المقامات والمزارات التي تملأ العراق في مواضع محددة من مدن وقرى وطأتها قدما إبراهيم ولادة أو ترعرعاً، بعثة أو زيارة .

كل ذلك يردُّ ما يبديه بعض الباحثين اليوم من أن المولد المبارك لخليل الرحمن، حدث في ( أور ) أخرى غير الكلدانية المشهورة مِن أرض العراق، ثم إنَّ هذا الإدعاء نفسه لا يستند إلى دليل يؤيده .

كما أنَّ الدراسات تُثبتُ بالبرهان القاطع أنَّ شخصية إبراهيم حقيقةٌ واقعيةٌ، وَليستْ مِنْ نسج الخيال كما يروق لبعضِ العلمانيين أن يدَّعيه زاعماً أنَّ الدراساتِ التاريخية لا تُؤيِّدُ ذلك! وهو رأيٌ تبيَّنَ للباحثين فسادُهُ وابتعادُهُ كثيراً عنْ جادةِ الصواب، وهنا تلتقي الوثيقةُ القرآنية مع الأبحاث الأَثرية في نقطةٍ مشتركة على الإيمان بإبراهيم عليه السلام، حيثُ إنَّ الاكتشافات اليوم تجزمُ بأنَّ شخصية إبراهيم وهجرتَهُ مما لاشك في وُقوعهِ البته .

في وثيقة القرآن الكريم وقطعيَّة ألفاظها، وقرآنيَّة نصوصها وتواتر أخبارها ما يبعثُ اليقينَ في قلبِ كلِّ باحثٍ، لكننا رغم ذلك لن نكتفي بها وإنْ كانت كافية بحد ذاتها. السببُ أنَّ ما أحدثه محترفو الغزو الفكري في عقول بعض شبابنا من تخريبِ جزئي أوْ كُلِّيٍ احتاجوا معهُ إلى استدلالات احتياطيه تردفُ النصَّ القرآني بزادٍ إيماني، ولَمّا لم يكنْ في القرآن الكريم ما يمنعُ منَ الأخذ بأيِ سبيلٍ علمي تغني الفكرَ البشري فإنني سأسلك هذا المنهج مستعيناً بالله عز وجل.

معرفةُ أحْدَثِ ما توصلتْ إليه حملاتُ التنقيب الأَثرية تَسْتَلْزِمُ الرجوعَ إلى المختصين في هذا المضمار.

---

= و٥١ : ونجم ٩ : ٧) ومكان أور اليوم خرائب تدعى المغيّر في منتصف المسافة بين بغداد والخليج الفارسي، وعلى مسافة عشرة أميال شرقي مجرى نهر الفرات في الزمن الحاضر، وقد احتلّ المدينة السُّومريون والعيلاميُّون والبابليون والكلدانيون على التوالي، ص١٢٨ .

العالم «ليوناردو وللي» هو أول علماني أطلق صيحةً مُدَوِّيَةً قائلاً بوجوب الجزم بالشخصية الإبراهيمية بعد بحثٍ في تاريخ الجزيرة العربية استمر عدداً من السنين نشر بعدَهُ ما انتهى إليه في عام ١٩٣٦ في كتاب أسماهُ: «اكتشافات تاريخ إبراهيم والدين اليهودي»[1].

ويعتقد «ووللي» أنَّ إبراهيم نبذ آلهة الكلدانيين التي كانوا يعبدونها بعد سلسلة من الهزائم تعرَّض لها الكلدانيون، أحبطتْ نفوسهم، وجعلتْ العاقل منهم وفي مقدمتهم إبراهيم يعترف بعجزها عن نصرتهم، وَبالتالي «بطلان عبادتها».

وَأعقبُ على كلام الباحث «ووللي» بالقول:

إن دراستنا لشخصية إبراهيم تجعلنا نعتقد أنه استغلَّ الحالة السيئة لقومه إثر هزائمهمُ المتكررة لاستدراجهم إلى الاقرار بالإله الحق، وإعلان الدين الواحد، والإله الواحد، لا أنه كان أَحدُ المؤمنين بتلك الآلهة.

يعطي لنا «وولي» ثلاث صفاتٍ للإله الذي نادى به إبراهيم.

١ ـ إلهٌ مجرَّدٌ لا تمثيل ماديَّ لهُ.

٢ ـ إلهُ خيرٍ وعدل.

٣ ـ إلهٌ يعطي للانسان فرديتَهُ وشخصيتَه[2].

ويذكر المستر فيلبي اعتماداً على مدوَّناتٍ بابلية أنَّ نزاعاتٍ دينيةً وَقعتْ في العراق في نفس الفترة التي هاجر فيها إبراهيم. محورُ هذه الخلافات يدورُ حولَ «إله القمر» أو «إلهِ الساميين»، فانبثقت منْ هذه المناظرات عقيدةُ التوحيد التي بَشَّرَ بها إبراهيم الخليل، حتى صار المؤسس لها، وحاملَ لوائها، وأنَّ سلالةً بابلية تقبلت

---

(١) «تاريخ الأديان» للدكتور محمد الزحيلي حفظه الله والدكتور محمد العش رحمه الله فقرة بعنوان «إبراهيم» ص ١١٥.

(٢) نفس المرجع والفقرة ص ١١٦.

التوحيد وحكمتْ به، غيرَ أنَّ الوثنيين انتزعوا الحكم منهم عنوة وبدّلوهُ تبديلاً[1] .

وبين أطلال مدينة «ماري» عُثِر على كتابـاتٍ «عَمُّوْرِيـة» تؤيـدُ صحـةَ مـا جـاء في القرآن الكريم، وبعـضَ مـا جـاء في التـوراة عـن شـخصية إبراهيـم الخليـل، وتؤكـدُ أنَّ القولَ بأسطوريتها لا يخرجُ عن كونهِ أسطورة لم يَعُدْ أحدٌ يصدقها[2] .

كما عُثِر في «ماري» أيضاً على اسمِ مدينة اسمها «ناحور» وهو نفس اسم أَخي إبراهيم الخليل عليه السلام. أكثر من ذلك فقد عثر في مـاري علـى أسـماء مـدن تحمـل أَسماء أفراد عائلة إبراهيم مثـل «سـروج» وهـو اسـمُ جـدِّه[3] ولـم يتوصـل الخبراءُ إلـى القطع بشخصية خليل الرحمن فحسب، بل توسعوا في أبحاثهم حتى تمكّنوا من تحديـد زمن هجرته، وأنه حوالي العام ١٩٠٠ ق. م، ولقد انتهى «دي فـو» البحاثـة الفرنسـي الأستاذ في جامعة السوربون في أحدث دراسة له قام بهـا في العـام ١٩٦٩م، إلـى تحديـد عصر إبراهيم بالقرن التاسع عشر قبل الميلاد[4] .

وفيما نقلته لك عن نتائج التنقيبات التي أُجريت في بابل ومصر، وما تضمنتهُ من ذكر اسمِ إبراهيم والتنصيص على تسمية مزرعةٍ تحملُ اسـمهُ في جنـوبِ فلسـطين وهـي المناطقُ التي نزل بها خليل الرحمن، لدليلٌ آخر يضافُ إلى قائمة طويلةٍ مـن الإثباتـات على وجود هذه الشخصية العظيمة التي لعبـت أكبر دورٍ في تـاريخ الإنسـانية، وأثَّـرَت على أوسـع شـريحة في المجتمعـات البشـرية، وحظيـت بالإجمـاع بـاحترام النـاس علـى

---

(١) كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه الفصـل الخامس، الفقـرة الرابعـة عشـرة هجرة إبراهيم حقيقة واقعة وليست خيالاً ص ٤٩٢ .

(٢) المرجع السابق والفصل الفقرة ص ٤٩٣ .

(٣) نفس المرجع والفصل والفقرة ص ٤٩٤ ومما يذكر هنا أن التنقيبات أثبتت وجود قبيلـة عموريـة باسم: «بنيامين» مما يدل على أن هذه القبيلة كانت معروفة بهذا الاسم قبل ظهور النبي موسى ومن بعده اليهود بزمن طويل نفس المرجع والصفحة .

(٤) نفس المرجع والفصل والفقرة ص ٤٩٣ .

اختلاف أجناسهم وأمكنتهم وأزمانهم وعقائدهم حتى الوثنيين منهم.

خلاصةُ القول: إنَّ طروء إبراهيم وأُسرتهِ على فلسطين، وسكناهم فيها، وانتشارهم إلى شرق الأردن، ونزوح بعضهم إلى مصر، وخروجهم بعد ذلك إلى شرق الأرْدُن وفلسطين، وما وراء ذلك من الحوادث والوقائع[1] المتصلة بأحداثٍ متسلسلة متوالية تأكدت بوثائق أثرية، لا يقبل في ذلك العقل جدلاً أوْ مماراة، ولا يرضى أن يكونَ منْ قبيل الاختراع.

على أنَّ النظر في النصوص التوراتية على ضوء مقارنة بعضها البعض، ومقارنةِ ما ورد فيها مع الوثائق الأَثرية، يخرجُ منهُ الباحثُ بحقيقةِ أنَّ بعضها قد شابهُ الغلو، وَتدخل فيه الخيال، بسبب تداول تلك النصوص سماعاً، جيلاً بعدَ جيل، وتأثرِ الرواة بما وقع لبني إسرائيل فيما بعدُ من أحداث، وبما ابتدعوهُ من دعاوى الأفضلية المطلقةِ والاختصاص، ما حداهم إلى ربطِ أنفسهم بإبراهيم عليه السلام، وتبرير ما ارتكبوه بحوداث نسجوها على حسابهم.



بعد اطّلاعنا على ما ورد في الوثيقة القرآنية مُدَعَّماً بالدرسات التاريخية وَالتنقيبية، فإنني أنتقلُ بالقارىء الكريم إلى مقارنتها مع ما أوْرَدَتْهُ التوراةُ في ذاتِ الموضوع مُوضحاً نقاطَ الاتفاق والاختلاف:

إبراهيم الخليل - حسب الرواية التوراتية - هو أبرامُ بنُ تَارَح بن نَاْحُورَ بنِ سَرُوْجَ بنِ رَعُوْ بن عابِرَ بنِ شَالَحَ بنِ أرْفَكْشَاْدَ بنِ سام بن نوحٍ عليه السلام[2].

هذا هو نسبُهُ الموجود في التوراة، وكُتُبِ التاريخ، التي يبدو لي أنها نَقَلَتْ ذلك

---

(١) هذا ما سأحدثك عنه بالتفصيل في هذا الباب إن شاء الله تعالى.

(٢) سفر التكوين من الاصحاح الرابع حتى الاصحاح الحادي عشر.

عن التوراة من غير تحقيقٍ أو تمحيص[1].

وليس في إيراد النسب الإبراهيمي على هذا الوجه من التفصيل فائدةٌ تُذْكر، اللهم إلاّ أنْ نعلمَ أنَّ نَسَبهُ الشريفَ ينتهي إلى سام بن نوحٍ عليه السلام.

غيرَ أنَّ ما يجدرُ الوقوفُ عندهُ والنظرُ فيه ملياً هو تلك المعطيات الحسابية التي تُقَدِّمها التوراة عن ظهور ووفاة كل شخصيةٍ من أفراد السلسلة الإبراهيمية لأجداد خليل الرحمن، وهي أرْقامٌ تدعُوْ إلى الهلع إذا ما قُورِنتْ بنتائج الدراسات الحديثة لأقدم إنسان عرفتهُ البشرية حتى اليوم. لتوضيح هذه المسألة فإنني سأزوِّدك بجدولٍ عن أسلافِ إبراهيم عليه السلام كما يعْرِضُهُ علينا سفرُ التكوين في الاصحاحات ٤ و ٥ و ١١و ٢١و ٢٥، وهي قائمة غايةٌ في الدقة تُقدِّمها لنا التوراة ليس في أنساب إبراهيم فحسب، بل في تواريخ الأحداث التي وقعتْ مُنْذُ بدءِ الخليقة[2].

وإليك الجدولَ الذي سأقسمهُ إلى جدولين:

الأول من خلق آدم عليه السلام إلى عهدِ نوحٍ عليه السلام.

والثاني من ميلاد نوحٍ عليه السلام إلى زمن إبراهيم عليه السلام.

---

(١) «قصص الأنبياء» للمرحوم عبد الوهاب النجار، باب: إبراهيم عليه السلام، ص ١٠٣.

(٢) "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" للباحث الفرنسي "موريس بوكاي" باب" من آدم إلى إبراهيم" ص ٤٨.

## الجدول الأول

| الرقم التسلسلي | الاسم | تاريخ الميلاد بالنسبة للخلق | تاريخُ الوفاة | عُمُر المنسوب |
|---|---|---|---|---|
| ١. | آدم ـ عليه السلام | ٠ | ٩٣٠ | ٩٣٠ |
| ٢. | شيتْ (شِيْث) | ١٣٠ | ١٠٤٢ | ٩١٢ |
| ٣. | أنُوْشْ | ٢٣٥ | ١١٤٠ | ٩٠٥ |
| ٤. | قِيْنَان | ٣٢٥ | ١٢٣٥ | ٩١٠ |
| ٥. | مَهْلَلْئِيلْ | ٣٩٥ | ١٢٩٠ | ٨٩٥ |
| ٦. | يَاْرَدْ | ٤٦٠ | ١٤٢٢ | ٩٦٢ |
| ٧. | أَخْنُوْخْ | ٦٢٢ | ٩٨٧ | ٣٦٥ |
| ٨. | مَتُوْشَالَحْ | ٦٨٧ | ١٦٥٦ | ٩٦٩ |
| ٩. | لاَمَك | ٨٧٤ | ١٦٥١ | ٧٧٧ |
| ١٠. | نوح ـ عليه السلام | ١٠٥٦ | ٢٠٠٦ | ٩٥٠ |

## الجدول الثاني[1]

| الرقم التسلسلي | الاسم | تاريخ الميلاد بالنسبة للخلق | تاريخ الوفاة | عُمر المنسوب |
|---|---|---|---|---|
| ١. | نوح ـ عليه السلام | ١٠٥٦ | ٢٠٠٦ | ٩٥٠ |
| ٢. | سام | ١٥٥٦ | ٢١٥٦ | ٦٠٠ |
| ٣. | أرْفَكْشَاْد | ١٦٥٨ | ٢٠٩٦ | ٤٣٨ |
| ٤. | شَالَحْ | ١٦٩٣ | ٢١٢٢ | ٤٣٣ |
| ٥. | عابِرْ | ١٧٢٣ | ٢١٨٧ | ٤٦٤ |
| ٦. | فَالَجْ | ١٧٥٧ | ١٩٩٦ | ٢٣٩ |
| ٧. | داعو ( رَعُوْ) | ١٧٨٧ | ٢٠٢٦ | ٢٣٩ |
| ٨. | سَرُوْج | ١٨١٩ | ٢٠٤٩ | ٢٣٠ |
| ٩. | نَاْحُوْر | ١٨٤٩ | ١٩٩٧ | ١٤٨ |
| ١٠. | تارَح | ١٨٧٨ | ٢٠٨٣ | ٢٠٥ |
| ١١. | إبراهيم | ١٩٤٨ | ٢١٢٣ | ١٧٥ |

(١) الجدول الأول من آدم إلى نوح وهذا الجدول من «نوح إلى إبراهيم » قد اعتمدت في تحديد تواريخ كل منهما على كتاب "دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة" لموريس بوكاي فيما نقله عن التوراة.

منْ هذا الجدول نخلصُ إلى جَدولٍ آخر نُحَدِّد فيه عُمُرَ كلٍّ والدٍ سنة ولادة الابن وهو مفيدٌ في معرفة ما يفصلُ بين نوحٍ وإبراهيم عليهما السلام :

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| سام | ولد منْ أبيه | نوح | وهو ابنُ | ٥٠٠ سنة |
| أرفكشاد | ولد من أبيه | سام | وهو ابنُ | ١٠٠ سنة |
| شالح | ولد من أبيه | أرْفكشاد | وهو ابنُ | ١٣٥ سنة |
| عابر | ولد من أبيه | شالح | وهو ابن | ٣٠ سنة |
| فالج | ولد من ابيه | عابر | وهو ابن | ٣٤ سنة |
| داعو ( رَعُوْ ) | ولد من أبيه | فالج | وهو ابن | ٣٠ سنة |
| سروج | ولد من ابيه | رعو | وهو ابن | ٣٢ سنة |
| ناحور | ولد من أبيه | سروج | وهو ابنُ | ٣٠ سنة |
| تارح | ولد من أبيه | ناحور | وهو ابنُ | ٢٩ سنة |
| أبرام | ولد من أبيه | تارح | وهو ابنُ | ٧٠ سنة |
| | | **المجموع** | | **٨٩٠ سنة** |

الجدول المذكور[1] يُبيّنُ عُمُرَ كُلٍّ واحدٍ من الآباء، حين جاءهُ الولدُ، كما ذكرَتْهُ الروايةُ التوراتية، فإذا ما سلمنا جَدَلاً بما قالتْ به التوراة، وافترضنا أنَّ سيدنا نوحاً عليه السلام عاشَ قبلَ البعثة وبعدها ٩٥٠ سنة فقط، وأنُه ولد في العام ١٠٥٦ من خلق آدم عليه السلام، وأنَّ خليل الرحمن ولد من العام ١٩٤٨ من ميلاد آدم عليه السلام، فيكون بين ولادة نوح وَولادة إبراهيم عليهما السلام ٨٩٢ عاماً، وعلى هذا يكون إبراهيم قد عاصر نوحاً قُرَابةَ ستين سنةً! وَبالنسبة للطوفان فإنَّ الرواية تحددهُ حينَ كان عمرُ نوحٍ ٦٠٠ سنة، وبالحساب نجدُ حسب هذه الرواية أنَّ الطوفان وقع في العام ١٦٥٦ من خلق آدم، وَيَسْتطيع سفرُ التكوين أنْ يُحَدِّدَ لنا الطوفان في زمنٍ يسبق ولادة إبراهيم بـ ٢٩٢ سنة تقريباً!

(١) هذا الجدول اعتمدت في أرقامه وتواريخه ما أثبته المرحوم عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» نقلاً عن التوراة. المرجع المذكور ص ١٠٧ .

كلامٌ لا يخرج عن كونِه هُرَاءً في هراء!

أرقامٌ حسابية تفتح أُفُقَ الباحث على مصادر التوراة من أنها مستقاة من حكايات وأساطير، كان يسمعها اليهود في عصر التدوين المتأخر جداً عن إبراهيم وموسى عليهما السلام، بل المتأخر عن داود وسليمان أيضاً عليهما السلام، دونَ مراعاةٍ للأزمان، أوْ ضبطٍ للأحداث، حتى اجتمع لديهم هذا المزيج المتنافر!

إبراهيم أبو الأنبياء يُعاصرُ الأبَ الثاني للبشر! مَن الذي يُصدِّقُ ذلك؟

الطوْفانُ يسبقُ إبراهيم بـ ٢٩٢ عاماً! أيعقلُ هذا؟

ما الدليل على دعواهم من جهة الدراسات الأثرية والبيولوجية؟

إذا عجزوا عن تقديم الدليل فإنَّا قادرون على تقديم دليلنا على بطلان مقولتهم، ولنا أن نسأل: التوارةُ تتحدثُ عن طوفان نُوحٍ، وأنهُ جاء بعد أنْ عمَّ الفسادُ الأرض، إثرَ تحذير السماء لنوحٍ حين أُمِرَ ببناء السفينة، وأنْ يَدخُل إليها ومعهُ أولادُهُ الثلاثة فقط بصحبة زوجاتهم الثلاث، وعلى هذا نقول:

كيفَ يُمكنُ للبشرية أن تنهضَ في مُدَّةٍ قصيرةٍ كهذه لتتكون شعوب وحضارات وتقوم أمم وبلاد، وتسري الحياةُ منْ جديد في الإنسان والحيوان والنبات، مع أنَّ البداية بعد الطوفان شملَ كلَّ الجنس البشري سوى المذكورين، وعمَّ جميعَ الكائنات الحية سوى زوجين اثنين من كلِّ نوعٍ؟!

لو بحثنا المسألة من زاوية عقلية بحتة، وبدأنا بتسجيل متواليةٍ حسابية، لما كانت القرونُ الثلاثة المذكورة إلا محطةً قصيرة من محطات كثيرةٍ وَطويلةٍ لانبثاق الحضارات قبل أن يظهر في العراقِ خليلُ الرحمن:

لنْ تجدَ باحثاً يحترمُ عقلهُ يرضى بقبول مثل هذه الترهات، وإلاَّ كان كالنعامة التي تضعُ رأسها في تراب الصحراء، وتُقْنعُ نفسها بأنَّ أحداً لا يراها!

أحدُ الباحثين الموضوعيين - وهو الفرنسي موريس بوكاي - انطلق في بحثه من

حرية فكرية فلم يكبلْ نتائج دراسته بقرارات سابقة تحتَ تأثير البيئة ومعتقداتهـا ـ أشـار إلى هذا المعنى حين قال: «إنَّ البشريةَ، والأمرُ هكذا، تكونُ قد أعـادتْ تكويـنَ نفسـها ابتداءً منْ أوْلادِ نُوْحٍ وزوجاتهم، بحيثُ إنه عندما يُوْلدُ إبراهيم بعد ذلـك بثلاثـة قـرون تقريباً، فإنهُ يجدُ الإنسانية قد أعادتْ تكوينَ نفسها في مجتمعات.

كيفَ يُمكنُ لإعادة البناء هذه أنْ تتم في زمن قليل إلى هذا الحد. . . . ؟

إنَّ هذه الملاحظة البسيطة تنزعُ عنِ النصِّ أية معقولية.»[1]

ثم يقول متابعاً دحضه للمزاعم التوراتية في هذه القضية:

«أكثرُ من ذلك فالمعطياتُ التاريخية تُثبتُ استحالةَ اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة، وَالواقعُ أنَّ عصرَ إبراهيم يُحَدَّدُ بالسنوات ١٨٠٠ ـ ١٨٥٠ ق. م تقريباً، فـإذا كان الطوفانُ قد حدثَ قبلَ ثلاثة قرونٍ منْ إبراهيم، كما يُوحي بذلك سفرُ التكويـن في الأنساب، فإنَّ الطوفان يقعُ في القرن ٢١ أوْ ٢٢ ق. م. وذلك هو العصرُ الذي كـانت قد ظهرتْ من قبله في نقاطٍ مختلفةٍ من الأرض حضاراتٌ انتقلت أطلالها للأجيال التي تليها: إنَّ المعارفُ التاريخية الحديثة تسمحُ بتأكيدِ هذا.

على سبيل المثال فهذه الفترةُ، بالنسـبة لمصـر، هـي التـي تسـبقُ الدولـة الوسـطى (٢١٠٠ ق. م)، وهذا بالتقريب هو تاريخُ الفترة الوسطى الأولى قبـلَ الأسـرة الحاديـة عشرة. وفي بابل أسرة أُوْر الثالثة.

ومـن المعـروف جيـداً أنـهُ لـم يحـدث انقطـاعٌ في هـذه الحضـارات، وبالتـالي لـم يحدثْ إعدامٌ يخصُ البشرية برُمتها كما تقول التوراة»[2].

أما السبب الذيْ يجعلُ التوارة تتخبـط فيمـا تخـرجُ بـه علينـا مـن معطيـات، وفي مقدمتها هذا التناقض والتداخل في الأرقام والأزمنة والحضارات، بين نـوح وإبراهيـم،

---

(١) كتاب «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» لموريس بوكاي باب الطوفان ص ٥٣.

(٢) انظر نفس المرجع نفسه ـ ج ـ ص. والباب ص ٥٣ ص ٥٤.

فالإجابةُ مرّةً أخرى عندَ هذا الباحث الحر الذي يقول :

«وبالتالي فلا يمكنُ اعتبارُ أنَّ روايات التوراة الثلاث تصفُ للإنسان أموراً تتفقُ مع الحقيقة. وإذا أردنا بأن نكون موضوعيين فلا بدَّ أن نقبلَ أن هذه النصوص التي وصلتْ إلينا لا تمثل تعبير الحقيقة هل أنزل الله شيئاً غيرَ الحقيقة. . . . . ؟

الواقع أنهُ منْ غير الممكن تصورُ فكرة إلهٍ يُعَلِّمُ الناس بالاستعانة بأوهامٍ بل بأوْهامٍ متناقضة. وطبيعي أنْ يثيرَ ذلك افتراض وُجودِ تحريف بواسطة البشر - إما في الأقوال المتوارثة التي انتقلتْ شفهياً مِنْ جيلٍ لآخر، أو في النصوص بعد تحديدِ هذه الأقوال المتوارثة.

وعندما نعرفُ أنَّ مؤَلّفاً مثلَ سفر التكوين قد عُدِّل على الأقلِّ مرتين، وهذا على مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهشُ حين نجدُ فيه أموراً غير معقولة، أو روايات يستحيل أنْ تتفقَ معَ واقع الأشياء، منذ أنْ سمح تقدمُ المعارف البشرية، إنْ لم يكنْ بمعرفةِ كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافيةٍ عن بعضِ الأحداث تسمحُ بإقامة الحكم على درجةِ اتفاقِ الروايات القديمة بهذه المعرفة»(١).

في ختام هذه الفقرة فإنني أستحضر مع القارئ الكريم البدهية التالية :

إن تاريخ البشرية لايعرف مداه الزمني أحد إلا الله سبحانه وتعالى، وإنَّ وظيفة الكتب السماوية أن تقف بنا عند أبرز المحطات الإنسانية لتستفيد الأجيال البشرية من عصارة التجارب التاريخية، أما التصدي للسلالات التاريخية ولادة ووفاة إلى أن ننتهي إلى آدم عليه السلام فهذا من التطاول على الله، ورسالاته، والتنطع في الدين وهو إبحار بسفينة الحق، بعيداً عن شاطئ الأمان والمعرفة والحقيقة، وصدق رسول الله ﷺ حين قال في تعريضه باليهود ومن سار على شاكلتهم في هذا الادعاء: «كذب النسَّابُوْن» ثم تلا قوله تعالى ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[الفرقان : ٣٨].

---

(١) أنظر نفس المرجع والباب ص ٥٤.

وهذا نجد من القرآن الكريم والسنة من أنَّ أحداً لايستطيع أن يُحصي الأنساب والسلالات التي تنتهي إلى آدم عليه السلام لأن بين كل محطة وأُخرى وردت في القرآن أو غيره من الكتب السماوية أحقاباً متطاولة بدليل صدر الآية ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٨]



هذا بالنسبة لزمن وجود إبراهيم، أمَّا بالنسبة للتحقيق في اسمه الشريف، فإنَّ إبراهيم الخليل حسبَ الرواية التوراتية كان يحملُ اسمَ أبرام إلى أن تجلَّى لهُ الرَّبُّ في فلسطين، قائلاً له: «فلا يُدْعى اسمُك بعد أبرام، بل يكونُ اسمُك إبراهيم». التكوين ١٧/ ٥.

وإبراهيم بنص التوراة ينتمي إلى القبائل الآرامية، وهي قبائل عربية نزحت من موطنها الأصليِّ في شبه الجزيرة العربية، لتستقرَّ بعد نزوحها على ضفاف الفرات شمال سورية، ومن هناك نزلت بعضُ أُسرها في أرض العراق، وكانت أُسرة إبراهيم الخليل إحدى تلك الأُسر. قال الدكتور أحمد سوسه:

«وإذا أخذنا بما توصَّلَ إليه العلماءُ حولَ تعيين تاريخ هجرة الآراميين فتكونُ أُسرةُ إبراهيم الخليل قد جاءتْ إلى منطقة بابل في حوالي الألف الثانية قبل الميلاد[١].

فإبراهيم كان عربياً في أصوله وولادته وهجرته. الأصولُ ترجعُ به إلى الجزيرة العربية التي خرج منها أجدادهُ، تحت ظروف القحط والجفاف، وهي - أي الجزيرة العربية - ما زالتْ عربية إلى هذا اليوم، وتحملُ الاسمَ الذي يبرزُ هُوَيتها.

والولادة حصلت في العراق، وهي بلدةٌ عربية حتى الساعة.

والهجرة كانت صَوْبَ فلسطين ومصر، من طريق سورية، وهي دولٌ عربيةٌ منشأ وتاريخاً، حاضراً ومستقبلاً.

---

(١) «العرب واليهود في التاريخ» الفصل الخامس، الفقرة العاشرة: إبراهيم الخليل ـ مولده وسيرته ص ٤٨٢.

لكن يَدَّعي البروفسور «فيشز» أنَّ أُسرةَ إبراهيم قَدِمَتْ إلى بابل من أرض كنعان! وقوله، وإنْ كان مُغالطاً لما عليه المؤرِّخون، وما أثبتته الدراسات، إلاّ أنهُ لايُغيرُ من النتيجة شيئاً، فالكنعانيون هم قبائل عربية نزحت من الجزيرة العربية، تحت ضغط الظروف القاسية التي اجتاحت الجزيرة العربية في تلك الحقبة، والكنعانيون اختاروا بلاد الشام موْطناً لهم، فهم عَرَبٌ كالآراميين في موطنهم الأصلي، وطريق هجرتهم وأرض مَهْجَرِهم[1].

قال الباحث الكبير محمد عِزَّة دَرْوَزَة بَعْدَ أنْ ذكرَ احتمالاتٍ ثلاثةً للقبيلة التي ينحدر منها خليلُ الرحمن:

«وعلى كل حالٍ فإبراهيم من الجنس العربي الذي يُسَمِّيه المستشرقون ومَنْ يُتابعهم منْ كتَّاب العربِ خطأ الجنس السامي سواءٌ أكان كلدانياً امْ أمُّوْرياً أمْ آرامياً لأنَّ الشعوب الثلاثة هي منْ هذا الجنس على ما يُقرِّرهُ الباحثون بدون خلاف»[2].

وتذكرُ التوراةُ هجرتين لإبراهيم:

إحداهما إلى مصر، والأُخرى إلى فلسطين:

«فانحدرَ أبرامُ إلى مصرَ ليتغربَ هناك، لأن الجوعَ في الأرض كان شديداً»[3] التكوين ١٢/ ١٠ «تغرَّبَ إبراهيم في أرضِ الفلسطينيين أياماً كثيرة» التكوين ٢١/ ٣٤.

---

(١) المرجع السابق الفصل الخامس، الفقرة العاشرة: إبراهيم الخليل - مولده وسيرته ص ٤٨٢.

(٢)كتاب «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» تحت عنوان «تاريخ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام» ص ٣.

(٣) في سفر التكوين: وقال الرب لأبرام: اذهب من أرْضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك» ١٢/ ١ «فذهب أبرام كما قال له الرَّب وذهب معه لوط، وكان أبرامُ ابن خمسٍ وسبعين سنة لما خرج من حاران» ١٢/ ٤ «واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض» ١٢/ ٦ «وحدث جُوْعٌ في الأرْض. فانحدرَ أبرامُ إلى مصر ليتغرب هناك» ١٢/ ١٠.

وهي نقطةٌ تفترقُ عندها الروايات التوراتية عن الوثيقة القرآنية .

القرآنُ الكريم يتكلم عن هجرةٍ واحدة ، بدايةُ سيرها موطنُ ولادة إبراهيم عليه السلام في العراق ، ومحطةُ وصولها الأرْضُ التي بارك فيها رَبُّنا للعالمين ، وهي بلاد الشام ، ومنها فلسطين ، دُوْن أنْ تغرق الآيات في تفاصيل تاريخيةٍ كما تفعلُ التوراة . أمَّا التوراةُ فهي تتناولُ هِجْرَتين اثنتين :

الأُولى من العراق إلى مصر بسبب موجةٍ من القحط والغلاء اجتاحت بلاد الرافدين والثانية من مصرَ إلى فلسطين ، وهي في تناولها للموضوع تأتي على جزئيات من الحكايات تدعو للتساؤل والعجب[1] ! .

وتُضيف المصادرُ اليهودية هجرة ثالثةً إلى دمشق ، تدَّعي قيامَ إبراهيم بأمرِ الولاية عليها ، لكنهُ غيرُ مدون في التوراة ، بل في كتابات منسوبةٍ للمؤرخ اليهودي « يوسيفوس » وهو بدوره نقلها عن : « نيقولاس الدِّمشقي » الذي عاش في القرن الأول للميلاد[2] .

في ميزان البحثِ الإسلامي ليس هناك مانعٌ من الأَخْذ بالهجرتين ، أو بكل ماذكر شرط ثبوت الوقوع ، ولا يتنافى هذا مع إعراضِ القرآن عَنْ ذكرها - إنْ وَقعت - لأنَّ كتابَ الله يأخذُ من حياة الأنبياء أبرز المواقف ، وأهمَّ الأحداث ، ويدعُ سائرها ، مما لانَفْعَ فيه فهو كتاب دستور وحضارة لا كتاب أقاويل وحكايات .

ومن دراستنا لشخصية إبراهيم على ضوء الأبحاث والتنقيبات الأثرية نضعُ يدنا على حقيقةِ أنَّ خليلَ الرحمن كان على اتصالٍ مستمرٍ مع البلادِ العربية المحيطة به نشراً لعقيدة التوحيد ، واستجابةً لعادة الرجل العربي في التنقل والسفر ، وعلى الخصوص

---

(١) جاء في سفر التكوين في الاصحاح الثالث عشر منه : فصعد أبرامُ منْ مصرَ هو وامرأته وكلُّ ما كان لهُ ولوطٌ معهُ إلى الجنوب » ١٣/ ١ «وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل . . . » ١٣/ ٢ .

(٢) «العرب واليهود في التاريخ» د . أحمد سوسه ، الفصل الخامس ، الفقرة الحادية عشرة ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

عندما يتعلق السفر بمكارم الأخلاق كصلة الأرحام مـن مثـل مـا حَدَّثتنـا بـه السنةُ عن سفره لزيارة زوجه هاجر، وولده إسماعيل في مكة[1]، بهدف التفقد، ثم بقصد الزيارة والدعوة إلى الله، وبناء بيتٍ لتوحيد لله عز وجل. فالعربيُّ وإنِ استقرَّ في بلدٍ ما، إلاَّ أنَّه لا قدرةَ له على هجرِ عادات البداوة المتأصِّلَة في نفسه، ومِنْ أهمِّها الارتحالُ منْ أرضٍ إلى أرْض، وخاصةً في تلك الأيام حيث التقاليد العربية أكثرُ تأصلاً منْ أيِّ وقتٍ آخر، وحريةُ الحركة بين الديار العربية متيسرة.

الخطيرُ في ذكر الهجرة الإبراهيمية إلى فلسطين بالرجوعِ إلى المصادر اليهودية أنَّ الكتَّاب اليهود - ومَنْ والاهم - يُطلقون عليها: الهجرة اليهودية الأولى، على حين يُسَمُّوْن خروج موسى منْ مصرَ إلى فلسطين: الهجرة اليهودية الثانية[2].

هذا التلاعب بالألفاظ ليسَ صدفةً، وأهدَافهُ على كلِّ ذي بصيرةٍ لا تخفى، فاليهودُ يسيرون بتأثير الأسطورة الموجهة لدفةِ سفينتهم، أي: أُسطورة شعب الله المختار! لذلك يتعمدون ربط الهجرتين بعضهما ببعض، كي يربطوا أنفسهم بأقْدَسِ الأجناسِ البشرية نسباً وسيرة أي: بخليل الرحمن إبراهيم، ويلجوا منْ وراءِ ذلك إلى تثبيت فكرة الأرض الموعودة على لسان الخليل والكليم، وهما منها بريئان! ربطُ اليهود بإبراهيم وبولدَيه إسحاق ويعقوب يعودُ بالفائدة الجليلة على اليهود في تمرير أبشع مخططٍ عرفتهُ البشرية، مخطط المطالبة بأرْضٍ استناداً إلى وُعودِ الرَّب وأنبيائه الكرام، قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام! وهو ما نُسَمِّيهِ في لغة العصر: التغطية الاعلامية!

---

(١) انظر صحيح البخاري جـ ٣ ص ١٢٢٧ كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيْلاً﴾ [النساء: ١٢٥] برقم ٣١٨٤ عن ابن عباس، وهو حديث طويل سنتناوله بالتفصيل في المطلب الثاني من هذا المبحث إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

(٢) انظر كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه الفصل الخامس الفقرة السابعة عشرة «أين اليهود من عصر إبراهيم الخليل» ص ٤٩٦، وانظر أيضاً الباب الثامن عشر من نفس الكتاب والفصل بعنوان هجرة إبراهيم الخليل والعراق وهجرة جماعة موسى من مصر ص ٤٩٩.

لعلَّ اليهود اليـوم يهدفـون مـن وراء ذلـك الرَّبـط إلـى رفـع مكـانتهم عـن طريـق النسبة الشريفة هذه ليقنعوا أنفسـهم أولاً بـأنهم بـالفعل شعبُ الله المختـار! ثـم ليقنعـوا العالم من حولهم بأنهم كذلك! لكنَّ الحقيقة أنهـم هـم أنفسـهم ليسـوا علـى قناعـةٍ بمـا يقولون! فكيف يطالبوننا بما ليسوا به مؤمنين! . . .

يَنْسى أويتناسى مَنْ يزعمُ وجودَ ارتباطٍ ما بين اليهود وإبراهيم أنَّ كلامَهُ يسـتلزمُ الإيمان بوجودِ اليهود في أزْمنة لم يكنْ لهم فيها وُجود!

كما يستلزم منَّا تسمية إبراهيم ليهودية لم تظهر على ساحة الواقع إلا بعد ألفِ عام تقريباً من ولادة الخليل حيث تنتسبُ اليهودية إلى مملكة «يهوذا»، ومنها اشْتُقَّ اسمهم.

الهجرتان مختلفتان في كل شيء:

فالذين كانوا برفقـة إبراهيـم قـومٌ يختلفـون تمامـاً عـن القـومِ الذيـن هـاجروا مـع موسى عليهما السلام.

أوَّلاً: خرج مع إبراهيم الخدمُ والعبيدُ وزوجهُ ساراي وابـنُ أخيـه لُـوط وهـو مـا نَصَّتْ عليه التوراة[1].

أما مَنْ خرج مع موسى فهـم الموحـدون مـن بقايـا الهكسـوس، والجنـودُ الفـارين، وأطلالٌ من أبناءِ يعقوب عليه السلام بعد أنِ انصهروا في المجتمع المصري خـلال الفترة الممتـدة من خروج يعقوب وبنيه منْ فلسطين، حتى هجرة موسى من مصر عن طريق سيناء[2].

ثانياً: إبراهيم كان آراميَّ اللغة وذلك بشهادة التوراة نفسها.

ومـنْ هـاجر مـع موسـى كـان يتكلـم اللغـة المصريـة المعروفـة آنـذاك باسـم «الهيروغليفية» وهو ما أثبتته الدراسات اليوم إذْ لم تكنِ العبريةُ قد ظهرت بعد.

---

(١) هذا مع سنأتي عليه بالتفصيل في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

(٢) هذه المدة تصل إلى زهاءِ خمسة قرون، وبالنسبة للحديث عن انصهار أبناء يعقـوب في المجتمـع المصري، فهو ما سنتناوله في حيِّز هام لدى الحديث عن نبي الله موسى عليه السلام.

ولمن يُلقي بظلالٍ من الشك على ما أقولُ أسأل:

ألم تقُلْ التوراة إنَّ موسى تربَّى في بلاطِ فرعون، بعد أنَّ اتخذته امرأةُ فرعونَ ابناً لها وهُوَ طفلٌ؟[1].

فهل تربى في البلاط الفرعوني بلسان يعقوب (إسرائيل) أمْ بلسان متبنيه فرعون؟

أكانَ فرعونُ حريصاً على قومِ موسى ولغتهم - إن كان لهم لغة - أمْ كانوا عبيدَهُ وألدَّ اعدائه، وهو مَنْ اتخذ من موسى ولداً له فهل يُرَبيه ويقوّيْه ليكونَ عدواً لهُ، أو يُنشئهُ ليكون لهُ عوْناً؟

المسلَّم به أنَّ موسى كان قائداً مصرياً له مكانتهُ في البلاطِ الفرعوني، ولا يعقلُ إلا أنه ترعرع على لغة المصريين حيثُ رُبِّيَ في بيت زعيمهم، وتبوأ أسمى المراكز للدفاع عن مصالحهم.

منْ جهة العقيدة فإبراهيم كان مُوحِّداً لربه ذاتاً وَصِفاتٍ، بل كان إِمامَ الموحدين، وبهذا المعنى وردَ قولهُ تعالى في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام ١٦٣].

فالإله الذي دعا إبراهيم قومهُ للتسليم لهُ، هو غيرُ إله اليهودِ كما تصفهُ لنا التوراة. الإلهُ الذي كان يعبدهُ إبراهيم لا يخضعُ للتمثيل المادي كما قال الباحث "وللي" أما إله اليهود فهو ينزلُ إلى الأرْض متفحصاً الأشكال البشرية! يأكلْ! يشرب! يندم! يُنافس الآلهة الأخرى ويحاربها تأييداً لليهود[2].

---

(١) سأقوم بتوضيح هذه المسألة بمزيد من البيان في معرِض الكلام عن نبي الله موسى عليه السلام في جزءٍ لاحقٍ إنْ شاء الله تعالى.

(٢) كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه، الفصل الخامس «عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب» الفقرة الثالثة «إلهُ إبراهيم الخليل غير إله اليهود» ص ٤٦٤.

فمثلاً سفرُ الخروج يُصَوِّرُ الإله كشخص يُحارِبُ بنفسه مِنْ أجْلِ إسرائيل[١] .

وفي نفس السفر نقرأ وصفَ التجسيم ، فهو في زعمهم يمشي مشية الإنسان ، وله رجلان تماماً كالبشر[٢] .

وفيه أن الرَّبَّ يكتب بأصبعه ![٣] .

أما في سفرِ صموئيل الأول فالإله يَنْدَمُ على بعض أعماله[٤] .

هذا من حيث الإله نفسه ، أمّا من حيث خالقيته وسُلطانه : فالله عز وجل في اعتقاد إبراهيم هو خالق السموات والأرض ، وما فيهن وما حولهنَّ وما بينهنَّ ، وخالق كلِّ شيء ، وفي مقدمة ذلك هو خالقٌ للبشر دونما تمييز بين خَلْقٍ وخَلْقٍ ، لابالعرق ، ولا بالقبيلة ولا بالقومية ، ولا بأيٍّ مما يتمايزُ به البشر ظلماً وعدواناً ، ويطلقُ الآخرون عليه نازيةً أو فاشية أو عصبية قبلية ، أو انتماءً قومياً ضيقاً أو غير ذلك ، وما التفاضُلُ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح على أرْضيةٍ من الاعتقاد الصحيح بالله والرسل والغيب ، وهو مااختصرناه بقاعدة " الجزاءُ من جنس العمل " في القسم التفسيري من رسالة الماجستير التي أعددتها[٥] .

يشيرُ سفرُ التكوين إلى هذا المعنى وهو يحدِّثنا عن وصية إبراهيم لكبير عبيده المستولي على بيته ، وهو على فراش الموت ، فيروي لنا على لسانه :

«فأَستحلفك بالرب إلـهِ السماء ، وإلـه الأرض ، أنْ لا تأخُذَ زوجةً لا بني مِنْ

---

(١) سفر الخروج ( ١٤/ ١٤)، وانظر سفر يشوع ٢٣/ ٣، ١٠/ ٤٢

(٢) سفر الخروج ٢٤/ ١٠ حيث جاء فيه : «ورأوا إلهَ إسرائيل وتحتَ رِجْلَيْه شبه صنعةٍ من العقيق الأزرق وكذات السماء في النقاوة ، فرأوْا الله وأكلوا وشربوا » ٢٤/ ١١ .

(٣) سفر الخروج (٣٤/ ١)، ( ٣١، ١٨).

(٤) سفر صموئيل الأول ١٣/ ١٣ ـ ١٤ .

(٥) هذه القاعدة استوفيتُ شرحها في التفسير التفصيلي لقوله تعالى : ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّه ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية : ١١٢ من سورة البقرة .

بناتِ الكنعانيين الذين أنا ساكنٌ بينهم»٣ / ٢٤ وقال العبد بعد ذلك: «واستحلفني سيديْ قائلاً . . . » ٢٤/ ٣٧. ويعتقد «وللي» أنَّ العقيدة التي نادى بها إبراهيم ـ والتي صارَ لها بالطبع أتباعٌ كثيرون إلى هذا اليوم ـ تمثلُ تقدماً هاماً للبشرية، وأنَّ البشرية دخلتْ بها في طورٍ جديد فالتجريد والخير والشخصية الفردية[1] أركانٌ ثلاثة لاعتقاد إبراهيم في الإله، وما يهمنا منها هنا هو الأخير منها لأنهُ ـ أي: رَبٌّ إبراهيم ـ يهتم بالأفراد كما يهتمُ بالقبيلةِ والأمة، خلافاً لاعتقاد اليهود وَغيرهم من قبائل ذلك العصر كما سيأتي في الفقرة التالية[2].

والإلهُ ـ كما ينظرُ إليه اليهود ـ قَبَليٌّ خاصٌ بهم، اسمه يهوه، أي: لا علاقةَ له بمن سواهم عملاً بالطريقة التي كانتْ متبعةً لدى قبائل وشعوب تلك الحقبة، حيثُ تختارُ كل قبيلةٍ أو مدينةٍ إلهاً خاصاً بها يهتمُ بشؤونها، ويرعى مصالحها العامه، دون أن تكون لهُ اهتماماتٌ تذكر بأفرادها، فهو يُقدم خدماته لأجل الصالح العام. هذا هو حال كل جماعةٍ تؤمن بالإله الذي يخصها دون أنْ تنبذ سائر الآلهة، وتسعى للقضاء عليها[3].

وإبراهيم حملَ لواء دعوةٍ عامةٍ، خاطبَ بها أهل الوثن قاطبةً في عصره، دون أن يقتصر في ندائه التوحيدي على قومه وعشيرته في حرَّان[4].

---

(١) التجريد معناه أن الله لايشبهه شيء خلافاً لتشبيه اليهود له بالماديات. والشخصية الفردية تعني أن الله يعطي الفرد اهتماماً وعناية تماماً كما يعتني بالقبيلة والأمة، فمَدَدُه على عبده لاينقطع، واتصال عبده به بواسطة الدعاء والعبادة لايتوقف في ليل أو نهار.

(٢) «تاريخ الأديان» للدكتور المرحوم محمد العش، وأستاذنا الدكتور محمد الزحيلي فصل «الأنبياء» باب: «إبراهيم» ص ١١٦.

(٣) نفس المرجع والفصل والباب والصفحة وانظر كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسة الفصل الخامس الفقرة الثالثة ص ٤٦٤.

(٤) حرّان النسبة إليها حرناني على غير قياس، والقياس حراني، وهي قصبةُ ديار مُضر، وهي على طريق الموصل والشام. قيل: سميت نسبة إلى هاران لأنه أول من بناها فعُرِّبت فقيل: حاران. معجم البلدان لياقوت الحموي ج٢ ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

وأما اليهود: فدعوتهم منغلقةٌ على نفسها، فهم يعتقدون أنهم شعبُ الله المختار! وأنَّ التوراة هي الكتابُ الوحيدُ المنزَّلُ على الأرض لهداية البشر! وأنهم وحدهم البشر! فلم يخلق الله آدميين سواهم! بينما غيرهم يندرجون تحتَ جنس البهائم والكلاب! وما خلقوا إلا لخدمة بني إسرائيل العرق النقي! ومَا صيرورتهم على هيئة بني آدم - أي: الأمم والشعوب من غير اليهود - إلا تكرمةً للمخدوم، حين يؤدي الخادمُ بين يديه طُقُوْسَ الطاعةِ والولاء[1].

لهذا المعنىٰ لم تستحق الأمم ـ الغوييم ـ كتاباً أوْ رسالة، أو لنفس السبب أنكروا نبوة سيد الخلق محمد ﷺ لأنهُ من الأُمم وليس منهم[2].

قال الدكتور أحمد سوسه:

«ولا يخفى أنَّ دعوة إبراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدأَتْ منْ العراق، وليس مِن فلسطين، وهي موجهة إلى جميع الوثنيين في عصره، ولم تخطر على بال إبراهيم الخليل فكرةُ شعبِ الله المختار، وهي البدعةُ التي اختلقها مُدَوِّنو التوراة، وَأَدْخَلُوها في الكتاب المقدس بعدَ رَبطها بإبراهيم الخليل، إذْ لا يمكنُ أنْ تكون هذه الادعاءاتُ منزَّلة من الإلهِ خالق السموات والأرْض الذي دَعَا إبراهيم الخليل إلى عبادته قبلَ أنْ يكون قد ظهرَ اليهود بِعِدَّة قرون»[3].

---

(١) هذا ما يبدو لك جلياً في نصوص التلمود المخيفة، ولا أدلَّ على ما أقول منْ رفضِ اليهود منْ دخول أحدٍ في دينهم.

(٢) «أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان» للباحث عبد الحميد جوده السحار» جـ ٢ باب ١٦ ص٣ وقد أتى مؤلِّفه أيضاً على السبب الكامن وراء تكذيب اليهود لعيسى عليه السلام مع أنه من بني إسرائيل! مردُّ ذلك أن المسيح عليه السلام جاء لتسفيه أحلام المتاجرين بالدين الغارقين في بحرٍ مظلم من الشعور الكاذب بالتفوق والسيادة والسموِّ على الأُمم، وهي الأهداف التي وَجَّهَ السيد المسيحُ سهامَهُ إليها.

(٣) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه الفصل الخامس من الباب الثالث ص ٤٦٥.

ولنطلق نظرةً نافذةً إلى أولئك الهاربين من فرعون تحتَ قيادة موسى.

إنَّ أكثرهم متذبذبوا العقيدة، يتخلون عن الثوابت الرئيسية للدين الحق مائة مرة في الساعة الواحدة! وفيما قصَّهُ القرآن الكريمُ عنهم في سورة البقرة، ما يرفعُ الحجب المتكاثفة عن جانب كبير وخطير من شخصية هذه الفئة من البشر، فيردُّ الشاك إلى التصديق، والغافل إلى الاعتبار. وفيما حكاهُ لنا التاريخ عن تأثرهم بآلهة الكنعانيين بعد دخولِ أرضهم من جهة، وبعد موت سليمان من جهة أُخرى - حيث سادت الوثنية في كل مكان، وأُخْمِدَ صوْتُ الحق - لذكرى لمن كان لهُ قلبٌ أوْ ألقى السمعَ وهو شهيد.

أمَّا القلة من أهل التوحيد فيهم فلا ثقل لها ولا تأثير، لذلك أسقطناها من حساباتنا، كما أَسقطها القرآن مِنْ قبل، بعد أن تاهت دعوتها في سراديب الضلال المظلمة، ووحل الأهواء الآسنة.

وفي حال إجراء مُقابلةٍ بين أسباب الهجرة الإبراهيمية مِن وجهة النظر اليهودية وما يُقابلها في الوثيقة القرآنية، ندركُ الهُوة الشاسعة التي تفصلُ بين التوراة والقرآن في هذه المسألة.

الدوافعُ عندَ التوراتيين مادية.

فالهجرةُ الأولى تتحركُ تحتَ نَوْءِ ظروفٍ اقتصادية صعبة اجتاحت العراق آنذاك يحزمُ إبراهيم على إثرها أمتعته، متوجهاً إلى مصر التي أقام فيها رَدَحاً من الزمان، حيثُ اجتمع له هناك ثروةٌ طائلةٌ، ليُغادرها بعد ذلك إلى أرض كثيرة الخصب، عظيمةِ الثمر ويتخذ من حبرون - أي مدينة الخليل - موطن إقامة له.

الملاحظة الأهم التي بالامكان تسجيلها حول هذا، أنَّ النصوص التوراتية - وبكُلِّ أسى - تغضُّ الطَرْف عن جهاد خليل الرحمن في سبيل العقيدة! فلا تتعرضُ لتضحيته وهو يبثُّ مبادئها بين الناس! ولا تأتي على الأهوال التي لاقاها بين قومه الوثنيين والتي انتهت بطرده من أرضه ليُهاجر بعد ذلك باحثاً عن وطن جديد، ينال فيه قسطاً من الطمأنينة والأمان، وجواً ملائماً ينادي فيه بدعوة السماء، بعد أنْ أخفق في

دعوة قومه في العراق!

التوراة التي تقولُ بملءِ فيها إنها ديانةٌ توحيديةٌ لا تعيرُ هذا البذل والجهادَ أدنى أهمية! أليس هذا من أبلغ المفارقات!

ولا عجب مما يقولون، فالتوراة مكتوبةٌ بأيدي صانعيها، ولا تمتُّ لتوراة موسى بأدنى صلةٍ، لأنَّ تلك قد غابت نسختها الأصلية خلف جدارِ الزمنِ أو غُيِّبت!

فالتناقض ليس بين كتابين سماويين، بل بين كتابٍ سماوي وآخر كان ينبغي أن يكون سماوياً، لولا ما ابتدعهُ المدوِّنون، وتصرف فيه المتصرِّفون، حتى غدَت أساطيرهم في التوراة محور الصراع في كل عصر بعد أنْ كانت عاملَ وحدةٍ ولقاء.

الصراعُ في رأيهم من المادة ينطلقُ، وإلى المادَّة يعود، وحولها يُدَنْدن ويدور! هذه هي نظرتهم التي تلازم سلوكهم، ولهذا السبب لم تنس الأيدي التي صاغت التوراة أن تصبغ القصة اليهودية بما يُترجِمُ اعتقاد اليهود، ويحكي للناس ميل القلوب، ويُقيم للناشئة اليهودية أسس المسيرة حتى يسيرَ اللاحقُ على خُطى السابق، ويحافظ الأبناء على مسيرة الآباء! لذلك فإنَّ القرآن الكريم خاطبَ يهود المدينة بخطاب آبائهم من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ [البقرة: ٤٩]، مع أنهُ نَجَّى مَنْ ينتسبون إليهم من آباء، ولنفس الغرض فإنَّ دراستنا التفسيرية والتاريخية ليست حكاياتٍ تُلقى على أسماع الأمة، بل هي نبراسٌ تهتدي به الأمة لتدرك حقيقة هذه الفئة من البشر، وأنَّ الهيمنة الدينية المتطرفة على نواحي الحياة، التي وضعها حاخامات بابل، تُبقي الخطاب القرآني مفتوحاً على يهود اليوم وبنفس القوة والتأثير، بل بنفس الإسقاطات والنتائج، فاليهود هم اليهود، والقرآن الكريم صرَّح بذلك دُونَ تحفظ أو استثناء، وَالتاريخ خيرُ شاهد، وحوادثُ العصر تضيف إلى رَصيدِ هذه الحقيقة أبعاداً جديدة.

وشتان شتَّان بين دوافع التضحية في سبيل الدين والعقيدة، إعلاءً لكلمة الله، على النحو الذي يعرضُهُ النصُّ القرآني في قصة خليل الرحمن إبراهيم، وبين نظرةٍ توراتيةٍ

مادية ضيقة تُفَسِّرُ أحوال البشر - على اختلاف المؤثرات والمجتمعات - على أساسها حتى لو كان هؤلاء أزهد الناس بالدنيا، من صنف الأنبياء والمُرْسلين! إنَّ أخطر تطبيقات هـذه النظرية ما يخرج به علينا صانعوا التوراة حين يُسْقطون نظريتهم على من اصطفاه الله نبياً وخليلاً، فيتبجحون في حقه بمقولات لا تليقُ بالكثير من منحرفي هذا الزمان! إنهم يُؤكدون في توراتهم هيمنة المادة عليه حتى أخذت بزمام قلبه! وحتى دفعته للتضحية بعرضه، والتنازل عن كرامته وشَرَفِهِ لقاءَ عَرَضٍ في الدنيا قليل[1] !



الهجرة ـ كما رأيتَ ـ محلُّ اتفاق بين ما أَثْبَتَتْهُ الوثيقة القرآنية، ودوَّنته النصوصُ التوراتية، ومع ما سطَّرَتْهُ الكتاباتُ التاريخية لكن أيَّ طريقٍ سلك في هجرته إلى الشام ومصر؟

ندعُ الإجابة للباحث الخبير المرحوم الدكتور أحمد سوسه الذي يُحدِّثنا عن ذلك بقوله: «يتفقُ الخبراء على أنَّ إبراهيم الخليل سلك طريقَ الفرات الأيمن في رحلته من «أور» إلى «حرَّان» وهي نفسُ الطريق التي كانتْ تسلكها القوافل، وكانتْ مع إبراهيم الخليل جماعتهُ وممتلكاته منْ قطعان الأغنام والمعزى والحمير والجمال، فيكون قد قطعَ في هذه الرِّحلة ٥٦٠ ميلاً (٩٠٠ كيلو متراً) بين أور وحرَّان، فمرَّ أولاً بمدينة «ماري» العربية وهي عاصمة العموريين الذين ظهرت منهم السلالة البابليةُ الأولى والملك حمورابي الشهير، وقد كانت هذه المدينة آنذاك تتمتع بأوج ازدهارها. ثم ذهب إلى حاران (حران الحالية) وبعد ذلك غادر حران متوجهاً إلى دمشق بطريق تدمر، ومنها إلى فلسطين قاطعاً مسافة حوالي ٦٠٠ ميل (٩٦٠ كيلو متراً) أخرى بين حران وكنعان.

(١) هذا ما سنعرضُ له في الفصل الثاني من هذا المبحث بعونه تعالى - عندَ حديثنا عن سارة زوج إبراهيم، وافتتان الجبَّار بها.

أَمَّا الطريق الذي سلكه في سفره إلى مصر فهو اختراق صحراء شبه جزيرةِ سيناء حيث القبائل المديانية والقينية»[1] .



وتُؤكدُ التوراةُ أنَّ الربَّ دعا إبراهيم ليهاجر إلى أرضِ الكنعانيين مِنْ غير أنْ يصطحب معهُ عشيرته . ففي الاصحاح الثاني عشرْ من سفر التكوين نقرأ :

أ ـ «وَقال الربُّ لأَبرام : انطلق مِنْ أرْضكَ ومن عشيرتك ومن بيتِ أبيكَ إلى الأرض التي أُريك[2]» .

كما يُصرّحُ الاصحاح نفسهُ بأنَّ إبراهيم استجاب لنداء رَبه فلم يخرجْ معهُ سوى ابن أخيه لوطٍ وزوجه ساره وما امتلكاه من العبيد :

ب ـ «فذهب أبرامُ كما قال لهُ الرَّبُ وذهب معهُ لُوْط .

وكان أبرامُ ابنَ خمسٍ وسبعيَن سنةً لَمَّا خرج مِنْ حاران» «فأخذ أبرامُ ساراي امرأتهُ ولوطاً ابن أخيه ، وكلَّ مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوسَ التي امتلكا في حاران . وخرجوا ليذهبوا إلى أرضِ كنعان فأتَوْا أرض كنعان[3] » .

وتذكرُ التوراةُ أنَّ إبراهيم كان فرداً يعيش وسْط الكنعانيين ، لا يحيط به أحدٌ غيرُ أُسرته :

« وشاخ إبراهيم وتقدَّم في الأَيام» «وبَارَكَ الرَّبُ إبراهيم في كل شيْ» « وقال إبراهيم لعبده كبيرِ بيته المستولي على كلِّ ما كانَ لهُ :

---

(١) كتاب « العرب واليهود في التاريخ» د . أحمد سوسه الفصل الخامس الباب الثاني عشر الطريق التي سلكها إبراهيم الخليل في هجرته إلى كنعان ص ٤٨٧ .

(٢) سفر التكوين ١٢/ ١ .

(٣) سفر التكوين ١٢/ ٤ ـ ٥ .

ضع يدك تحت فخذي» «فأستَحلِفُك بالرب إله السماء وإلـه الأرض أنْ لا تـأخذ زوجةً لا بني من بناتِ الكنعانيين الذين أنـا سـاكنٌ بينهـم » «بـل إلـى أرضـي وعشيرتي تذهب وتأخذُ زوجةً لابني إسحاق»[١].

«ثم أخذ العبدُ عشرةً من جمال مولاهُ، ومضى وجميـعَ خيرات مـولاه في يـده، فقامَ وذهبَ إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور»[٢].

هذه النصوص تردُّ بالعبارة الصريحة مزاعمَ اليهود الذين ما فتئوا يرددون مقولـة قيادة إبراهيم لآلاف الإسرائيليين من العراق إلى فلسطين!

ففي كتاب المؤلف الغربي « سولوف» : " كيف نما الشعب اليهودي" مثلاً حديثٌ عن نزوحِ أربعةِ آلاف يهودي بقيادة إبراهيم عليه السلام[٣].

كما نقرأ للدكتور ـ غروبا ـ وهو كاتب سياسي ألماني معروف ـ قولَهُ:

« إنَّ إبراهيم كان ملك اليهود[٤]».

ومن المؤسف لهُ أنَّ شريحةً من أبناء جلدتنا، ما تزالُ ترددُ مقولات أعـداء الأُمة جهلاً منها، أو تبعيـةً وارتباطاً بأهدافهـا وسياسـاتها! أوْ تقليـداً أعمـى، وتكـراراً لكـل وافدٍ من بلاد الغرب المتحضر!.

وما يزيدُ الأمرَ سوءاً والمرءَ تعجباً، أنَّ مَنْ يأخذُ بهذه النظرية الباطلة هـم آحـادٌ مـن أساتذة التاريخ في بعض جامعـات وطننـا العربـي المسـلم. مـن هـؤلاء، الأسـتاذ الدكتـور محمد رشيد الفيل صاحب الدراسات الجغرافية والتاريخية القيمة، حيثُ يقول:

---

(١) سفر التكوين ٢٤ / ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤.

(٢) سفر التكوين ٢٤ / ٣ وللفائدة راجع كامل الاصحاح.

(٣) كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه الفصـل الخامس الفقـرة السـابعة عشرة: «أين اليهود من عصر إبراهيم الخليل» ص ٤٩٧ وص ٤٩٨.

(٤) نفس المرجع والفصل والفقرة التاسعة عشرة بداية تاريخ اليهود وصلتها بهجرة إبراهيم الخليـل ص ٥٠.

«تاريخُ اليهود يبدأ بسفرِ إبراهيم الخليل من أرْضِ الكلدانيين غرباً إلى أرض كنعان»[1].

الأغرب من ذلك ما تلقلق به طائفةٌ من الكتَّاب العرب، تنسبُ نفسها للفكر والثقافة فإذا بها تنقلُ من غير تحقيق، وتدوِّن من دون تمحيص، وكأَنَّ النظرية ترتقي في نظر أولئك إلى مستوى الحقيقة العلمية لمجرد أنَّ باحثاً غربياً قد عزف لحنها!

إنني أسألُ مَنْ يجعلُ نفسهُ في عِدَادِ المثقفين، ويدَّعي أنَّ من الواجب عليه حملَ رسالة الثقافة إلى الأمة: ما هي الوثيقة التاريخية التي اعتمدوها قبلَ أنْ يُدَوِّنُوْا أَمثال هذه العبارات في كتبهم؟ أينَ هي المصادر الموثوقة؟ لعلهم يجيبون بإحالة الأمرِ إلى الغرب! ومع أنَّ هذه الإحالة هي محضُ ذل خصوصاً في القضايا العلمية فإنني أطالبُ سادة هؤلاء من الكتَّاب الغربيين بالمصدر الموثَّق الذي لا يختلفُ باحثٌ على صحته في ميزانِ العلم؟ الإجابة مفقودة، والمسألة تفتقرُ إلى الحدِّ الأدنى من مُقومات البحث العلمي وضوابطه، فالمثقفون العرب ينقلون عن الكتَّاب الغربيين، والكتَّاب هناك ينقل بعضهم عن بعض، وإذا ما تتبعنا السلسلة حَلْقَةً حَلْقَةً انتهى بنا المطافُ إلى مصادرَ يهودية مشبوهة! عندَ هذه النقطة يحقُّ لنا أن نقف قائلين: اليهودُ هم المستفيدون من ترويج هذه الأباطيل، لأنها تعطيهم ذريعةً لادعاء ملكية أرض فلسطين، وإذا لم نتجاوز النقل الخجول، فإنني أَخشى أنْ نجد أنفسنا وقد أَعطينا مفاتيح أرْضنا الغالية فلسطين من حيث نشعر أولا نشعر، فاليهود لا يكتفون بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، بل ينتسبون إلى أب البشر الثاني نوح عليه السلام، عن طريق ولده سام، جدِّ إبراهيم، لذلك ينعتون أنفسهم بالساميين، وبهذه الطريقة يُرجعون تاريخهم إلى أقدم العصور، فيجدون التبرير لكل ما تقترفه أيديهم اليوم بحق أهلنا في الداخل والشتات! ولا أدري أين كان المثقفون وهم يرددون كلاماً

---

(١) نفس المرجع والفصل والفقرة والصفحة، وقد نقله عن كتاب: «اليهود علم الأجناس» للأستاذ المذكور، ص ٨٢.

خطيراً كهذا في الوقت الذي يدَّعون أَنهم عن فكر الأمة يُدافعون !

إذن المرجع الأساسي هو المصادرُ اليهودية ولا شيء غيرها، لذلك فإنني سأردُّ عليهم من الكتاب الذي إليه ينتسبون، وبه يعتزون، لكن قبل ذلك لا بدَّ لي من التعريج على ما سطرَه بعضُ الكتاب العرب في المسألة.

في مقدمة هؤلاء أحمد زكي البدوي الذي يقولُ ما نصُّه:

«ورحل إبراهيم متزعماً الإسرائيليين (اليهود) إلى فلسطين»[1].

ولا يقتصر الأمرُ على كاتبٍ عربي انفرد برأيه، إنما يتعداه إلى هَيْآتٍ ثقافية في الوطن العربي، من المفترض أنها تقفُ على ثغرهامٍ من ثغورِ الأُمة، تتصدى لمحاولات التَّسلل إلى مواقعها بغية تدمير تحصيناتها، لكنّ الحال على عكس المراد في إحدى تلك المؤسسات حيث نجدُ التبعية العمياء قد ألقت بظلالها على وزارة الثقافة العراقية وقت صدور نشرتها الخاصة عن فلسطين[2]، التي صرحت بأنَّ إبراهيم وأَهلَهُ هاجروا من مدينة "أور" في العراق سنة ١٨٠٦ قبل الميلاد، وأنَّ عدد اليهود الذين رافقوهُ في تلك الهجرة كان قليلاً[3]! وكما وعدتُ، فلن أُناقش كُتَّاباً يتبجحون بالعروبة دون أَنْ يشعروا بالمسؤوليات الجسام التي تستلزم هذه النسبة، بعد أن استعاضوا عن الاعتزاز بعروبتهم اعتزازاً بالغرب العملاق، وهو يلقي بفتات موائده على الأقزام الذين كبَتَتْهم عقدة النقص، فإذا بهم ينظرون إلى أنفسهم بمنظار تصغيري! وَ إلى العملاق بآخر

---

(١) نفس المرجع والفصل والفقرة السابعة عشرة: أين اليهود من عصر إبراهيم الخليل، ص ٤٩٦.

(٢) ويكفي أن تعلم هنا أنَّ الدكتور أحمد سوسة من مواليد ١٩٠٠ في العراق، ومن وفيات العام ١٩٨٢، وأن كتابه «العرب واليهود في التاريخ» الذي أنقل عنه استغرقت كتابته أربعين عاماً، وأن النشرة السابقة صادرة عن وزارة الإعلام العراقية في إحدى السنوات الأربعين من زمن إعداد هذا الكتاب، أي: ليس حالياً، وإنما هو في مرحلة سابقة، وقد نقلها د. أحمد سوسه، عن أرشيف الوزارة في طبعتها الثانية، نشرة(١)، ص٦، انظر نفس المرجع والفصل والفقرة والصفحة.

(٣) المرجع والفصل والفقرة والصفحة.

تكبيرى! فأنّى يلتقيان؟ أَمْ كيف يجرؤ القزمُ الصغير على نقد أبحاث العملاق الكبير، تحت مجهر العلم وموازينه، وهو يرى في سيده كلّ صفات الكمال! بل يعتقد أن النظر إليه ليس من حقه، بل هو من اختصاص السيد وحدَهُ!

أُحاورُ مَنْ يستدرجنا من اليهود لتصديق أمثال هذه الأساطير فأقول: ماذا تعني النصوصُ التوراتية التي سُقْتُها آنفاً إذا كان ما تزعُمون حقاً؟

هل بإمكانهم الإجابة عن الفقرة (أ) من الاصحاح الثاني عشر وهي تصرح بدعوة الرَّب لإبراهيم ليهاجر إلى أرض كنعان بمفرده؟

وماذا يقولون في الفقرة (ب) وهي تؤكد اصطحاب إبراهيم لابن أخيه لوطٍ وزوجته ساره فقط، أما ما وراء ذلك من العبيد، فهم ليسوا من الأهل والعشيرة، ومع ذلك فكم يمكنُ لإنسانٍ أنْ يقتني من العبيد؟

ما هو قولهم في فقرة من سفر التكوين ٢١/ ٣٤ تُثْبتُ غربةَ إبراهيم في فلسطين؟ وهل من يصطحب معهُ هذا العدد المزعوم يعيشُ غريباً؟ ألم يتكاثر هذا العدد المزعوم ليصبح أُمّةً كبيرة؟ لكنَّ التوراة تُصَرِّحُ بغربة خليل الرحمن، مما يثبتُ بطلانَ مقولتهم.

أيعقل أنْ يأتي إبراهيم بأربعة آلاف من عشيرته ثم يعيش غريباً بين الكنعانيين إلى حين اقتراب منيته، وهو عاجزٌ عن تزويج ولده إسحاق واحدةً من بناتِ عشيرته حتى يضطر إلى الإيصاء، وأَخذ الأيمان المغلَّظة على كبير بيته ليختار لولده بنتاً حَرَّانيَّةً من عشيرته؟

إنَّ من يدرسُ التاريخ، ويعرف حياة الأُمم والشعوب الغابرة يُدرك أَنَّ أربعة آلاف من البشر تمثل جيشاً كبيراً في مقاييس ذلك الزمان، فهل كان يرضى أهلُ كنعان بدخول هذا العدد الهائل إلى أَرضهم؟ أَلا يُهدد هذا الرقمُ ميزانَ القوى في منطقتهم؟ وإذا كانت النظرية صحيحة فلماذا لم يُقاتلوه، وهو مصدرُ خطرٍ على مصالحهم في العاجل أو الآجل؟

ومنَ الأدلة الإستقرائيَّة الدالَّة على بُطلان مقولتهم إجماعُ المؤرخين والتوراتيِّين والنَّصارى والمسلمين وسائرالباحثين على أَن إبراهيم ما دخل فلسطين غازياً ولا فاتحاً،

إنما دخلها مهاجراً مسالماً. ولو كان ما يقولون حقاً لما استطاع دخولها إلا عَنْوَةً، أو لما دخلها أبداً.

يقولُ الدكتور أحمد سوسه:

«ومن الواضح أنَّ إبراهيم لم يدخلْ فلسطين غازياً ولا محارباً ولا فاتحاً ولا محتلاً وإنما جاء متنقلاً بين العراق مسقط رأسه وبين المستوطنات العربية الساكنَة على ضِفاف وادي الفرات مثل «ماري» و«حران» وفي المناطق الغربية مثل «تدمر» و«دمشق» و «كنعان» شأنه في ذلك القبائل العربية التي كانت تنتقلُ في البادية من مكان إلى آخر فتعتبر كلَّ الجزيرة وكلَّ الوادي (وادي الفرات بوجه خاص) وطنها.

وهكذا فقد استُقبل إبراهيم الخليلُ بكلِّ ترحاب هو وأتباعه وما معه من جمال وقطعان من المواشي وما إلى ذلك مما ملكه من مالٍ أينما حلَّ لما كان يتمتع به من سمعة وشهرةٍ في جميع البلاد العربية.

ففي حرَّان كان بين عشيرته وأقربائه وهم جماعةُ الآراميين الذين كانوا قد استوطنوا في منطقة حرَّان قبل فترة وجيزة.

وفي بلاد كنعان استقبله الكنعانيون بالتَّجلَّة والتعظيم وقد سبق لهم أَنِ استقروا في أرض كنعان منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، وهم كالآراميين عَرَبٌ ساميون من أهل الجزيرة العربية وكانوا كلهم يتكلمون لغةً واحدةً هي لغة الجزيرة الأم قبل أنْ تتفرع إلى لهجاتٍ عديدة»[1].

ونعْمَ ما قالَهُ الأُستاذ الكبير أحمد سوسه، فإبراهيم لو كان يهودياً كما يزعمون لعجز عنِ الانتقال داخل أراضي الجزيرة العربية وخارجها بحرية تامة، ولو أنه قاد جيشاً كما يدَّعون لطُرد من البلاد التي مرَّ بها قبل أنْ يصل بلاد كنعان، هذا إذا لم يقاتلوه ويظاهروا على قتاله، فكيف بهم وقد استقبلوه وأكرموا وفادته.

---

(١) نفس المرجع والفصل، الفقرة الثالثة عشرة: صلة إبراهيم بالقبائل العربية البائدة، وبجريدة العرب ص ٤٨٩ – ٤٩٠.

ما نرتضيه من هذه الدراسة ، أنَّ إبراهيم عليه السلام هاجر فرداً ، ودخل أرض كنعان بصحبة أسرته وعبيده ، فهو أَشبه ما يكون فرداً ، ثم عاش فيها غريباً ، ومات غريباً ، ولا أدلَّ على ذلك منْ وصيته لابنه إسحاق عليه السلام

ولتأكيد هذا المعنى ، أُضيف إلى معلوماتك نصوصاً توراتية في هذا السياق :

جاء في سفر التكوين في الاصحاح العشرين منه :

«وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادَش[1] وشُوْر[1] وتغرَّبَ[1] في جَرَار[2] .

---

(١) قادَش اسم سامي معناه مقدس وهو اسم قادش برنيغ ، وهي ثاني بقعة اشتهرت في تاريخ تيه بني إسرائيل بعد تيه جبل سيناء ، فقد تمركز فيها قوم موسى ٣٨ سنة من سني تيههم الأربعين ، وفيها ماتت مريم أُخُت هارون وموسى ، ومنها أرسل موسى جواسيسه الاثني عشر ، وفيها أُقيمت خيمة الاجتماع وتابوت العهد ، وسكن موسى ورؤساء قومه . وموقعها إلى الجهة الغربية من وادي عربة ، وهي على مسيرة أحد عشر يوماً من حوريب ( جبل سيناء) بسرعة سفر بني إسرائيل في تلك الأيام وفي اتجاه جبل سعير في القدس وعلى طريقه . كانت تدعى " عين مشفاط" وقد دعيت عيُون الماء المجاورة لها باسم ماء مريبة قادش ، وتسمى اختصاراً " ماء مريبة" وتعني ماء المخاصمة لتذمر بني إسرائيل هناك ، ومخاصمتهم موسى من أجل الماء . قاموس الكتاب المقدس ص ٧٠٨ ـ ٧٠٩ .

أما «شُوْر» فاسم عبري معناه «سور» وهو موضع في البرية جنوب فلسطين ، وعلى الأخص جنوب بئر لحَيٍّ رئي شرق مصر ، سار هناك بنو إسرائيل ثلاثة أيام حال عبورهم البحر الأحمر ، وقد كانت أحياناً تسمى برية ايثام ، وهي الموضع الذي صار مسكناً للإسماعيليين فيما بعد . نفس المرجع ص ٥٢٨ .

(٢) جرار اسم عبري معناه جرَّة ، وهي آنية خزفية ، وهي مدينة قديمة شهيرة جنوب فلسطين ، على بعد ثمانية أميال جنوب شرق غزة ، وربما هي المكان المعروف الآن بخربة ام الجرار ، نفس المرجع ص ٢٥٤ يقول الدبس : إن جرار واقعة اليوم شرق خان يونس وإن مكانها يعرف في أبامنا باسم أمُّ الجرار» انظر تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم للباحث محمد عزة دروزة . فصل : تاريخ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، وتمحيص هوية العبرانيين

«أنا غريبٌ ونزيلٌ عندكم. أَعْطوني ملك قبر معكم لأَدفن مَيْتي مِنْ أمامي» ٢٣/ ٤ .

«فأجاب بنو حِثٍّ إبراهيم قائلين له» ٢٣ / ٥ « اسمعنا يا سيدي أنت رئيسُ من الله بيننا . في أفضل قبورنا ادفن ميتك» ٢٣/ ٦ .

إذا كان هذا حال إبراهيم عليه السلام ، فهلا كان حالُ ولده مُغايراً؟

بمعنى آخر : هل تكاثر أولادُ إسحاق في فلسطين؟

نسألُ توراة المستفيدين من هذا الادعاء؟ .

تجيبُ التوراة : إنَّ كنعان كانت أرضَ غُربةٍ بالنسبة لإسحاق ، تماماً كما كانت أَرض غربةٍ بالنسبة لأَبيه . بل تحدثنا عما هو أفصح من ذلك ، حين تسردُ علينا وصيةً مماثلة لوصية إبراهيم لولده يتوجَّه بها إسحاق إلى يعقوب ، يدعوه فيها إلى اختيار زوجةٍ من بنات عشيرته في حرَّان ، ويحذره فيها من الاقتران بإحدى بنات الكنعانيين .

والآن نستمع إلى نصوص أُخرى في سفر التكوين :

«وكان في الأرض جوعٌ غيرُ الجوع الأوَّل الذي كان في أيام إبراهيم . فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جَرَارْ» ٢٦/ ١ « وظهر له الرب وقال : لاتنزل إلى مصر . أُسكُنْ في الأرض التي أقولُ لك ٢٦/ ٢ «تغرب في هذه الأرض» ٢٦/ ٣ .

« وجاء يعقوبُ إلى إسحاق أَبيه إلى مَمْرا قرية أربع التي هي حبرون حيثُ تغرب إبراهيم وإسحاق» ٣٥/ ٢٧ .

«فدعا إسحاق يعقوب وباركه وأوصاه وقال له : لا تأخذ زوجة من بناتِ كنعان» ٢٨/ ١ .

«قُمْ اذهب إلى فدان أرام[1] إلى بيت بَتُوْئِيلَ أَبي أُمِّكَ وخُذْ لنفسك زوجة من

---

= الفقرة الخامسة (٥) ص ٤٩ وقد قال الباحث دروزة في تعقيبة على قول الدبس «فالمنطقة التي ارتحل إليها والحالة هذه هي منطقة بئر السبع» انظر نفس المرجع والصفحة .

(١) اسم سامي معناه "سهل أرام" موقع يوجد على ما يظهر في أرام النهرين : قاموس الكتاب المقدس

هُنَاكَ من بنات لابان أخي أمك» ٢٨/ ٢ «رأى عيسو أن بنات كنعان شريراتٌ في عينَيْ إسحاق أبيه» ٢٨/ ٨.

إنَّ الزمن الذي عاش فيه إبراهيم في فلسطين يصل إلى مائة عام تقريباً، فإذا ما أضفنا إليه الزمن الذي عاشه إسحاق[1] ثم افترضنا صحة الزعم الذي يذهب إلى أن إبراهيم هاجر مع أربعة آلاف من قومه، فإننا نستطيع الجزم بأنَّ مجموع الزمنين مع الرقم المفترض يعطينا عدداً هائلاً من الناس ضمن متوالية حسابية قادرة على اكتساح تلك البلاد برمتها، لكن التوراة تُصر على أن إبراهيم عاش ومات غريباً، وأن إسحاق عاشَ وماتَ غريباً، وكذلك يعقوبُ منْ بعدهما. إذن، فلسطين بنص التوراة هي أرضُ غربة بالنسبة لكل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ولو لم تكن كذلك، ولو وجدت كثرةٌ كافية لاختار منها إبراهيم امرأة لولده إسحاق، ولاختار منها إسحاق امرأة لولده يعقوب.

التوراةُ تؤكدُ استمرار حياة الغربة في الحفيد من وجهين يردف أحدهما الآخر: الوجه الأول أنها صرحت بذلك.

جاء في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين:

---

= ص ٦٧٢ والنهران هما دجلة والفرات وأرام النهرين هناك، وفيها حاران، ومدينتا نصيبين، والرها، اللتان اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية. نفس المرجع ص ٤٣.

قال الدكتور أحمد سوسه: «ورد في كتاب «قصص الأنبياء» للنجار مايشير إلى أن «فدان آرام» التي ورد ذكرها في التوراة تقع في العراق ولعله يقصد بالعراق وادي الرافدين الذي يشمل كل المنطقة الواقعة على وادي الفرات بما في ذلك منطقة حران الكائنة على منابع البليخ وهو أحد روافد الفرات الأوسط» انظر الحاشية ١٠٠ على كتاب «العرب واليهود في التاريخ» ص٤٨٦.

(١) جاء في الاصحاح الحادي والعشرين عن ولادة سارة لإسحاق: "وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه" ٢١/ ٥ وفي الاصحاح الخامس والعشرين: «وهذه أيام سني حياة إبراهيم التي عاشها مئة وخمس وسبعون سنة" ٢٥/ ٧ وفي الاصحاح الخامس والثلاثين: «وكانت أيام إسحاق مئة وثمانين سنة» ٣٥/ ٢٨.

«وسكنَ يعقوبُ في أرْضِ غربة أبيه في أرْضِ كنعان» ٣٧/ ١ .

والوجه الثاني هو ذكرُ عدد أولاد يعقوب لحظة الهجرة من أرضِ الغربة فلسطين إلى أرض الغربة الجديدة مصر. قال الباحث محمد عزة دَرْوَزَة: «وقد احتوى الاصحاح السادس والأربعون أسماء وأعداد الذين صعدوا مع يعقوب من أبنائه وأحفاده وقد بلغ عددهم ستاً وستين نفساً من صُلْبِهِ سوى نِسْوَةِ بنيه. وعدا يوسف وابنيه اللذين ولدا له في مصر[1]».

ثم إنَّ مَنْ يقرأ التوراة يُفاجأ بأنَّ يُعقوب ولد له اثنا عشر ولداً - بنو إسرائيل - لم يرزق بواحد منهم داخل فلسطين، وإنما ولدوا جميعاً خارجها وبالتحديد في منطقة «فدان أرام» - حران - حيث مكث يعقوب هناك عشرين سنة[2] ويمكن أن نضيف إلى هذين الوجهين هجرة يعقوب إلى مصر وإقامته فيها إلى آخر أيام حياته حين توفي بين أولاده وأحفادهم الذين هاجر بهم من فلسطين دون أن يستثنى منهم أحدا على ما جاء في الاصحاحات من التاسع والثلاثين إلى الخمسين من سفر التكوين.

وبشأن عيسو أخي يعقوب يخرج علينا سفر التكوين بالفقرة التالية: «ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته عن وَجه يعقوب أخيه لأنَّ أملاكهما كانت كثيرة على السُّكنى معاً، ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما» ٣٦/ ٦-٧ .

وبوسعي أن استفسر ومعي كلُّ باحثٍ حر: وما عليك أخي القارئ إلا أن تمعن بفكرك ملياً في قول التوراة: «ولم تستطع أرض غربتهما أنْ تحملهما . . .» فإنه تصريح جديد من التوراة بأن فلسطين هي أرضُ غربةٍ بالنسبة لجميع أبناء إسحاق .

وبوسعي - على ضوء ما ذكرت - أن أستفسر ومعي كلُّ باحثٍ حُرٍّ: أين هم

(١) «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» للباحث دروزة تحت فصل: تاريخ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وتمحيص هوية العبرانيين" الفقرة الثامنة ص ٦٢ .

(٢) سفر التكوين ٣٨/ ٣٢.

أحفاد الأربعة آلاف يهودي الذين خرجوا مع إبراهيم من العراق واستقروا في فلسطين!؟ فإذا لم يزدَدْ عددهم اطراداً فعلى الأقل يبقى على حاله، ولكن التوراة عدتهم لنا نَفساً نفساً، وأوصلهم الاصحاح السادس والأربعون في سفر التكوين إلى ست وستين نفساً سوى نسوة بنيه[1]، فأين الآلاف المزعومون؟ وأين هي العشيرة؟ وأين هم أحفادُ الآلاف الأربعة؟

وإذا كان يعقوب - إسرائيل - ولد خارج فلسطين.

وإذا كانت نشأة يعقوب وترعرعه خارج فلسطين.

وإذا كان أولاده الاثنا عشر ولدوا جميعاً خارج فلسطين.

وإذا كان هو نفسه لم يستقر في فلسطين بل هاجر منها إلى حيثُ استقر وبنيهُ، إلى أن مات لتبقى ذريته هناك حتى تنصهر بالمجتمع المصري تماماً، ليخرج بقاياها مع موسى بعد ستمائة سنة تقريباً، وإذا كان خطُّ هجرتهم هذه المرة إلى فلسطين ليس لأنها أرضهم، بل لأنها الطريق الوحيد الذي لا بد من سلوكه هرباً من فرعون وبطشه، ولأن فيها من الخيرات والبركات ما لا يدرك في مكان آخر قريب، إذا كان هذا كله ماثلاً للعيان فإنَّ فلسطين ليست أرض اليهود ولا الإسرائيليين وما مزاعمهم حول هذه القضية إلا نصوص زيفها كتبةُ التوراة على لسان موسى ليستبيحوا بها أرْضَ العرب أرْض المسلمين، ومِن سوء حظهم أنَّا نردُّ عليهم من توراتهم، وبأحدث النتائج العلمية للدراسات التنقيبية الأثرية، وبموازين عادلة من العلم والمنطق، لذلك نستثير حفيظتهم لنسألهم مجدداً:

ماذا تفعلون بنصوص تجدونها في كتابكم، وترتلونها في صلواتكم، تعيدُ سهامكم إلى صدوركم؟

أقول: ربما جعلَ بعض دعاة التطبيع اليوم منْ أُبوَّة إبراهيم لإسحاق عكازاً يتكؤون عليه في تمرير أمثال هذه الروايات المقطوعة سنداً ونسباً إرضاءً منهم لعدو الأمة

---

(١) انظر تاريخ بني إسرائيل وأسفارهم ص ٦٢

مغتصب أرضها ومنتهك حرماتها: ذلك أنّ إسحاق والد يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل بنص التوراة والانجيل والقرآن ولدى سائر الباحثين، فمن المنطقي - حسب افتراضهم - أن يكون إبراهيم زعيماً لليهود، أو الإسرائيليين!

هذا العكاز لا يُقيم نفسه فضلاً عن أن يتكئ عليه غيرُهُ، لأنَّ إبراهيم هو أيضاً والد إسماعيل وإسماعيل بنصِّ التوراة هو الأب لقبيلة عربية عاشت في مكة، يعرف أبناؤها بالإسماعيليين.

فالأبوة لإسحاق هي ذات الأبوة لإسماعيل فما الذي حصل حتى ترجح الكفَّةُ الأولى فيصبح إبراهيم يهودياً وتطيش الأخرى فلا يكون إبراهيم عربياً؟!

ثم إن إبراهيم بنص التوراة رجل ينتمي إلى القبائل الآرامية وهي قبائل عربية نزحت من شبه الجزيرة العربية فهو باعتراف االتوراة وشهادة المؤرخين عربي فكيف يكون عربياً ويهودياً في آن واحد؟

وهل تصح نسبة إبراهيم لليهودية وهي مجهولة بالنسبة إليهِ لم يعاصرها ولم يسمع بها، وليس له أي صلة بزمانها ومعتقداتها؟

أَيُّ هراء هذا، إنهُ أشبه ما يكون بقولنا: إن آدم كان طوفانياً ـ نسبة إلى من عاصر طوفان نوح ـ وآدم لا يعرف شيئاً عن الطوفان، ولم يسمع به، لأنه حدث بعده بزمن طويل جداً.

ما يرجح عروبة إبراهيم على يهودية غريبة عنه يحاول هؤلاء إلصاقها به بشتى الوسائل دون أن يعرف عنها شيئاً البتة هو أن الخليل عليه السلام عاش متنقلاً بين بلاد الشرق الأدنى من العراق إلى سورية حتى فلسطين فمصر، وكلها بلاد اتسمت بالقومية العربية السامية فأهل تلك الديار عرب هاجروا من الجزيرة العربية المهد الأصلي لحضاراتهم، والمصدر الأمِّ لشعوبهم وجميعهم يرتبطون مع بعضهم بعلاقات قربى وجوار.

فهل بعد هذا من شك في أن إبراهيم كان عربي الأرض والقوم؟

ألا يستتبع هذا عروبة إسحاق وولده يعقوب عليهم جميعاً منا أزكى تحية وسلام؟

الأدهى في هذه القضية أن الذين تشدقوا بمقولة قيادة إبراهيم لآلاف اليهود ـ كُتَّابٌ من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ـ لم يكلفوا أنفسهم عناء التحقيق والتمحيص! ولم يشعروا بأمانة الكلمة وهم يلقون بالغث من الأفكار بين أبناء هذه الأمة جهلاً منهم أو صغاراً ملأ قلوبهم أو تبعية عند بعضهم أو كل هذا عند بعض آخر.

يقول الدكتور أحمد سوسه في كتابه «العرب واليهود في التاريخ» موضحاً هذا المعنى:

«والواقع أن الكتاب العرب قد استندوا في نقل مثل هذه الإدعاءات إلى المصادر الأجنبية وهي مصادر يهودية في معظمها دون أَن يتنبهوا إلى التسلسل الزمني للحوادث التاريخية، وقد سبقت الإِشارة إلى أن مدوِّني التوراة تعمدوا إهمال التسلسل الزمني وذلك لإفساح المجال أمامهم لإِ رجاع اليهود إلى أزمنة سابقة لوجودهم ومنها عصر إبراهيم الخليل. ففي كتاب «سولوف» «كيف نما الشعب اليهودي» مثلاً نجدُ ما يفيد أن الشعب اليهودي نزح إلى فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل ولم يكن عددهم آنذاك يتجاوز أربعة آلاف شخص.

وهذا هراء في هراء ليس له أيُّ نصيب من الصحة ولا أيُّ سند من واقع التاريخ، ولكن لم يزل عدد غير قليل من الكتَّاب العرب يأخذ بهذا التزييف.

وكتاب «سولوف» المذكور يدرس الآن في أمريكا في المدارس اليهودية وغير اليهودية باعتباره يمثل تاريخ اليهود، ولم يتصد أحد من المؤرخين والباحثين لتفنيد هذه الادعاءات الوهجية، و لنا أن نسأل:

أين دعاية العرب من هذه الادعاءات المزيفة؟

هل ردَّ أحدٌ عليها؟

هل أدخل العرب في مدارسهم منهجاً لتوضيح حقيقة تاريخ فلسطين القديم ودور اليهود فيه؟

ومن حقنا ومن حق كل باحث أنْ يسأل:

كيف يمكن أن يكون إبراهيم الخليل يهودياً وقد عاش قبل أن يَعرِف التاريخ

جماعة يسمون أنفسهم يهوداً بحوالي ألف وثلاثمائة عام؟

ثم أين كان الشعب اليهودي في سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد لا سيما وأن تسمية يهود لم تظهر إلى عالم الوجود إلا بعد ٢٣٠٠ عام من هذا التاريخ كما أن إبراهيم الخليل نفسه لم يظهر إلا بعد أكثر من ألفي سنة من التاريخ نفسه؟.

ولنا أن نسأل أيضاً:

كيف جاء اليهود إلى العراق؟

وكيف اتصلوا بإبراهيم الخليل في حين أنه لم يكن لهم أي وجود بعد؟

وكيف يتزعم إبراهيم الخليل اليهود في رحيله إلى فلسطين قبل أن يخلق يهوذا الذي جاءت تسمية يهود منه، أو يكون خلق يعقوب (إسرائيل)؟.. نعم، إن العراق حوى اليهود، ولكن حواهم كأسرى في زمن نبوخذ نصر، وكان ذلك بعد إبراهيم الخليل بأكثر من ألف وثلاثمائة عام. ولم يكن لهم أي وجود في العراق لا من بعيد ولا من قريب في عهد إبراهيم الخليل لأنهم لم يكونوا قد ظهروا للوجود بعد»[1].

ومن أبرز الأدلة التاريخية على عروبة إبراهيم عليه السلام اطلاق لفظة العريبي - العربي - على الآراميين والأدوميين وذلك في كتابات أحلاف شلمنصر وفيها سمى ملوك العرب بملوك العريبي مما يدل على أن الآشوريين كانوا يعدون الآراميين والأدوميين من العرب كما هو واقع الحال[2]. ولا أظنك تنسى أن إبراهيم ينتسب إلى القبائل الآرامية وهي قبائل عربية بلا خلاف.

هذه الوثيقة التاريخية تثبت بما لايدع مساحة للجدل عروبة القبائل الآرامية

---

(١) كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسة الفصل الخامس الباب السابع عشر: أين اليهود من عصر إبراهيم الخليل من ص ٤٩٦ إلى ص ٤٩٨

(٢) نفس المرجع والفصل الباب الثامن «هل العبري» و «العربي» كلمة واحدة بمعنى عربي ص ٤٧٧ وللفائدة نقول: أقدم إشارة إلى العرب ورد في وثيقة آشورية أيضاً في نقش للملك الآشوري شلمنصر الثالث وهي تعود لفترة (٨٥٩ ق. م - ٨٢٤ ق. م) انظر نفس المرجع والصفحة.

وبالتالي عروبة من ينتسب إليها ، وينحدر منها وفي مقدمتهم إبراهيم وبنوه .

ومن الركائز التي نعتمد عليها في تبنينا لفكرة قومية إبراهيم العربية هي اللغة الآرامية التي كان إبراهيم يتكلم بها ، وهي إحدى اللغات العربية التي كانت سائدة بين القبائل العربية المنتشرة في ذلك العصر .

أما اللغة العبرية فهي متأخرة عن إبراهيم وبنيه قروناً طويلة ، وهي لم تكن أكثر من مزيج ظهر بعد موسى نفسه بمئات السنين بعد تأثر قوم موسى بالعديد من الحضارات التي استضافتهم في مصر وفلسطين وبابل .

ولقد ظل الباحثون الغربيون تحت تأثير سيلٍ من كتابات يهودية متلاحقة تركز على ادعاءات مزعومة ، وتلاعبٍ متعمد ، يذهبون إلى أن أقدم لغة سامية هي مايسمونه بعبرانية التوراة (BIBILCAL HEBREW) متغافلين عن قصد عن الحقيقة الواضحة وُضوحَ الشمس في رابعة النهار من استحالة تسمية لغة متقدمة على التوراة بمئات السنين بعبرانية التوراة؟ إذْ كيف نسمي إحدى اللغات العربية السامية عبرانية بمعنى اليهودية واليهود لم يكونوا قد ظهروا بعد؟

لقد تجاهل الباحثون وجودَ كنعانيةٍ عربية قديمة برزت إلى حيز الوجود قبل العبرية بقرون طويلة حتى توصل المنقبون مؤخراً إلى اكتشاف لغة «ايبلا» الكنعانية التي صرح خبير اللغات الايطالي كلوفاني بيتيناتو (Glovani PETINATO) وهو أحد المكتشفين لهذه اللغة بأنها الكنعانية القديمة مؤيداً بذلك ما ذهب إليه خبير اللغات داير نجر قبل اكتشافه الجديد[1] .

قال الدكتور الكبير المرحوم أحمد سوسة بعد أن ساق قصة هذا الاكتشاف وتصريح كلوفاني : « وعلى الرغم من ذلك لا يزال الصهاينة يحاولون استغلال الكشف الجديد بدعوى أن لغة إبلا[2] التي تنحدر منها لغة التوراة ، ولكن الدكتور عفيف

---

(١) انظر المرجع والفصل باب «العبري أو العبراني هو غير اليهودي في عرف التوراة» ص ٤٧٤

(٢) أي هي التي تنحدر منها لغة التوراة : أي هي لغة توراتية !!! .

البهنسي مدير الآثار السوري فنَّد هذه المزاعم بقوله: هذه اللغة المكتشفة (لغة إبْلا) تسبق أيَّ لغة أولهجة ورد فيها ذكر التوراة بما يزيد عن ألفي عام فاللاحق هو الذي يأخذ عن السابق وبين التاريخين تاريخ لغة إبلا وتاريخ ظهور التوراة قرون عديدة»[1].

فإبراهيم الخليل وحسب التسلسل الزمني للأحداث لم يرتبط باليهود بأدنى صلة لا من حيث العصر، ولا من حيث المبدأ ولا من حيث اللغة.

قد يكون الأخذ بهذه النظرية الباطلة - نظرية ارتباط إبراهيم باليهود مرده إلى ورود تسمية «أبرام العبراني» في التوراة فيظن القارىء لهذا النص أن العبراني معناه اليهودي، وهذا من الخطأ الفاحش بمكان، وهو إن دل على شيء، فإنما يدل على ضعف في الثقافة التاريخية، وابتعاد من قبل الكثير من الدارسين عن الضوابط العلمية للبحث العلمي والتي من أهمها تحديد التعريف الخاص بكل لفظ لنتمكن بعد ذلك من ضبط المصطلح المرتبط بعصر ما عن نظيره المرتبط بعصر آخر، إذْ من المسلّم به بداهة أن ما يكون عنواناً عاماً في أمة قد يصبح خاصاً في أمة أخرى، أو ربما في زمن آخر بالنسبة لنفس الأمة، وهذا هو وجه الالتباس الذي وقع به القائلون بهذه النظرية سواء تم لهم ذلك سهواً أو عن قصد وسوء نية فالخطأ هو الخطأ ليس له اسم آخر، ولا يؤثر فيه الباعث تصحيحاً.

العبرانيون: هو اصطلاح تعارَفَ عليه الناس في الزمن المعاصر لإبراهيم الخليل وحتى المتقدم عليه أو المتأخر عنه - وكانوا يطلقونه - على القبائل البدوية العابرة لأرض الصحراء من موطن لآخر طلباً للرزق والماء، أو تلك النازحة من البادية إلى مناطق الحضر، وحتى المتحركة بين أرجاء المواطن الحضرية كتلك الهجرات التي حدثت من فلطسين إلى مصر في تلك العهود.

نتيجة الدراسة تفيد أن العبرانيين هم الأقوام المتحركة التي لم يكن لها سمة استقرار ولدى البحث في الوثائق التاريخية المتوفرة نجد أن أقدم ذكر لهذه الكلمة يعود إلى القرنين الرابع عشر، والخامس عشر قبل الميلاد حيث وردت في رسائل تل العمارنة

---

(١) انظر نفس المرجع والفصل والباب والصفحة.

مرات كثيرة بألفاظ متقاربة "كالعبيرو" و"الخبيرو"و "الهبري" يعني العبري - ويقصد بكل ذلك البدو الرُّحل[1].

قال الدكتور أحمد سوسة: «ومما لا شك فيه أنَّ استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كان قبل ذلك بكثير»[2].

وقد دلت التحريات على أن العبيرو تمكَّنوا من احتلال مدينة أريحا قبل عصر موسى بحوالي قرنين من الزمان[3]، وبالبداهة لم يكن الغزاة العبرانيون هؤلاء من مصر لأنّ فلسطين كانت آنذاك محمية مصرية، والإمدادات كانت تصل من مصر إلى فلسطين لرد الغزاة عنها. أيضاً لايجوزُ القول إنَّ هؤلاء الغزاة هم من بني إسرائيل لأنَّ الذرية المنحدرة من يوسف وإخوته كانت لاتزال تعيش في مصر تحت سلطان حكامها في فترة نفوذ قويٍّ لأصحاب السلطة في تلك الأيام، والعبرانيون الذين أوردتهم الوثائق الأثرية بدو رحل زحفوا بقوة السلاح على المحمية المصرية ـ أي: فلسطين ـ وأخذوا ينشرون في كل أرض يطؤونها الخراب والدمار[4]. لنقرأ نصاً عن واحدة من تلك الوثائق، ولندع سرده والتعليق عليه للباحث الكبير المتخصص الدكتور أحمد سوسه الذي يقول:

«عُثِرَ في تل العمارنة بمصر على ست رسائل من أحد ملوك منطقة أورشليم الكنعانية اسمه «عبد ـ خيبا» موجهة إلى ملك مصر أمنوفيس الرابع «أخناتون» (١٣٧٥ـ ١٣٨٥ ق. م) يطلب فيها إرسال نجدة لصد غارات «العبيرو» الذين اجتاحوا

---

(١) انظر المرجع والفصل والفقرة الثامنة هل «العبري» و«العربي» كلمة واحدة بمعنى عربي؟.. ص ٤٧٦ وانظر الفقرة التاسعة ص ٤٧٨.

(٢) انظر نفس المرجع نفسه والفقرة الثامنة ص٤٧٦.

(٣) انظر نفس المرجع والفصل والفقرة الخامسة من هم العبرانيون....؟ مسألة العبري و«العبيرو» ص ٤٦٩

(٤)كانت فلسطين محمية مصرية لأنها عمق مصري فقد كان المصريون ينظرون إليها على أنها المدخل لأي زحف يتهدد بلادهم، والحقيقة أن الهكسوس منها قدموا، وهذه مسألة ستتوسع بها في بحث موسى إن شاء الله تعالى.

بلاده. ولما كانت فلسطين في هذا الدور محمية مصرية فإن «عبد ـ خيبا» يقول في رسالته: «لم يبق في أرض مولاي الملك شيء . . . نهب العبيرو كل البلاد من سيدي الملك . . . . البلاد وقعت في أيدي العبيرو» ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون (العبيرو) االذين ورد ذكرهم في هذه الرسائل هم اليهود»[1].

وبما أن إبراهيم عليه السلام ينتسب إلى القبائل الآرامية وهي إحدى القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية، تحت ظروف قاسية طرأت على تلك الأرض فقد أطلق على تلك القبائل البدوية المرتحلة من أرض إلى أرض القبائل العبرانية، كما أطلق على أبنائها لقب العبرانيين، فالآراميون عبرانيون، وإبراهيم المنتمي إليهم على هذا هو عبراني أيضاً لكن ليس بمعنى أنه يهودي لأن اليهودية لم تكن قد ظهرت بعد.

والملاحظ أن إبراهيم عليه السلام كان عبرانياً أصالة وسلوكاً، أما الأول فلأن آباءه زحفوا من شبه جزيرة العرب إلى شواطئ الفرات في سورية، ومن ثم عبر بعضهم الصحراء الممتدة بين سورية والعراق إلى حران من أرض بابل حيث استقروا فيها.

وأما الثاني فتترجمه لنا مسيرة إبراهيم الطويلة، فالخليل وإن نشأ وترعرع في حران من أرض الرافدين إلا أنه ما لبث أن رحل منها بدينه وأهل بيته ومقتنياته إلى فلسطين مروراً بمدينة ماري، إلى تدمر حيث اخترق صحراءها وهو في طريقه إلى دمشق التي ما لبث أنْ غادرها إلى الأرض المباركة فلسطين، التي استقر فيها مدة من الزمن ليرتحل منها بعد ذلك إلى مصر حيث قضى فيها وقتاً كافياً لجمع ثروة كبيرة من المال حسب الرواية التوراتية عاد بها إلى فلسطين مرة أخرى من طريق صحراء سيناء. وفلسطين وإن كانت أرض مقام الخليل إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا أنَّ مقامه فيها لم يكن على وجه الاستقرار الذي نعرفه من أَهل الحضر، فهو عربي والعادات العربية تسري في عروقه، وفي مقدمتها صفة الانتقال والترحال ثم هناك زوج وولد أودعهما الخليل في ذمة الله في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ من أرض الجزيرة العربية حيث لا ماء ولا طعام إلا ما تركه لهما وهو

---

(١) نفس المرجع والفصل فقرة «مَا كَانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً» (قرآن كريم) ص ٤٧٨.

قليل فكان لا بد من الاطمئنان عليهما بين الفينة والأخرى[1].

هذا كله يعني أن يُهاجر من فلسطين إلى مكة ذهاباً وإياباً، ثم هناك أحداث تلزمه بالسفر، ومن أهمها نصرته لابن أخيه لوط بعد أن اعتدي عليه، وقد كان يقيم في قرى سدوم من أرض البحر الميت اليوم[2].

فإذا كان الانتقال والعبور هو السمة الملازمة للحياة الإبراهيمية فضلاً عن أنه ينتسب إلى قبائل هي نفسها تُعرف بهذا النعت فما وجه الاستغراب فيما لو لقبته التوراة بالعبراني؟ أليس ما جاء في التوراة مسايراً لواقع الحال؟ ففيم العجب؟ وأين مكمن الغلط؟ ولمزيد من الإيضاح والتوثيق فسأسوق بين يديك أخي القارىء نصاً لمستشرق عريق في بلاد الغرب يؤكد لنا ما سقناه من حقائق حول الشخصية الإبراهيمية وسماتها. يقول ثُورير ثوردارسون أُستاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا:

«إن إبراهام كان شبه بدوي «Seminomade» ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه»[3].

فالعبرانية أو العبرانيون لم يكن أكثر من تعريف بحال قبائل بدوية أو شبه بدوية اتخذت من الارتحال مصدر رزق لها. والتعريف كما رأيت لا يخص قبيلة بعينها، ولا جماعة بذاتها، وإنما يندرج تحته كل من اتصف بعدم الاطمئنان في ناحية من الأرض. فمن أين جاء تخصيص العبرانيين باليهود؟ لو سلمنا بهذا جدلاً فإننا سنَنفي الوجود العربي من أصله، لأن سائر القبائل العربية كانت عبرانية بمعنى أنها عبرت الصحراء إلى مواقع مختلفة من الوطن العربي، بل وظل اسم الجزيرة التي انطلقت منها تلك الموجات يعرف إلى اليوم بالجزيرة العربية، وما زالت الأرض التي استقرت فيها تلك القبائل العبرانية عربية إلى اليوم، فكيف يروق لبعض الناس أن يخلط بين دورين مختلفين يفصل بينهما سبعمائة

(١) هذا ما سنتناوله بعون الله تعالى في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ٤٦٠ ـ ٤٦١

(٣) نقلاً عن كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسة الفصل الخامس الباب التاسع ص ٤٧٨ ص ٤٧٩.

سنة؟ فاطلاق اسم العبرانيين على اليهود يجب أن يراعى فيه الفاصل الزمني، والدور الحضاري لكل زمن كي لا تختلط الأمور وتضيع الحقيقة في سراديب المغالطات.

إبراهيم عبراني؟ هذا صحصح لكنه ليس يهودياً.

القبائل الآرامية عبرانية؟ هذا صحيح لكنها أيضاً ليست يهودية.

العموريون عبرانيون؟ هذا صحيح لكن ليسوا يهوداً.

اليهود عبرانيون؟ أيضاً هذا صحيح لأنهم لم يستقروا إلا في وقت متأخر من ظهورهم، وحتى هذا الاستقرار لم يدم.

وخوفاً من أن يتسلل وَهْمٌ إلى كيان أَحد القراء، فيعتقد تحامُلي على اليهود بسيب العداء القديم الجديد معهم، فإنني سأُشْفِعُ ماقُلْتُهُ بشهادة من مفكر يهودي معتمد لديهم، هو الدكتور إسرائيل ولفنسون، ونستمع لرأيه من خلال نص يبحث في ذلك للأُستاذ الكبير الدكتور أحمد شلبي الذي قال بعد أن ساق رأيين في تسمية اليهود بالعبرانيين: «ولكن الدكتور ولفنسون لا يرضى بهذا الرأي، ولا بالرأي الذي قبله، ويرى أن كلمة عبري لا ترجع إلى حادثة بعينها[1] أو شخص بعينه[2]، وإنما ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة عبري في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي عبر بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو الوادي أو النهر من عِبْرِه إلى عِبره، أو عبر السبيل أي: شقها، وكل هذه المعاني موجودة في هذا الفعل سواء في العربية أو العبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل الذي هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء أو البادية. وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بني إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض

---

(١) يريد عبور نهر الفرات أو نهر الأردن، وهو مايراه بعض الباحثين!.

(٢) نسبة إلى إبراهيم حيث يذهب البعض إلى أنه سُمِّيَ عبرياً لأنه عَبَرَ النهر فانتسب اليهود إليه!

كنعان وعرفوا المدنية والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة عبري التي تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببني إسرائيل فقط»[1].

ويعلق فرويد على مسألة «العبيرو» مبدياً فيها استغرابَهُ للخلط الذي تعمده غيره، فيقول: « ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام ١٨٨٧ من سجلات مدينة العمارنة المتهدمة فهي تُسمِّيهم باسم «عابيرو» وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد لسنا ندري كيف على الغزاة الجدد اليهود: العبرانيين الذين ما كان في مستطاع رسائل العمارنة أن تذكرهم لأنهم قدموا في زمن لاحق[2].

والذي يؤكد التشويه المتعمد من قبل الدوائر اليهودية المسيطرة بواقع الحال على معظم المصادر الأجنبية ، أن ما أثبته جورج بوست في مصنفه «قاموس الكتاب المقدس» من اعتراف صريح بأن لفظ أبرام العبراني" لم يقصد به الإسرائيلي، وإنما يمكن تأويله بأبرام السائح أو المهاجر، هذا الاعتراف حذف من الطبعة الجديدة بدءاً من العام ١٩٧١، بل وأكثر من ذلك فقد حذفت جميع الدراسات التي قام بها العلامة جورج بوست ليوضع مكانها خلافاً لما جاء في مقدمته ما يؤكد ربط اليهود بعصر إبراهيم الخليل عن تعمد وقصد لا عن حقيقة وعلم[3] ولذا فإنهم يلقون بشباك لفظة عبرانيين أو عبريين ليصطادوا بها هذا الربط المزعوم فيخصوا بها اليهود دون غيرهم كي يظهروا للعالم أنهم كانوا موجودين في كل الأدوار التاريخية سواء منها دور إبراهيم الخليل أو ما قبله إلى عهد سام بن نوح الجد الأكبر لإبراهيم فهل هناك افتئات على الله والحقيقة والبشرية أكثر من هذا؟

وبالبداهة نقول:

لو لم تكن لفظة «عبري» أو عبراني، مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية، ولو

---

(١) كتاب «اليهودية» د. أحمد شلبي، باب تحركات العبريين ص ٤٦، نقلاً عن د. إسرائيل ولفنسون.

(٢) العرب واليهود في التاريخ د. أحمد سوسه الفصل الخامس ص ٤٧٠، نقلاً عن كتاب «موسى والتوحيد» لفرويد الترجمة العربية ص ٤٧.

(٣) الفصل الخامس الفقرة التاسعة ص ٤٧٨.

لم يكن لفظ «إبراهيم العبراني» يعني الرجل المهاجر. ولو لم يعلم اليهود أن هذه المصطلحات لا تمت إلى اليهودية بصلة. لو لم يكن هذا كله موضع يقين وتسليم من قبل اليهود أنفسهم لما كان لحملة التعمية التي قادوها على كل المستويات لربط أنفسهم بإبراهيم الخليل أي معنى.

هذا الكلام ليس من بَنَات أفكاري، وإنما هو موضع اعتراف الكثير من الباحثين المتخصصين، ولكنهم - و يا للأسى - يدورون في فلك سادتهم اليهود الذين استطاعوا إيقاع مجتمعاتهم في سجن نفوذهم، وكان للطبقة المثقفة من ذلك النصيب الأكبر، لاسيما وأن اليهود يملكون إمبراطوريات إعلامية ضخمة تغسلُ أدمغة المجتمعات منذ أن ترى عين أبنائها النور إلى أن يلحدوا في القبور، فماذا نقول إذا كانوا يضمون إلى ذلك إمبراطوريات أخرى اقتصادية وسياسية. فعلى سبيل المثال يعترف «درايفر» أُستاذ اللغة العبرية في اكسفورد في مقالة في دائرة المعارف البريطانية حول أصل كلمة «عبري» بأن هذه الكلمة أي: «عبري» - عبريت - أو عبراني بالآرامية من صياغة الحاخامات ابتدعوها في وقت لاحق، ولكنه في الوقت ذاته يبتعد عن اللغة الكنعانية وعن لفظة «العبيرو» التي كانت مشهورة قبل ظهور اليهود، والتي كانت تطلق على البدو الرحل من قبائل العرب[1] و يتناسى أن التوراة نفسها عندما تتحدث عن لغة الموسويين لاتقول أبداً لغة العبرانيين بل تعيدها إلى لغة البلاد الأصليين ذلك أن قوم موسى اكتسبوا لغتهم من سكان فلسطين، كما اكتسبوها من قبل من سكان مصر، لذلك نقرأ في التوراة «شفة كنعان» أي لسان كنعان فاللغة عندهم هي بلسان من قدم إلى تلك الأرض بأكثر من ألفي سنة فأين كانت العبرية؟ وأين كان العبرانيون؟

ويأتي رابين معاون أستاذ اللغة العبرية في الجامعة العبرية في القدس فيؤكد في مقال له عن الآداب العبرية نشر أيضاً في دائرة المعارف البريطانية لعام ١٩٦٥ جـ ١١ ص ٢٨٤ أن أهل كنعان الذين وجدوا في فلسطين قبل نزوح اليهود إليها كانوا يتكلمون بلغة قديمة

---

(١) انظر نفس المرجع والفصل الباب السادس "العبري أو العبراني هو غير اليهودي في عرف التوراة" ص ٤٧١ وص ٤٧٢

«شبه عبرية» وأن قِطَعَ المزامير التي اكتشفت في تل العمارنة تشكل دليلاً على وجود الأدب العبري «اليهودي» الذي كان مزدهراً في كنعان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد[1].

ومع أن «رابين» هذا يعترف بوجود لغة كنعانية قديمة كان يتكلم بها أهل كنعان قبل دخول اليهود إلى تلك الأرض فإنه يلجأ إلى نفس طريقة «درايفر» في تلاعبه بالألفاظ، ودورانه مائة وثمانين درجة على الحق الذي آمن به ولكن لايريده أن يبرز على صورته التي خلقه الله عليها للناس فيموه أقواله بدعوى إقصاء الكنعانية عن مسرح الأحداث و إطلاق اسم اللغة القديمة الشبيهة بالعبرانية عليها!

غريب والله كلام هؤلاء الباحثين:

من الذي يأخذ عن الآخر؟ السابق هو الذي يأخذ عن اللاحق أم العكس؟

الكنعانيون الذين استوطنوا الأرض بأكثر من ألفي سنة من قدوم قوم موسى نسمي لغتهم الأصلية اللغة الشبيهة بالعبرية، وقوم موسى الذين اضطرتهم الظروف للهرب من بطش فرعون والنزول إلى أرض كنعان بعد مصر وسيناء وتأثرهم بشفة كنعان تجعلُ لهجتهم المقتبسة هي الأصل والمحور الذي تدور حوله الأحداث!.

«درايفر» و «رابين» وغيرهما من الباحثين يعترفون بوجود لغة كنعانية قديمة متأصلة في تلك الأرض قبل طروء اليهود عليها، والتوراة تسمي تلك اللغة «بشفة كنعان» فكيف يسمونها بالعبرانية ـ بمعنى اليهودية ـ ولم يكن ثمة يهود البتة في تلك الأيام، وحتى يعقوب وأولاده ـ وهم عرب كما بينا ـ لم يبق منهم فردٌ واحدٌ في فلسطين بنص التوراة وإنما هاجروا جميعاً إلى مصر ولم يخرجوا منها إلا بعد ما يقارب من ستمائة عام وكانت لغتهم المصرية!.

أفلا يرجع من يكتب هذا الكلام إلى الحق، على الأقل احتراماً لأمانة البحث وموضوعيته، واحتراماً لنفسه كي لا تسفهها كتاباتُ الناقدين، ودراسات بحاثة الأجيال القادمين.

---

(١) انظر نفس المرجع والفصل والباب ص ٤٧٣

والصحيح هو قولنا: العبرية لغة شبه كنعانية. أو نقول: العبرية لهجةٌ كنعانيـة. لنستمع إلى جانب الحقيقة الناصع وهو يجليه لنا الأستاذ الكبير الدكتور أحمد سوسه: «ويلاحظ هنا أن درايفر مع أنه يعترف بأنَّ كلمة عبريْ صاغها حاخامو فلسطين في وقتٍ لاحق واعتبروها هي وكلمة يهودي بمعنى واحد، يحاول بتلاعبه بالألفاظ واللف والدوران أن يخفي وجود الكلمة الكنعانية (العبيرو) من مسرح الأحداث وعندما يذكرها يضمها بين قوسين وكأنه يريد بذلك الانتقاص من دور الأساس في تكوين الثقافة الفلسطينية في تلك الفترة السحيقة من تاريخ فلسطين.

ولكن مهما أراد أن يطوي صفحة الكنعانية من أحداث هذه الفترة فلا يمكن أن تكون اللغة التي يطلق عليها اسم (اللغة الشبيهة بالعبرية) تارةً واسم (اللغة السامية الغربية) تارةً أخرى غير الكنعانية (اللغة الأم) لأنها كانت متداولة في كنعان قبل مجيء (اليهود) إليها، وقد أخذ بها هؤلاء اليهود بعد دخولهم إلى أرض كنعان.

وقد وردت في التوراة ما يؤكد تسمية هذه اللغة التي كانت متداولة في كنعان قبل نزوح اليهود إليهم بـ «شفةِ كنعان» وَ (لغة كنعان) (أشعيه ١٨ ـ ١٩).

وكان خبيرُ اللغات (دايرنجر) أول من رد على بيانات درايفر ورابين وغيرهم من الباحثين الذين حاورهما بعبارة رقيقة. قال: «إنه من المستحسن أن تسمى هذه الكتابات بالكتابة الكنعانية القديمة»[(١)].

الحق وإن ضعفَ صوتُه فهو أبلج، والباطل وإنْ ساد حيناً من الدهر فقد تلجلج، وجماعة اليهود التي تتخذ من الباطل صديق صبا وشبابٍ وشيخوخة؛ تجيد المناورة على جميع الصعد، وفي كل اتجاهٍ، والأمانة العلمية هي أولى الأهداف التي ترميها بسهامها، أما الأكاذيب التاريخية فهي الركيزة الأساسية التي تنشد بها تحقيق مطالبها.

اليهود أكثر من يعرف المعنى الذي اصطلحت عليه شعوب تلك الأزمنة يوم لم يكن لليهود فيه أيُّ وجود لا من حيث التسمية، ولا من حيث المسمى.

---

(١) نفس المرجع والفصل والباب ـ ص٤٧٢.

اليهود يعلمون علم اليقين أن العبرانيين، هم أصحاب الصحراء، فهذا هو عين ما ورد في المدونات المصرية وقد قرؤوه، وفي النصوص الفرعونية وقد علموه، وهو ما أثبتته المدونات المسمارية ولم يجهلوه.

كما ورد ذكرهم في سائر الكتابات القديمة في نصوص «بابل» و «نوزي» و«ماري» و«أوغاريت»، وكل هذه المدن الحضارية أتت على ذكر «الأبري» و«الهبيري» و«الخبيرو» و«العبيرو» و«الأبيرو» وجميع هذه الألفاظ وردت بمعنىً واحد[1].

إن تقاطع الوثائق التاريخية على هذا القاسم المشترك يعود إلى أصل الحضارات التي قامت في أرجاء الوطن العربي، وإلى الدور الذي لعبته قبائل «العبيرو» بعد قيام تلك الحضارات.

فأما أصل تلك الحضارات فهو الجزيرة العربية حين نزحت من أعماق الصحراء قبائل بدوية طلباً لأرضٍ جديدة تتوفر فيها مقومات الحياة، فكان أن توغل بعضها في الهلال الخصيب واكتفى آخرون بالإقامة على ضفاف نهري دجلة والفرات، وسار آخرون إلى الداخل الفلسطيني، واختار غيرهم سواحل بلاد الشام.

هذه الموجات المتتابعة من قبائل «العبيرو» كان لها أبلغ الأثر في إقامة حضارات الشرق في تلك الأيام الخوالي.

هذا من جهة الأصل، أما من جهة المنعطفات الخطيرة التي قادت إليها قبائل «الخبيرو» تلك الحضارات فسأكتفي بمثالٍ على ذلك من واقع إحداها وهي قبائل الهكسوس[2] يوم زحفت من قلب الجزيرة العربية على شكل إعصارٍ هادرٍ يقتلع كلَّ مايقف في طريقه، وكانت النتيجة أن سقطت الأُسرة الثالثة الفرعونية التي تراجعت

---

(١) انظر نفس المرجع والفصل والخامس: من هم العبرانيون؟ مسألة «العبري» و«العبيرو» ـ ص٤٦٨ وص٤٦٩.

(٢) يعرفون بالرعاة العماليق: كتاب «اليهودية» د. أحمد شلبي باب «الهكسوس والعبرانيون بمصر» ص٥١.

القهقرى لتتخذ من الأُقْصُرْ عاصمة لها، بينما اتخذ الهكسوس من عاصمة الفراعنة عاصمةً لهم، مما أحدث خللاً في التوازنات السياسية والاقتصادية أدى إلى إشعال حروب حصدت البشر وثرواتهم أزمنة طويلة.

من هنا يتجلى لنا اهتمام الأقوام القديمة بالعبيرو (أهل الصحراء)، فهم لم يكونوا أبداً على هامش الأحداث، وفي رسائل تل العمارنة، وزحف الهكسوس على مصر ما يفصح بجلاء عن هذا المعنى، فليس ما يدعو للدهشة من تدوين أسمائهم وحوادثهم في وثائق تلك الأمم.

ومن هنا ندرك كم نظلم الحقيقة العلمية، وكم نظلم تاريخ الأمة، وكم نضع رؤوسنا في التراب كالنعام ونحن نطلق مصطلح العبرانيين بمعنى اليهود على إبراهيم وقبيلته الآرامية وسائر القبائل العربية، وكأننا بفعلتنا اللامسؤولة هذه نستأصل الوجود العربي كله من أرض الحدث، لنوّطن بدلاً عنه الوجود اليهودي! تماماً كما فعل اليهود في أرض الاسراء والمعراج فلسطين حين استأصلوا الوجود العربي الإسلامي بصورة شبه تامة واستقدموا بديلاً عنه شذاذ الآفاق من يهود العالم!.

فهل نستنكر عليهم فعلتهم القبيحة في الوقت الذي نمارس نظيرها على المستوى التاريخي؟ وإلا كيف نرضى أن ننسب لغة سكان فلسطين الأصليين - الكنعانيين - إلى اليهود وهم الذين دخلوها بعد ألفي عام؟! والله إن هذا لهو الافتئات بعينه.

والشيء المنطقي الذي يتضح لنا وضوح القمر ليلة البدر، ويظهر للعيان ظهور الشمس في رابعة النهار أنَّ قوم موسى وبعد دخولهم أرض كنعان واحتكاكهم بأهلها المتحضرين اقتبسوا منهم اللغة الكنعانية التي كانت سائدة هناك منذ قرون طويلة فأخذت اللهجة الكنعانية بالظهور على لسانهم وتطورت مع الزمن حتى استقلت بما يعرف باللغة العبرانية، وهذا شيء طبيعي فاللاحق هو الذي يستقي من السابق ويتأثر به ويأخذ عنه وهذا من المسلمات العقلية عند أهل النظر، أما العكس فهو مرفوض مرفوض مرفوضٌ لا يقول به أحدٌ حتى لو كان ذكاؤه في حدوده الدُّنيا.

ومن المفارقات التي تواجهنا ونحن نبحث في هذه المسألة أن الذين يدعون ارتباطهم بإبراهيم استناداً إلى مقولة التوراة في وصف الخليل لـ «أبرام العبراني» يعرضون عن التوراة نفسها وهي تتحدث عن العبرانيين بصفتهم غرباء عن اليهود! جاء في سفر الخروج أن الإسرائيلي - بمعنى اليهودي - إذا اشترى عبداً عبرانياً فستَّ سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً»[1].

ثم يقول سفرُ اللاويين: «لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لايباعون بيع العبيد»[2].

أي: إن العبيد يجب أن يكونوا من غيرهم، ومن وقع في العبودية فالواجب فكاكه كما نص عليه ذات السِّفر[2].

هذه النصوص صريحةٌ في أن العبراني هو غير اليهودي في عرف التوراة نفسها[3].

المفارقة الأكثر إثارة أن اليهود غير متفقين على مضمون العبرانية القديمة - بمعنى اليهودية - فالسامريون يسمون لغتهم السامرية القديمة باللغة العبرانية القديمة تميزاً لها عن اللغة الإسرائيلية (اليهودية) ويرون أنها الحقيقية، ويستشهدون لمقولتهم بوعاءٍ من النحاس قديم كتبت عليه الأسفار الخمسة الخاصة بتوراتهم باللغة السامرية والتي يصرون بأنها اللغة التي أنزلت بها شريعة موسى عليه السلام، لذلك فهم يؤدون بها صلواتهم، ويسجلون توراتهم، ويقرؤونها إلى اليوم.

وتخالف الفرق اليهودية الأخرى هذا الاتجاه مؤكدة أن لغتها هي وحدها العبرانية القديمة! فأين هي الحقيقة[3]؟.

إذا تتبعنا دخول قوم موسى على فلسطين وبداوتهم، وعدم استقرارهم،

---

(١) سفر الخروج ٢/٢١.

(٢) سفر اللاويين٢٥/ ٤٢.

(٣) تفصيل ذلك في كتاب «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسة الفصل الخامس الفقرة السادسة - ص٤٧١.

وتبعيتهم لأبناء كنعان سكان البلاد الأصليين أيقنا أن كلا اللغتين السامرية والعبرانية ليست أصلية بمعنى أنها ليست أُمّاً للغات الجزيرة العربية كما يزعمون، وأنها ليست أكثر من لهجةٍ كنعانية مطورة.

هذه الساحة الفكرية الواسعة اختزلها لنا القرآن الكريم في آيتين اثنتين: الأولى منهما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والثانية قوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

الآية الأُولى تقف مع الباحثين الموضوعيين، والدَّارسين في التنقيبات الأثرية، والمحققين من أهل العلم والمعرفة في صف واحد تحذر من هذا الربط الخطير بين اليهود وإبراهيم عليه السلام، ومن هذا الخلط العجيب بين دورين متباعدين ومختلفين تماماً، دور إبراهيم عليه السلام، ودور اليهود المتأخر عنه بزمنٍ طويل.

والآية الأخرى ترد من يجادل في هذه المسألة إلى الجهل. لماذا؟

لأن من الكذب أن ننسب إبراهيم إلى اليهودية وهي متأخرة عنه بمئاتِ السنين.

ولأن من الخبث والحمق أن نربط بين إبراهيم والتوراة وهو سابق لوجودها بسبعمائة عام. فهل هذا إلا ضربٌ من ضروب الوهم؟ و وجه من وجوه التزييف؟

إننا إذا تصفحنا القرآن الكريم من أوّله إلى منتهاه في أبحاثه التي كثيراً ما تناولت بني إسرائيل فسنجد تركيزاً على هذا المعنى وإلى جانبه معنىً آخر لا يقل عنه أهمية، ولابد لنا من أن نشير إليه - وهو أن البيان القرآني مع كثرة المواضع التي تعرض فيها لليهود، ومع تنوع الخطاب والأسلوب في النداء لهؤلاء القوم فإنه لم يستعمل أبداً لفظتي «عبري» أو «عبراني» رغم انتشار اليهود بكثرةٍ في الجزيرة، ورغم حضورهم الواسع، وعلى الخصوص في المدينة المنورة مهبط الوحي الإلهي.

ولو كان اليهود معروفين بأحدِ هذين الاسمين لأورده القرآن الكريم ولو مرةً

واحدةً على الأقل، وهذا أثبت دليل على صحة ما تقدم من الانفكاك الكامل بين الاسم والمسمى، بين العبراني واليهودي[1].

ناداهم بقوم موسى، وخاطبهم بني إسرائيل، وتحدث عنهم على أنهم يهودُ، أو الذين هادُوا، وفي تنوع الأسماء في كتاب الله عن هذه الطائفة بالذات مَعَ خُلُوِّها عن اسم «عبريْ» أو «عبراني» ما يُؤكد من جديد أن أحداً من أبناء الجزيرة العربية لايعرفهم بهذا الإسم.

وكما خلت الوثيقة القرآنية عن أيِّ تسميةٍ لليهود بالعبرانيين، كذلك خلت المدونات الآشورية التي سبقت بزوغ فجر الإسلام بألفٍ ومائتي عام عن أي تسمية لليهود بالعبرانيين، بل إنها وافقت القرآن الكريم في تسميتهم باليهود دون أي لقب آخر، وفيما دَوَّنَهُ سنجاريب الآشوري (٧٨١-٧٠٥ ق.م) عن تفاصيل حملته على مملكة يهوذا، وتسميته لِحزقِيّاْ ملك يهوذا بـ «حزقيا اليهودي» خيرُ شاهدٍ على صِحَّة ما نقول[2]، ولَوْ كانت كلمةُ «عبري» أو «عبراني» علماً عليهم يُعرفون به لاختارها «سنجاريب» دون سواها.

هذا بالنسبة للزمن المتقدم على الإسلام بأكثر من ألفِ عام، وللزمن المعاصر للإسلام أيضاً، فما هو قولنا في الزمنِ المتأخر عنه؟

نستعرض الكتابات، ونستقرأ أقوال أشهر المؤرخين العرب على الأقل فلا نجدُ واحداً منهم يُعرج على تسمية اليهود بالعبريين أو العبرانيين.

كل هذا يُعَري الشعارات اليهودية، ويسحب منها المستند الشرعي المزعوم، ويثبت أن إبراهيم الذي يتحدث عنه القرآن هو غير إبراهيم الذي تنادي به التوراة، وتتخذه ذريعة لطمس الحقائق، وإفساد البلاد والعباد، وما مجريات الأحداث اليوم في

---

(١) نفس المرجع والفصل الفقرة السابعة، «عدم ورود مصطلح «عبري» و «عبراني» في القرآن الكريم مطلقاً ص٤٧٥.

(٢) نفس المرجع والفصل الفقرة السابعة، «عدم ورود مصطلح «عبري» و «عبراني» في القرآن الكريم مطلقاً ص٤٧٥.

فلسطين إلا حنظل من ذاك الزرع الخبيث .



ومن المواضيع التي تعرضت لها التوراة في حق إبراهيم عليه السلام حادثة وفاة الخليل عليه السلام، حين ذكرت أنه انتقل إلى الرفيق الأعلى في «حبرون» ودفن فيها بيد ولديه إسحاق وإسماعيل، وفي نفس المقبرة التي دفنت فيها سارة مقبرةِ المكفيلة[1] .

ومن عجيب قصص التوراة أنها تورد ذكر اسم إسماعيل في عملية الدفن مع أنها تعمدت في مناسباتٍ شتى إقصاءه عن مسرح الأحداث، بل وحرمانه من ميراث والده كما سيأتي معنا في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى .



إنَّ من الآثار الخطيرة والمخيفة على خلفية ربط اليهود بإبراهيم الخليل، ربط التوراة بفلسطين ـ وهي لم تنزل فيها ـ وهو مايفاجئنا به يهود اليوم حين يُصرون أن فلسطين هي موضعُ تمليكِ الربِّ لإبراهيم ولذريته من أَبناء إسحاق حصراً[2]، ومايتفرَّعُ عن ذلك من اغتصابهم للمسجد الأقصى، وللحرم الإبراهيمي الشريف. أَما المسجدُ الأقصى فإن الحديث عنهُ يحتاج مني إلى بحث مستقل، وسأفعلُ بعونه تعالى، لكن ليس في هذا الكتاب، وأَمَّا الحرم الإبراهيمي الشريف فإنَّ اليهود يعتقدون أنَّه أُقيم في موقع مغارة المكفيله حيث دُفنَ إبراهيم، ومن قَبله زوجه سارة، وقد اتخذ اليهود من النّصِّ التوراتي ذريعةً للاعتداء عليه، حيث قامت (ميليشاتهم) الإرهابية باقتحامه

---

(١) انظر كتاب «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» للباحث محمد دروزة فيما نقله عن الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين ص٥١ من الكتاب .

(٢) هذا ماسأرد عليه لاحقاً في الفصل الثالث من الكتاب إنْ شاء الله تعالى .

عُنوة، وضمه إلى المواقع اليهودية المقدسة في فلسطين! وبذلك تَمَّ تقسيمُ المسجد إلى منطقتين: إحداهما إسلامية وهي التي يؤدي فيها المسلمون الصلوات الخمس، والأُخرى - حسب زعمهم - يهودية يؤدي فيها اليهود طقوس العبادة لإله البراكين والدمار إله الشعب المختار «يهوه»!!!.

أليس هذا النص دعوى لم تثبت؟ ثُم أليس الاعتداء والتقسيم هو عدوان على المقدَّسات الدينية حيث مازال الشهداء يسقطون في سبيل الدفاع عن عرْض الشريعة المطهرة.

هذا ما أوصل إليه ربط اليهود بإبراهيم، لكنني أرد عليه بأن اليهود لا علاقة لهم بإبراهيم كما سياتي مفصلاً، فالعرب أبناء إبراهيم، وهم أتباع شريعته الحنفية، وبالتالي، فالمسلمون هم الورَّاث الشرعيون له، فإسماعيل ولده، ومحمد ﷺ ولد إسماعيل عليه السلام وقد جاء بحلة أبيه إبراهيم عليه السلام، وصدق الله إذ قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

## المبحث الثاني:

يتم فيه تسليط الضوء على قصة سارة وما جرى معها من أحداثٍ مع الملك الجبار، وموقف إبراهيم من ذلك كُلِّه.

تروي لنا التوراة في الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين أنَّ إبراهيم ارتحل إلى الجنوب بعد أن اشتد به الجوع، فهبط إلى مصر برفقة زوجه ساراي التي أوْصاها بأن تقول إنها أخته حتى لايقتله المصريون رغبةً في اغتصابها منه فيما لو قال إنها زوجته[1].

وقد كانت ساراي في منتهى الجمال، ومِن عادة فرعون الحيلة على الزوج لإكراهه على الطلاق من زوجته إذا أُخبر عن امرأة بأنها جميلة، أما إن لم تكن متزوجة فإنه يطلبها من ولي أمرها دون تعريضه لأي أذى، ومن ذا الذي يجرؤ على معارضة ما يهواه فرعون؟

ذكر لفرعون أن امرأة جميلةً اسمها ساراي قد دخلت البلاد، وأهال المادحون حول شخصها عبارات الثناء فأمر بنقلها إلى بيته بعد أن سألوا إبراهيم عنها فقال: إنها أختي. تقول التوراة: إنَّ إبراهيم تركها تذهب إلى بيت فرعون وأخذ أُجْرَةً على ذلك من البقر والغنم والعبيد والإماء والأُتُن والجمال التي قُدمت له. وفي القصر قامت الجواري بتهيئتها وتزيينها استعداداً لدخول فرعون عليها.

ويقول الاصحاح المذكور:

إن الرب ضرب فرعون وأهله ضربات عظيمةً بسبب خلوته مع ساراي حتى علم أنه ممنوع عنها، فاستدعى إبراهيم وقال له: لمَ لَمْ تخبرني إنها امرأتك، ولم

---

(١) انظر كتاب «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم»، للباحث محمد دروزه فيما نقله عن الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين ص٣٧ من الكتاب، وانظر كتاب «اليهودية» د. أحمد شلبي باب «إبراهيم» ص١٥٨.

قلت لي إنها أختك مما دعاني إلى أخذها لتكون لي امرأةً؟

ثم قال له: والآن ها هي امرأتك خذها وامضِ، وأمر بتشييعه وامرأته وكل ماله[1]. فالعباراة التوراتية تفيد أن فرعون اتخذ من ساراي امرأة له في هذه الفترة وأنه عاد على إبراهيم من ذلك ثروةٌ عظيمة، وهو ما سنناقشه بالتفصيل بعد قليل.

ويعود سفر التكوين إلى ساراي وافتتان الملوك بها لكنه هذه المرة يتناوله في الاصحاح العشرين منه، مع «أبيمالك» ملك جَرَار.

يذكر الاصحاح أن الملك طلبها بعد أن صرح إبراهيم بأنها أخته، فباتت عند الملك، وفي الليل نزل عليه مَلَكٌ من السماء فأنذره بالهلاك، وأخبره بنبوة إبراهيم، وأَمره برد سارة إليه، وأسرع «أبيمالك» في طلب إبراهيم منذ البكور، وعاتبه على قوله: إنها أختي، فقال له إبراهيم: إني خشيت أن أقتل بسبب امرأتي فردها الملك إليه، وأعطاه زيادة على ذلك بقراً وغنماً وعبيداً وإماءً، وخَصّ سارة بألفٍ من الفضة، وفوق ما ذكر قال له: هذه بلادي بين يديك فأقم حيث طاب لك[2].

وهكذا، وحسب التوراة فقد عاد على إبراهيم بسبب امرأته أموالٌ عظيمة في حادثتين منفصلتين! هذه هي ملاحظتنا الأولى على قصة سارة مع ملوك زمانها حسب الروايات التوراتية.

الملاحظة الثانية أترك الحديث عنها للباحث الإسلامي محمد عزة دَرْوَزَه حيث يقول: «ومن غرائب القصة ما تنطوي عليه من معنى احتفاظ سارة بجمالها الذي أغرى الملك مع أنها قد بلغت التسعين من عمرها على ما ذكر في اصحاح سابق! وفي هذا ما هو ظاهرٌ من الخلط»[2].

أما الملاحظة الثالثة فهي الأكثر أهمية وفيها أُسجل ما يلي:

إبراهيم أبو الأنبياء، وقبلة الشعوب قاطبةً في الأسوة والاقتداء، ومحطُّ احترامهم

---

(١) كتاب «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» فيما نقله عن الاصحاح المذكور ص٣٧.

(٢) نفس المرجع فيما نقله الباحث دروزه عن الاصحاح العشرين من سفر التكوين ص٤٩ وص٥٠.

وإجلالهم يَصْدُرَ منه هذا الفعل الشائن فيتخذ من حُسن امرأته مصدراً يرتزق منه، ومن إرسالها إلى بيت الملك وهو راضٍ عن ذلك سبباً في تحصيل ثروةٍ عظيمة!

أيعقل أن يحدث هذا؟

كيف ستقتدي به الأجيال القادمة إذا كان انتهازياً إلى هذا الحد؟

أم هل يجوز أن يُقتدى برجلٍ هذا فعله؟

إنَّ التوراة بعد أن صاغتها أيدي الحاخامات حوَّلت قصص الأنبياء إلى خادم أمين للمصالح اليهودية، فانطبق عليهم قول أحد الفلاسفة: «الدِّينُ وجد ليكون خادماً لنا ولسنا خداماً للدين»، أي نحن أسيادٌ على الدين نبدل فيه كيف نشاء!، وليس الدين سيداً علينا يسوسنا بأوامره!، وهو نقيض ما عليه المنظور الإسلامي من ارتباط المسلم الوثيق بربه، وتسليمه لتعليماته، وتسخيره جميع امكاناته خدمةً للدين في سبيل نصرته وتبليغه.

صانعوا التوراة دَوَّنوا في توراتهم مشروع الأسطورة الكبرى، معتمدين أساليب شيطانية كفيلةً ببعث الروح في تلك الأسطورة، وتحويلها إلى تركيبة ممتزجة بفكر الأجيال اليهودية ووجدانها، حتى ارتبطت جماهيرهم على مرِّ العصور بتوجيه تربوي مخيف لا مزاودة عليه، يأخذ فيه اللاحق بنهج السابق، ويصبح نسخةً عنه، وتطوراً لهُ ضمن نفس القالب.

أرسوا مجموعةً من القواعد التطبيقية المظلمه بين أبنائهم. لكن اتقاء منهم لسهام الناقدين فقد أسدلوا ثوب الدين على تلك الأفكار السوداء، وكان جلُّ اعتمادهم على قصص الأنبياء الذين يقيمون في قلوب معظم الناس على عرشٍ بارز، فنسجوا حول تلك الشخصيات من الحكايات السوقية ما لا يصلح أن يتداوله العامة في حوانيتهم، فكيف إذا تلاه الناس على أنه من كلام ربهم.

وفي قصة إبراهيم نصيب من ذاك الغثاء في المصادر اليهودية.

إبراهيم الخليل عندهم رجل تشده الدنيا، تأسره برونقها، فلا يقدر على التفلت

منها! وهو مستعد في سبيل زخرفها الفاني للتضحية بأغلى ما يملكه امرؤ شريف لقاء تحصيل فتاتٍ من عَرَضِها قليل!

أمَّا إبراهيم في القرآن الكريم فهو رجل عاقل ذو مبدأ لا يألو جهداً في تبليغه، وعقيدة يبذل ما بوسعه لإيصالها إلى عقول الناس، حتى إذا مااستنفدَ جميع وسائل الإقناع[1] عَرَّضَ مكاسبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لخطر الزوال في سبيلها، فهو رمز للبطولة والتضحية والإباء، قدوة لمن يبتلى في سبيل توحيد الله عز وجل.

وإبراهيم في القرآن الكريم واثق الخطوة لا يهتز في لحظات حاسمة حكم الجميع فيها بزواله من الوجود، ولا يضعف حتى وهو في طريقه إلى النيران.

وإبراهيم في المنظور الإسلامي رجل يبتلى في عرضه بعد أن ابتلي في عقيدته! وأين؟ في بلاد الغربة حيث نفاه الأهل والعشيرة، فاجتمع لديه في وقت واحد ابتلاء

---

(١) ابتكر إبراهيم أساليب عدة في تعريف قومه بالحق، واستدراجهم إليه. أعلن في بداية الطريق: أنه بصدد البحث عن الإله الخالق الذي يستحق الولاء والعبودية، والذي يسلِّم العقل بقدرته المطلقة على الخلق والتأثير، فاختار لهم على سبيل التمثيل والتبكيت الكواكب: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾. لكنه يرد الاختيار بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾، ثم يقع اختياره على القمر: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ثم يسقطه من حسابه ويختار الشمس: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ويبدو أنهم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر لذلك صرح بإيمانه الصحيح بعد أن ردها بالترتيب قائلاً: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]. كما رصد لنا البيان القرآني محاجة جريئة بين إبراهيم والنمروذ ملك العراق في آية البقرة: ٢٥٨ حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستحق إبراهيم بذلك ما وصفه به البيان الإلهي من الحجة القاطعة والبرهان الملزم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الأنعام: ٨٣.

الدين، وابتلاء العرض، وابتلاء الاغتراب.

فماذا هو صانع؟ لقد جمع بين اليقين الراسخ بالله عز وجل، والحيلة كوسيلة للخلاص من مأزقٍ خطير لم يُعِدَّ له عدته.

دخل أرض مصر، ويبدو أنه علم متأخراً أنَّ ملكها يضم إلى نساء قصره كل امرأة تحدثه حاشيته عن بهاء طلعتها، فاحتاط للأمر، وقال لها: إذا رآك المصريون، وعلموا أنك زوجتي قتلوني وأخذوك، فإن سئلت فقولي: إنك أختي، أي طلباً للنجاة، فالقوم كانوا يتخلصون من الزوج إذا أعجبوا بزوجه لأنهم يعلمون أن الزوج لا يتنازل عن قرينته، أما إن علموا غيرَ ذلك فقد كانوا يخطبونها من وليها! إذاً: المرأة منشودةٌ عندهم في كلا الوضعين، غير أن الآخر منهما فيه نجاة ومتسعٌ لحيلة.

هيَّأت الحيْلة لإبراهيم مساحةً من الزمن والحركة ينظر فيها ماذا يعمل، فلم يجد أمام هذا الخطب الجلل إلا أن يقوم بين يدي مولاه يسأله نافذة خلاص بعد أن أوصدت السبل في وجهه. قام يصلي ويبتهل مظهراً عجزه عن العمل، ويقينه بالله الذي لا يشك أنه سيحفظه من وصمة العار كما نجاه من قبل من سعير النار، كما يعلم أنه نبي مرسل، ودعاءُ الأنبياء لا يرد، وأنه وقع في مظلمه، ودعاءُ المظلوم ليس بينه وبين الله حجاب، وأن جبار مصرَ يقصد الاعتداء على عرض مصان، ولن يترك جبارُ السماء طاغية الأرض ولو أمهله حتى حين. دعا إبراهيم وداوم على الدعاء دون كَلَلٍ أو مَلَل، من غير أن يتسلل إلى قلبه سوء ظن بربه، وظلَّ ملازماً على ذلك حتى تخلصت سارةُ العفيفة من قبضة الجبار الديوث، فما إنْ خرجت من قصره حتى غمرت الفرحة قلب زوجها الذي كان يناجي ربه في انتظار خلاصها، والذي ناداها بقوله: مَهْيَمْ ـ أي ما أمرك ـ فأجابته: خيراً، كفَّ اللهُ يَد الفاجر، وأخدم خادماً.

إحدى الوثائق الإسلامية – وهي حديث نبوي ثابت عن رسول الله ﷺ – تروي لنا حقيقة ما جرى، تقول الوثيقة المدونة في صحيح مسلم: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات: اثنتين في ذات الله: قولَه: «إني سقيم»، وقولَه: «بل فعله

كبيرهم هذا»، وواحدةً في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبارٍ، ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إنْ يعلم أنكِ امرأتي يغلبْني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أُختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لاينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأُتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضةً شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرّك، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها، فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجْها من أرضي، وأَعْطِهَاْ هاجر، قال: فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف، فقال لها: مَهْيَمْ؟ فقالت: خيراً، كفَّ الله يد الفاجر، وأخدم خادماً»[1].

وكما رأيت فليس في الرويات الإسلامية أيُّ ذكر لثروة تحصلت لإبراهيم في مصر، و ليس فيها أي تنازلٍ عن شرف لقاء ثمن أيّاً كان، فلا إبل، ولاخيل، ولاحمير، ولانعاج، ولاشيءَ من ذلك لا من قريب ولا من بعيد، اللهم إلا خادمة هي السيدة هاجر أهديت للسيدة سارة، والهدية جرت في ظروف هي أبعدُ ما تكون عن صفقة بين إبراهيم والملك الجبار.

قال الباحث الإسلامي الكبير محمد عزة دروزة في تعقيبه على روايات التوراة:

«ومهما يكن من أمر قصة إبراهيم وساراي مع ملكَي مصر وجرار، فما يتبادر للذهن أن تسجيلها على الوجه الذي سجلت به قد كان عاملاً فيما عرف من اتساع حوصلة بني إسرائيل وحيلها، وعدم تورعهم عن مواقف مماثلةٍ بسبيل وقاية أنفسهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء برقم ٣١٧٩ ومسلم في كتاب الفضائل برقم ٢٣٧١.

وجر المغانم في وقت واحد»[1].

إبراهيم الذي تتحدث عنه التوراة هو عين إبراهيم الذي يتحدث عنه القرآن الكريم من جهة الاسم، أما المسمَّى فمختلف تماماً، فإبراهيم عندهم ماديٌّ أنانيٌّ تقوده المصالح، وتتحكم به الأهواء! وإبراهيم عند المسلمين رجلٌ يتطلع إلى معرفة دقائق الأسرار، والوقوف على حكمة الأشياء، وتتميز نفسه بالنبل والصفاء، وأخلاقه بالإيثار، إيثار المبدأ الذي آمن به على كل كسب ماديٍ، فهو الذي يمسك دفة الأهواء وليست هي التي تتلاعب به، وهو الذي يضحي بها في سبيل العقيدة، وليست هي التي تبذل كرامته لأجل زخارف الدنيا.

هذا الفتى غير ذاك فكيف يلتقي الحيان؟

---

(١) «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» للباحث محمد عزة دَرْوَزَة، باب «تاريخ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وتمحيص هوية العبرانيين» الفصل الخامس ص ٥٠.

## علاقة إبراهيم بالبيت العتيق

على عادتنا في هذه الأبحاث سنبدأ بعون الله تعالى بالحديث عن الروايات الإسلامية ومدلولاتها فإذا ما انتهينا منها انتقلنا إلى الحديث عن الروايات التوراتية في ذات الموضوع ثم نعقدُ مقارنة أثناء الحديث أو بعده وفق ما يقتضيه المقام.

الرواية الإسلامية الموثقة التي سنعتمدها في هذا المبحث مدونة في صحيح الإمام البخاري إذْ لم يذكر القرآن الكريم تفصيل انتقال إبراهيم إلى مكة، وأسباب ذلك، والحوادث التي رافقت هذا الأمر الجلل، وإنما أحال الموضوع إلى الحديث النبوي الشريف حيث هو أيضاً وحي إلهي نزل على على قلب رسول الله محمد ﷺ غير أنه غير متلو.

البيان القرآني اكتفى بالتعرض لأهم القضايا فقط، فأتى على دعاء إبراهيم بعد أن أودع زوجه هاجر وولده الرضيع إسماعيل في ذمة الله من أرض الحرَم حين قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وتعرض لتحديد مكان البيت: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا..﴾ [الحج: ٢٦]، وتناول مسألة بناء البيت من قبل الأب الخليل والولد النبي وذلك في سورة البقرة، ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ...﴾ [البقرة: ١٢٧].

وإلى جانب ذلك العديد من القضايا الهامة التي أوردها بيان الحق من نظير الكلمات اللاتي ابتلي بهن إبراهيم، والدعاء للذرية، وتخصيص الصالح منها بنبيّ آخر الزمان، كل ذلك تناولته بإسهاب في رسالة الماجستير التي أعددتها في التفسير وعلم مقارنة الأديان فأُحيلك إليه في موضعه فقد أغنى ذلك عن ذكره هنا إلا بالقدر الذي لابد منه.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال[1] :

أوَّلُ ما اتَّخذَ النساءُ المِنْطَقَ[2] من قبل أُمِّ إسماعيل - ﷺ - اتخذت مِنْطَقاً لِتُعفـيَ[3] أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنهـا إسماعيل وهـي ترضعه، حتى وضعهـا عند البيت، عند دَوْحَةٍ[4] فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرَاباً فيه[5] تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَّى[6] إبراهيم منطلقاً، فتبعته أُمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللّه الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيِّعُنا، ثم رَجَعَتْ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة[7] حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الكلمات[8] ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ[9] غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ[10] رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ[11] مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ

---

(١) شرح الكلمات اعتمدنا فيه ضبط أستاذنا الدكتور مصطفى ديب البغا لدلالات الألفاظ ومراميها نقلاً عن تعليقاته على الحديث في مختصر صحيح البخاري للزبيدي المسمى «التجريد الصريح».

(٢) (المِنْطَق) ما يشد به الوسط.

(٣) (لِتُعْفِيَ أثَرَهَا) أي: لتجره على الأرض وتخفي أثرها على سارة.

(٤) (دَوْحَة) شجرة كبيرة.

(٥) (الجِرَاب) ما يتخذ من الجلد لتوضع فيه الزوَّادة.

(٦) (قَفَّى) من التقفية، وهي الإعراض والتولي، يعني ولّى راجعاً.

(٧) الثنية: الطريق العالي في الجبل.

(٨) (الكلمات) الدعوات، أو الجمل التي أنزلها الله تعالى في كتابه على محمد ﷺ، في سورة إبراهيم: ٣٧.

(٩) الوادي: هو مكة المكرمة.

(١٠) (المحرم) أي الذي يحرم التعرض لهُ والتهاون به.

(١١) (أفئدة) جمع فؤاد وهو القلب، والمراد الناس أصحاب القلوب ـ الأفئدة ـ.

إِلَيْهِمْ[1] وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[2]﴾ وجعلت أُمُّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السِّقَاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلَوَّى[3] - أو قال: يَتَلَبَّطُ[4] - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعِهَا[5] ثم سعت[6] سعي الإنسان المجهود[7] حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات: قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: (فذلك سعي الناس بينهما)[8] فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صَهْ[9] - تريد نفسها - ثم تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أيضاً، فقالت: قد أَسْمَعْتَ إنْ كان عندك غَوَاْثٌ[10]، فإذا هي بالمَلَكِ[11] عند موضع زمزم فبحث بعَقِبِهِ[12] -أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تُحَوِّضُهُ[13] وتقول بيدها[14] هكذا، وجعلت تغرف في الماء من سقائها وهو يفور بعد ما تغرف».

---

(١) (تهوي إليهم) تقصدهم وتسكن إليهم.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٧.

(٣) (يتلوى) يتمرغ وينقلب ظهراً لبطن ويميناً وشمالاً.

(٤) (يتلبط) يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض، وقيل: يحرك لسانه وشفتيه كأنه يموت.

(٥) (درعها) قميصها.

(٦) (سعت) هرولت وأسرعت في خطاها.

(٧) المجهود: الذي أصابه الجهد وهو الأمر الشاق.

(٨) (فذلك سعي الناس بها) أي سبب مشروعية السعي بين الصفا والمروة، لإحياء تلك الذكرى في النفوس، لتنشط في الالتجاء إلى الله عز وجل على كل حال.

(٩) صَهْ: اسم فعل أمر بمعنى اسكت والمعنى قالت تخاطب نفسها: اسكتي.

(١٠) (غَوَاْثٌ) من الغوث، أي: إن كان غوث فأغثني.

(١١) (بالمَلَك) أي جبريل عليه السلام.

(١٢) (فبحث بعقبه) البحث طلب الشيء في التراب، وكأنه حفر بطرف رجله.

(١٣) (تحوضه) تجعله كالحوض لئلا يذهب الماء.

(١٤) (تقول بيدها) هو حكاية لفعلها.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: يرحم الله أُم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت عيناً معيناً.

وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضَّيعة فإنَّ ها هنا بيتَ الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يُضيعُ أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُمْ - أو أهل بيت من جُرْهُمْ - مقبلين عن طريق كَدَاء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً[1]، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا[2] بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّا[3] أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال:

«وأُمُّ إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا نعم».

قال ابن عباس: «قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك[4] أُمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس»[5]. فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام[6] وتعلم العربية منهم، وأَنْفَسَهُم[7] وأعجبهم حين شب، فلما

---

(١) (عائِفاً) هو الذي يتردد على الماء ويحوم حوله ولا يمضي عنه، والعائف أيضاً الرجل الذي يعرف مواضع الماء من الأرض.

(٢) (لَعَهْدُنا) لمعرفتنا وصلتنا.

(٣) (جَرِيًّا) رسولاً، ويطلق على الوكيل والأجير، وسمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه.

(٤) (فألفى ذلك) فوجد الجرهمي.

(٥) (الأنس) المؤانسة.

(٦) (شبَّ الغلام) نشأ إسماعيل عليه السلام.

(٧) (أنْفَسَهُمْ) رغَّبَهُمْ في نفسه وفي مصاهرته.

أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يُطَالع تَرِكَتَهُ[1] فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يَبْتَغِي لنا[2]، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم[3]، فقالت: نحن بَشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يُغَيِّرْ عتبة بابه[4]، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لايخلو عليهما أحدٌ[5] بغير مكة إلا لم يوافقاه[6]. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه ـ يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت:

---

(١) (يُطَالعُ تَرِكَتَهُ) يتفقد حال ما تركه هناك، والتركة بمعنى المتروكة، والمراد بها أهله والمطالعةُ: النظر في الأمور.

(٢) (يبتغي لنا) يطلب لنا الرزق، وكان عيشه من الصيد.

(٣) (هيئتهم) حالتهم.

(٤) (عتبة بابه) هي أُسكفةُ الباب، وهي هنا كناية عن المرأة.

(٥) (لا يخلو عليهما أحد) أي لايعتمد أحد في طعامه على اللحم والماء فقط إلا لم يوافقاه.

(٦) (إلا لم يوافقاه) أي إلا لم يوافقا مزاجه، فالاعتماد عليهما يخالف أمزجة الناس ومصالحهم خارج مكة والغالب أن يشتكي المعتمد عليهما من ألم البطن وما شابهه إلا في مكة فإن المداومة والاقتصار على أكلهما لا تحدث شيئاً، وهذا من بركة إبراهيم عليه السلام.

نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاك بشيء، قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تُثَبِّتَ عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحةٍ قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] [البقرة: ١٢٧].

إننا إثر إطلاق نظرات إمعان في الوثيقتين القرآنية والنبوية نستطيع تحديد المراد بالكلام الموجز التالي:

صدرت أوامر إلهية إلى خليل الرحمن بالهجرة إلى مكة حيث لا ماء ولا زرع، برفقة امرأته المصرية هاجر وولدها الرضيع إسماعيل، وكانت التعليمات قطعية في تركهما هناك والعودة إلى فلسطين. ويسارع إبراهيم إلى تلبية أمر الله دون تبرم أو تذمر فالإيمان الراسخ بربه استغرق عليه كل خطواته. وما إن تصل الأسرة إلى حيث أمر الله حتى يعاود الخليل رحلة الرجوع من حيث بدأ تاركاً أهله لمصير مجهولٍ لا يعلمه إلا الله يصحبهم في تلك الأرض ذكر الله وزوادة من طعام وجراب من ماء! وتهرول الزوجة خلف زوجها وهي تصرخ قائلة: أين تذهب وتتركنا بهذ الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا جن ولا شيء . ؟ ولا يلتفت إبراهيم ولا يجيب. ويتكرر السؤال منها وهي في حالة من الاستغراب لما يحدث! حينئذ تدرك أن وراء هذه الرحلة أمراً إلهياً وهي من تعرف

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء برقم (٣١٨٤).

الخليل الزوج والخليل النبي والخليل الحكيم ، لذلك تريد أن تستوثق من الخاطر الذي طاف بها فتسأل من جديد : آللّه الذي أمرك بهذا؟ ويأتي الرد بالإيجاب ، وهنا تثبت في أرضها ، ويطمئن قلبها ، غير عابئة بالمصير الذي ينتظرها ، فالإيمان المتين دائماً له أثرٌ عميقٌ في النفس الإنسانية ، وهو ماظهر جلياً من الجملة التي علقت بها على إجابة زوجها : إذن لا يُضَيِّعنا . إنها تعلم أن لله حكمة من إرسالها إلى هذه الأرض ، وإذا كانت لم تدركها ، فإنها مؤمنة بها ، لذلك استسلمت للمصير الذي ألقتها الأقدار فيه تنتظر فرجاً من الله قريباً ، وتتربص تلمساً لحكمة إلهية جليلة لاشك قادمة .

وينطلق الخليل حتى إذا غاب عن ناظري زوجه استقبل الأَكَمَةَ العالية التي ترك أهله بجوارها ـ ناحية البيت الحرام ـ ودعا بهذه الدعوات : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

ويكتب التاريخ صفحةً من ابتلاءٍ إلهيّ جديد ، أبطاله ثلاثة : خليل الرحمن إبراهيم ، والمرأة الجليلة هاجر ، والطفلُ الرضيع إسماعيل .

أما إبراهيم فلأنه شيخٌ كبير بلغ ستة وثمانين خريفاً ، ورغم ذلك فقد قطعَ مسافةً طويلةً جداً بكل المقاييس ، بصحبة الزوج والطفل انتهت بالتوقف عند أرضٍ جرداء لا ساكن فيها ولا ماء ، حجارتها ملتهبة من حرارةِ الصحراء .

وماذا بعد؟

اتخذ الخليل من تلك الأرض وطناً لِهاجَرَ ووليدها !

هاجر التي أحبها . وهاجر التي أخلصت له خادمةً وزوجةً . وهاجرُ التي رزق منها الولد بعد طول انتظار يُوْدِعُها في صحراء مهجورة ! .

والطفلُ الذي تأخر مجيئه كثيراً حتى شاخ الوالدُ الشاب ، والطفلُ البكرُ الذي لم يكرم بغيره في حياته بعد . الطفلُ الذي لاحول له ولاقوة يترك مع أمه في ظروفٍ لاترى فيها النور أدنى مقومات الحياة ! .

هذا العمل بطولة حقيقية، لا لأنَّ إلقاءَ الأهلِ في جحيم الموت مما يتفاخرُ به الناس، بل لأنَّ هذا العمل عندما يقترن بأمرٍ إلهي، فإنه يحمل دلالةً على وجود حكمة إلهية لم يدركها إبراهيم بعدُ لكنهُ آمنَ بها، وقد كان على يقين تام من نجاة عائلته لأنَّ الذي خلصَهُ من جحيم النيران، وحَمَى عرضه في أرض الجبار، لن يتخلى عنه وهو الذي يأمره بما فعل. وهذه إحدى العلامات الفارقة في سيرة إبراهيم، إنهُ عبدٌ لله عز وجل، مستسلم له، واثق من حكمته، موقنٌ بعنايته.

وأما هاجر فلأنها امرأةٌ وحيدةٌ، في أرض غريبة، مع طفل صغير، لا يحجزها عن الموت إلا أيامٌ ينفدُ فيها الزاد القليل الذي بحوزتها، أو يستهلك الماء الذي بجرابها، أو يخرج عليها واحدٌ من مخلوقات الصحراء المؤذية، إلا إذا قضت الأقدار بشيءٍ آخر.

وأما الصغير فلكونه رضيعاً لا طاقة له على احتمال كل هذا إلا إذا تدخلت عناية الله. ناهيك عن النشأة في أرض الغربة بعيداً عن الأهل، ورعاية الأب، وحماية العشيرة.

ويسجل التاريخ صبراً زادُه الإيمان الراسخ بالله، وماؤه الصِّلَةُ الصحيحة بصاحب الأمرِ كُلِّه وهو الله، أما ثمرته فلا تزال البشرية تجني من نعيمها، وتتفيَّأ بظلالها، وتحيا من آثار بركتها.

وتبدأ المعاناة: الوحدة القاتلة تلقي بظلالها الثقيلة على الأم المؤمنة تحت وطأة الحر الشديد، ونفادِ أسباب العيش. وتصبر سيدة الصحراء تنتظر الفرج من السماء، لكنَّ زمام الأمر يكادُ يفلتُ من يدها وهي ترى فلذة كبدها يتمرغ بالتراب، يبكي وقد ألقى ببطنه على الأرض، وهَوَى بيديه على ترابها، وكأنه يعبر بذلك عن مصابه الجلل، حتى تعجز الأم العطوف عن النظر إلى طفلها مع شعورها بالشلل التام عن فعلِ أيِّ شيء له، ومع ذلك فهي لم تيأس فإذا بها تنطلق إلى أقرب جبلٍ يليها فتصعد الصفا تلقي بنظراتها إلى المدى البعيد يمنةً ويسرةً علَّها ترى أحداً يأتي منه الغوث، حتى إذا ما تسلل إليها فقدان الأمل من هذه الناحية نزلت بتروٍ، وسارتْ بإجهادٍ قاصدة

الجبل الآخر، وبعد تجاوز جزءٍ من الطريق تدبُّ القوة في جسدها مرةً أخرى فتهرول مختصرة زمن المسافة بين الجبلين، لكن الإعياء يقوى على جلدها مرةً أخرى فتوقفُ الهرولة، وتعود للمشي الوئيد إلى أن تصل إلى قمة جبل المروة لتعاود إلقاء النظرات في كل صوبٍ من جديد حتى تصاب باليأس من وقوع غَوْثٍ من تلك الجهة أيضاً، فتلتفت عائدةً إلى المروة بنفس الطريقة، ثم تكرر ذلك تارةً أخرى حتى يتم لها سبعةُ أشواط كلُّ رحلة بين جبلين تحسب واحدةً. ومنْ ثم تسمع صوتاً من جانب البيت، فتهدأ مصغية لمصدره، ثم تنادي طالبةً الغوث، ونظراتها ثابتةٌ إلى حيث المَلَك جبريلُ عليه السلام وقد حفر التراب بطرفِ رجله أو جناحه، وإذا بالماء قد تفجر منه، فتغمر الفرحة قلب الأم المؤمنة وهي ترى اليوم ثمرة صبرها وحسن ظنها بالله عز وجل.

لكنها تبقى بشراً من لحمٍ ودم، فتنطلق إلى موضع الماء تُحَوِّضُهُ خوفاً من أن يتبدَّد على وجهِ الأرض، فيخاطبها الملك بما يزيلُ آثار القلق من نفسها، مطَيِّباً خاطرها، ومُطْلِعَها على الحكمةِ التي طالما آمنت بها وانتظرتها دون أن تفقهها:

«لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله».

كلماتٌ مضيئة نفذت إلى قلب هاجر وعقلها، امتزجت بمشاعرها وأحاسيسها وتفكيرها: وإذا بلسان حالها يتحدث: إنها حكمة الله التي أيقنتُ بها تتجلّى أمامي الساعة من خلالِ مشهدِ ملائكي مهيب. جبريل رسولُ الله إلى أنبيائه يأتيني! والأرض الجرداء تنبعث فيها الحياة! والمكان الذي لا ساكن فيه يصبح من اليوم مهوى الأفئدة! ما هذا الذي شرَّفتني به السماء؟ بيتُ التوحيد في الأرض يبنيه ولدي وزوجي. يطهرانه للطائفين والعاكفين والرُكعِ السجود، ليقصدَه الحجاجُ والعُمَّارُ في كل سنةٍ، وفي كل يوم، وعلى مدارِ الساعة والعام، يتبرؤون فيه من ذنوبهم، ويجددون العهد مع رَبهمّ! فأيّةُ نعمةِ أوْلتني بها السماء.

نعم: أيّةُ مكافأةٍ قدمتْ لأمنا الصابرة المؤمنة الثابتة هاجر، وأيُّ ارتباط هذا

الذي قام بينها وَبين البيت العتيق، وأيُّ فضلٍ أعظم من أن تتحـول رحلتهـا إلـى مكـة، وسعيُها بين الصفا والمروة، وشربها من ماء زمزم إلى عبادة يُجَسِّـدها علـى مـدار العـام وفي كل يومٍ الحجاجُ والعُمّار.



نسأل الآن كيـف تنظرُ التوراة إلـى القصـة؟ ومـن أيّ زاويـة تتحـدث عنهـا؟ وكيـف تنسج روايتها، وتحدد دوافعَ أبطالها؟ أسئلةٌ تتطلَّبُ إجابات شافية، لن أتأخر في تدوينها:

بدايةً أقول، تبدأ القصة في التـوراة منـذ اللحظـة التـي يسـتولي فيهـا اليـأس علـى سارة من أن تلد لإبراهيم ولداً.

وهنا لا تجد لزوجها أفضل مـن اقترانـه بخادمتهـا المصريـة هـاجر. وبـالفعل يلبـي الخليل طلبها، ومنْ ثَمَّ تتوالى الأحداث.

وتشـاء الأقـدار أنْ تلـد سـارةُ ابنـاً تسـميه إسـحاق. حينئـذٍ تتبـدل الحسـابات، وتتدخل العوامل المختلفة في نفسها حسب الرواية التوراتيـة فتدفعهـا إلـى الغـيرة، التـي تحملها على تحريض زوجها لإبعاد إسماعيل وأمه إلى مكانٍ لا تراهما فيه، رغبةً منهـا في تأليب قلبِ إبراهيم عليهما بعد أنْ يختفيا عن ناظريه!

وتقودها الأنانيةُ إلى دعوة زوجها لحصـر الإرث الكـامل بابنهـا إسـحاق وذريته دون أن يصل لابن الجارية منه نصيب!

والعجيـب أنَّ الملاك رسـولَ السـماء يوحـي إلـى إبراهيـم بالاسـتماع إلـى طلـبِ ساراي! أما الأعجب من ذلك كله فهـو انصـرافُ إبراهيـم إلـى تنفيـذ نـزوة أمِّ إسـحاق على حساب أمِّ إسماعيل وولدها!

ولقـراءة مـا أوردتـه التـوراة مفصـلاً أضـعُ بـين يديـك بعـض نصـوصٍ مـن سـفر التكوين في هذا الصدد.

جاء في الاصحاح الحادي والعشرين الكلام التالي :

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية يمزح» ٢١/ ٩ .

«فقالت لإبراهيم : اطرد هذهِ الجارية وابنها . لأن ابن هذه الجارية لا يرثُ مع ابني إسحاق» ٢١/ ١٠ .

«فقبُحَ الكلام جداً في عيني إبراهيم لسببِ ابنه» ٢١/ ١١ .

«فقال اللهُ لإبراهيم لا يقبحُ في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . في كلِّ ما تقولُ لك سارةُ اسمعْ لقولها . لأنه بإسحاق يُدعى لك نسلٌ» ٢١/ ١٢ .

«وابن الجارية أيضاً سأجعله أمةً لأنه نسلك» ٢١/ ١٣ .

«فبكرَ إبراهيم صباحاً وأخذ خُبزاً وَقِرْبَةَ ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولدَ وَصَرَفَها . فمضت وتاهتْ في بريَّة بئرِ سبع» ٢١/ ١٤ .

«ولما فرغ الماءُ من القِرْبة طَرَحتْ الولدَ تحتَ إحدى الأشجار» ٢١/ ١٥ .

«وَمضت وَجلستْ مقابلهُ بعيداً نحو رَمْيَةِ قوس . لأنها قالت لا أنظرُ موتَ الولد . فجلستْ مقابله ورفعت صوتها وبكت» ٢١/ ١٦ .

«فسمع الله صوتَ الغلام . ونادى ملاكُ الله هاجر من السماء وقال لها : مالك ياهاجر . لا تخافي لأن الله قد سمعَ لصوت الغلام حيث هو» ٢١/ ١٧ .

«قومي احملي الغلام وشُدِّي يدَكِ به . لأني سأجعله أمةً عظيمة»٢١/ ١٨

«وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء . فذهبت وملأتِ القِرْبَةَ ماءً وسقت الغلام» ٢١/ ١٩ .

«وكان الله مع الغلام فكبرَ . وسكن في البريَّة وكان ينمو راميَ قوس» ٢١/ ٢٠ .

«وَسكن في برية فاران . وأخذتْ له أمهُ زوجةً من أرضِ مصر» ٢١/ ٢١ .

الذي يطلع على هذه الفقرات التوراتيه يستطيع تحديدَ الدوافع خلف هجرة أم إسماعيل وطفلها الرضيع . ويستطيع أيضاً قراءة بصمات البشر وهي تصوغ كلاماً

تزعم أنهُ من تنزيل السماء!

مؤلفوا التوراة أسندوا الهجرة إلى سارة ضَّرة هاجر، وسيدتها السابقة. وكمسعىً منهم لإيجاد عذرٍ يبرر طلبها أثاروا قضية الغيرة التي أخذت تتحكم في سلوك سارة إلى حدٍ صارت عميقة الأثر في نفسها حتى أعمت بصيرتها، وأيقظت أنانيتها، وحرَّكَتْها على غير هدى، وأخرجتها عن سلطان السماء!

على هذه المسألة بنيت القضية برمتها!

وبما أَنَّ التوراة في أصل نزولها كتابٌ سماويٌ فيه هدىً ونور، لذلك لم ينسَ الكتبةُ التوراتيون إضفاء ثوب الدين الفضفاض عندهم على القصة ودوافعها كي تصادفَ قبولاً في نفوس قارئها، فأقحموا على الصياغة الفقرة الثانية عشرة من الاصحاح المذكور يزعمون فيها تأييد الإله لسارة في طلبها الذي تقدَّمتْ به إلى إبراهيم.

النصوصُ التوراتية تتحدث عن قضايا لا شأن لها بالسماء من مثل زواج إسماعيل بامرأة مصرية!

كما نلمحُ في التوراة محاولةَ النصوص تميز نسل إسحاق، لأنهُ ابنُ السيدة، وموضعُ مباركة الله والخليل عن نسل إسماعيل لأنه ابن الخادمة! والاصحاح السابع عشر من سفر التكوين وانْ حدَّثنا عن أُمةٍ عظيمةٍ تخرج من نسلِ إسماعيل إلا أنهُ عاد منكفئاً إلى دائرته الضيقة ليخصَّ الأمة المنحدرة من نسل إسحاق بالعهد الذي أقامه الرب!

نقرأ في الاصحاح السابع عشر من سفر التكوين:

«ولما كان أبرام ابن تسعٍ وتسعين سنةً ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سِرْ أمامي وكن كاملاً» ١٧/ ١.

«فأجعلُ عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً» ١٧/ ٢. «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك» ١٧/ ٧ «وأُعْطي لك ولنسلك من بعدكَ أرض غربتك كلَّ أرض كنعان ملكاً

أبديّاً. وأكون إلههم» ١٧/ ٨ «وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة» ١٧/ ١٥ «وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً...» ١٧/ ٩ «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك» ١٧ / ١٨ «فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده» ١٧/ ١٩ «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأُكَثِّرُه كثيراً جداً. اثْنَيْ عَشَرَ رئيساً يلد وأجعلهُ أمةً كبيرة» ١٧/ ٢٠ «ولكنَّ عهدي أُقيمهُ مع إسحاق الذي تلدهُ لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية» ١٧/ ٢١.

فالميراث حسب الزعم التوراتي يختص به إسحاق حصراً!

والهدفُ من وراء ذلك دفع إسحاق وذريته إلى واجهة الأحداث ليكون صاحب الصلة الوثيقة بإبراهيم، والنصوص بهذا ترسخُ ما توسعْتُ في الرد عليه في المبحث السابق من ربط اليهودية بإبراهيم، مع تجاهل متَعَّمدٍ عن سبق إصرارٍ وتصميم لعروبة إبراهيم وعروبة إسحاق وعروبة يعقوب، وعروبة إسماعيل وبنيه أيضاً، مغمضين العين عن حقيقة أنَّ اليهودية دين متأخرٌ جداً عن إبراهيم لا يعرفه، ولا علم لبنيه به، وأن اليهود جماعةٌ دينية ظهرت في زمن لاحق، لا جماعةٌ عرقيةٌ أو قوميةٌ.

في الروايات التوراتية تناقضاتٌ لا تستقيم مع مقتضيات العقل، وقواعد الدين السماوي بعمومه. فالسيدة سارة التي اختارتها السماء لتكون أُوْلى زوجتي خليل الرحمن، وحاملة اسمه، والمعينَ له في رحلة الدرب، وهي منْ صبرت إعلاء لكلمة الله، وتحملت مشقة الهجرة ابتغاء وجه الله، وكابدت آلام الغربة هرباً بدينها وحفاظاً على كنز عقيدتها، ثم لاقت في رحلتها أقصى ما يمكنُ أن تلقاه امرأةٌ شريفةٌ من الجهد والبلاء فكانت الجبل الشامخ في الإيمان والإباء، إلى أنْ مَنَّ الله عليها بالنجاة فهل يعقلُ أنَّ امرأة في منزلتها وعلوِّ شأنها تهبط إلى مستوىً تبحث فيه عن هلاكِ ضرَّتها والقضاء على طفل بريءٍ لا حول له من الأمرِ ولا قوة!

وهل يصحُّ من الخليل مسايرةُ سارة فيما تهواهُ نفسها الأمارة بالسوء إذا كان

مايقولون حقاً مِن أنَّ نفسيتها سوداء حاقدة؟!

أيعقل أن يقذف الأب الرحوم، والوالد النبي، بفلذة كبدهِ، داخل الموت المحتوم إرضاءً لنزوةٍ حاسدة وهو الشيخ الكبير؟!

هل نرضى للخليل - وهو القدوة الذي أجمعت على كمالِ شخصيته كل الأمم - أن يوافق على إنزال الأذى بأختٍ لسارة في الدين والزوجية والكرامة الإنسانية، فضلاً عن أن يأمر الله خليله بذلك وهو الحكيم الذي ما أنزل الشرائع إلا دفعاً للحرج، وإرساءً للقيم وارتقاءً بالأمم، وحفاظاً على المقاصد الخمسة والنفس واحدة منها! وأيُ معنىً مما ذكرتُ على ضوءِ ما ذكروا؟

الحق الذي لا مناص منه أن إبراهيم لم يخرج بأسرته تحت وقع أهواء سارة وغليانها!.

وعلى تقدير أنهُ فعل – وما كان ليفعل – فقد كان يكفيه أن يودعها في أرضٍ آمنةٍ كثيرةِ الماء والخَصْب، عامرة ببني الإنسان، وهو في أرضِ الشام وهي كبيرة، والمؤرخون اليهود أنفسهم يدوّنون إمارة إبراهيم على دمشق في زمنٍ ما، بل يُصرِّحون بزعامته في كل أرضٍ نزل بها خلا مصر أيام افتتان جبارها بساره. فلماذا يختار أرضاً موحشةً ليحفر قبر زوجه وولده البريء البكرِ بيدهِ؟

إنَّ أدنى معرفةٍ لشخصية الخليل، وما جُبلتْ عليه نفسهُ من صفاءٍ وشفافية، وما اشتهر عنهُ من سلوكٍ راقٍ تجعل الباحث يجزمُ أنهُ من غير اللائق خروجه بأقرب الناس إليه لهلاك محتومٍ لمجرد أن إحدى زوجتيه ترغبُ بذلك مجسداً صورة للؤم ونكران جميلٍ وقسوةٍ تشمئز منها حيوانات الغاب، داعياً بفعلته الجماهير اليهودية لممارسةِ الفظائع الشنيعة في أبناء إسماعيل اقتداءً بخليل الرحمن إبراهيم!!

لا، وربكم، ليست الصورة هكذا، وايمِ الله لولا الأمر الإلهي بالهجرة إلى صحراء فاران، ولولا اليقين الثابت برحمة الله وحكمته في كل ما يأمرُ به وينهى عنهُ،

ولولا تسليمه المطلق بقضاء الله وقدره، ولولا معرفته الراسخةُ بأنَّ الله لا يضيعُ أهله، ولولا إدراكه الواسع بأنَّ الأرضَ لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، يرزق فيها كل شيء، ويحفظ أيَّ شيء، وهو على كل شيء قدير، لولا ذلك كله لما أقدم إبراهيم على تلك الهجرة المخيفة.

فوق ماذكرت فإنَّ أبرز نقدٍ يمكنني توجيههُ إلى التوراة من التوراة نفسها أنها تقدم لنا تاريخ ولادة كل من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم.

لدى النظر في تلك القائمة التوراتية نجدُ ولادة إسماعيل تتقدمُ ولادة إسحاق بأربعَ عشرة سنة، لكنها تصرح بأن ولد هاجر كان طفلاً يبكي بعد أن تاهت أمه في برية بئر سبع، فهو رضيعٌ لا قدرة له على التعبير عن حاجاته إلا بالبكاء! لقد حدثتنا التوراة عن غَيْرِ سارة وهي ترى إسماعيل يمزحُ ولكنَّ التوراة نفسها أخبرتنا عن طفل يبكي بعد هذا الحدث مباشرة! ثم إنَّ التوراة تبشر إبراهيم بولادة إسحاق بعد عام كامل وإسماعيل موجود ولكنها تعطي أرقاماً أخرى في موضع آخر.

إنَّ هذه الإشارة تنزع عن النصوص التوارتية في الموضوع أية مصداقية، فمن المستحيل القبول بما خرجت به علينا، ومن غير المعقول أن يصدر عن طفلٍ رضيع مزاحٌ وما شابه، مما يؤكد التلاعب بالقصة التوراتية من قبل الكتبة لصالح تشويه الصورة الإبراهيمية، وتشويه صورة البيت المسلم، وتوجيه دفة الأحداث إلى فصلِ هاجر وذريتها الإسماعيلية العربية عن فلسطين وعن عهد الرب، وعن شعب الله المختار!

وهانحن اليوم نقرأ الحدث بعد انقضائه، فنستشف منه حكماً عظيمةً في مقدمتها ثمرة الإيمان الصادق، ومنها انبثاق أمةٍ في جوفِ الصحراء. ومن أبرزها تحول قلب فاران إلى مهوى الأفئدة، وملتقى الأمم، وصيرورة مكة زهرة المدائن. ومن ذلك قيام المعجزة بتجسد الدعاء الإبراهيمي ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فإذا به واقعٌ نراه، ولا يقدر أحدٌ على إنكاره، ولو حاول، وإذا بالأفئدة تهوى إلى مكة في كل لحظة من ليلٍ أو نهار، براً

وبحراً ثم جواً دون أن تتوقف الحركة، أو يهدأ الطواف، أو ينقطع السعي مهما اختلفت الظروف من حرٍ أو برد، مطرٍ أو شمس، موسم حج أو عمرة أو غير ذلك. وإذا بمكة تفدُ إليها ثمارُ الصيف والشتاء والربيع والخريف من غير أن يزرع فيها نوعٌ واحدٌ من الثمار، فالأرضُ قفرٌ، والصخورُ صمَّاء، والماء قليل، والسِّر يضعه اللهُ حيثُ يشاء. وإلى جانب ذلك نشاهد في مكة كلَّ ما سَمِعْتَ عنهُ في دنيا الناس، وكأنَّ عصارات الأمم من صناعةٍ وزراعةٍ واختراع تهوي إلى مكة كما تهوي إليها الأفئدة.

ومن مكة، ومن نسل هاجر وإسماعيل خرجت أمةُ الإسلام تصدع بنداء الحق، تبثُ النورَ في الأرض، تفتحُ المشرق والمغرب، تبسط نفوذ الخلافة وقيم العدالة الإلهية التي تحملها حتى حدود الصين وأبواب باريس، وقلب النمسا، ومن ثم ما زال الإسلام ينادي بمبادىء السعادة والحق في كل أرضٍ من شرقٍ وغرب في المدن الأكثر مدنية أوالأقل حضارة على حد سواء، والانطلاقة كانت من نور محمد ﷺ في مكة، أما البداية فمن الهجرة الإبراهيمية الإسماعيلية من حبرون في فلسطين إلى فاران حيث مكة.

القصةُ حسب الرواية التوراتية تشبهُ ما يحكيه الناسُ في المقاهي والحانات عن عامة البشر من زيدٍ وعمرو، والقصةُ حسب الوثيقة القرآنية والنبوية تترفع عن حكايا الحقد، وتسمو عن روايات البغضاء، وتعلو بسارة وهاجر إلى حيث يجب أن تكونا من افتراش كرسي القدوة للأجيال التالية في العبودية والإيمان، إلى الصبر والمصابرة والإسلام، فكلتاهما بذلتا في سبيل الدين والعقيدة ومبادىء العدالة والخير ما يجعلُ من كلٍّ منهما أُمَّاً مربية نستنير بسيرتها، ونقتبس من نورها.

وليست الشخصيات ودوافعها هي فقط محل نظرٍ بالنسبة للروايات التوراتية، بل مواقعُ الحدث أيضاً موضعُ تساؤل هي الأخرى.

التوراة تتخبط في تحديد الموقع الذي انتقلت إليه هاجر عليها السلام. فهي تتحدث في الفقرة السابقة ٢١/ ١٤ أن الأم تاهت مع ولدها في برية بئر سبع. وهنا نسأل من جديد! لماذا بريةُ بئر سبع وليس مدينة بئر سبع؟ الجواب متروك للقارىء الكريم.

والتوراة في ٢١/ ٢١ تتحدث عن سكن إسماعيل لبرية فاران!

وفاران تطلق على مواضع عدة منها جبال مكة كما في لسان العرب. والراجحُ من هذه المواضع هو ما ذكرناهُ أي جبال البلدة الحرام بدليل ما جاء في قاموس الكتاب المقدس: «وجميع هذه المعلومات تشير إلى المرتفع، أو الأرض الجبلية (تث٢ : ٢٣ وحت٣ : ٣). . . »[1]. ومكة تنطبق عليها هذه الصفات.

وبدليل ما جاء في الاصحاح الخامس والعشرين من التوراة: «وسكنوا من حَوِيلَة إلى شُور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور. أمام جميع إخوته نزل» ٢٥/ ١٨.

ومن المعلوم أن «حويلة» هي «خَوْلان» وَخولان منطقة تقع شمالي اليمن، تسكنها قبيلة يمانيه.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: «حَويله: اسم سامي. . . . مقاطعةٌ في بلاد العرب، يسكن بعضها الكوشيون ويسكن البعض الآخر اليقطانيون، وهم شعبٌ سامي (تكوين ١٠/ ٧ و٢٩/ ١ أخبار ٩ : ١ و٢٣). والصلة بين حويله وحضرموت وأماكن أخرى تشير إلى موقع في وسط البلاد العربية أو جنوبها. . . . ويفضل البعض أن يحققها بمنطقة خولان، في القسم الغربي من بلاد العرب شمالي اليمن. ولا يعرف إلى أيِّ حدٍّ كانت تمتدُ الحويله شمالاً»[2].

ونقرأُ في قَصص الأنبياء للمرحوم عبد الوهاب النجار: «وَحويله: هي خَولان؛ وَخولان: قبيلة يمانية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز، وهذا دليلٌ أن مكة تشملها مساكن إسماعيل وبنيه»[3].

إذاً قاموس الكتاب المقدس وكَتَبَتُه يصرِّحون بأنَّ حَوِيْلَةَ مقاطعة في بلاد العرب،

---

(١) باب الفاء - ص٦٦٧.

(٢) قاموس الكتاب المقدس باب الحاء - ص٣٢٩، فصل: حَوِيْلَة.

(٣) مبحث إسماعيل عليه السلام، فصل: «رحلة إسماعيل وهاجر إلى وادي مكة» ص١٣٣ في أسفل الصفحة - الحاشية -.

وأنها في وسط البلاد العربية، شمالي اليمن؛ حيث تقع المملكة السعودية اليوم ومكة في قلبها، وهي وسط بلاد العرب، كما يُصَرِّحون بأنَّ شُوْرَ ذكرت في قصة هرب هاجر، وصارت فيما بعد مسكناً للإسماعيليين[1] .

وإذا ما أضفنا لهذه المعلومات إجماع المؤرخين بأنَّ إسماعيل سكن مكة، وإجماع النُسَّاب بأنَّ محمداً ﷺ من ولد إسماعيل، وإجماع العرب بأنَّ إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت الحرام، فإنما نصل من ذلك كله إلى تقاطع المعلومات الذي نستطيع بواسطته تحديد فاران بمكة التي سكنها إسماعيل وبنوه والتي خرج منها فيما بعد نبيٌّ الله محمدٌ ﷺ العدنانيُّ الإسماعيلي الإبراهيمي، وفي هذا ردٌّ علمي صريح على دعوى اليهود بأن إسماعيل تاه مع أمه في صحراء سيناء بين مصرَ وفلسطين.

من ناحية أخرى فإن التوراة في سفر التكوين ٢١/ ١٥ ذكرت لنا أن هاجر وضعت ولدها تحت الأشجار . إذن المكان ليس صحراء وإنما موضع فيه أشجار، ولو لم يكن كذلك لقيل شجرة. لكنها قالت: لاأنظرُ موت الولد! فهل من تخبط أفجع من هذا؟.

إنَّ ما طالعتنا به التوراة في هذه القضية من شتى جوانبها مردودٌ ومرفوضٌ، تفوحُ منه رائحة العنصرية التي إنْ جازت في حق هتلر وموسوليني ورابين وبيريس ونتِن ياهو وباراك وشارون ومَن صوَّتَ لهم أو أيَّدهم، فهي لا تليقُ بحالٍ في حقِّ ربِّ العالمين، وخليله ورسله وشرائع السماء المنزَّهة عن ذلك كلَّ التنزيه.

البحثُ منَّا إذا تجرَّد عن البواعث والضغوط يضعُ ألفَ إشارة تعجب واستفهام أمامَ نصٍّ توراتي يقول: «وأعطى إبراهيمُ إسحاق كلَّ ما كان له» ٢٥/ «وأمَّا بنو السراريِّ اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنهِ شرقاً إلى أرضِ المشرق وهو بعدُ حي» ٢٥/٦ .

وهذا مستحيلٌ على نصٍّ إلهي لأن الله حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده

---

(١) باب الشين ـ ص٥٢٨ .

محرَّماً، وحرمان الإخوة من الميراث والبركة والعهدِ ظلمٌ وزيادة. ثم إنَّ تعاليم السماء تدعو إلى تثبيت الروابط الأسرية والإنسانيةِ، والتفريقُ بين الإخوة في كل شيء من خلال تفضيل أحدهم على الجميع تمزيقٌ لتلك الروابط وقطعٌ للأرحام وباب للكراهية ومفتاحٌ لعقوق الوالدين، وبثٌ لروح الفرقة بين أبناء البيت الواحد، وإبراهيم الشيخ العاقل، والعبد المؤمن، والوالد الحكيم لا يرضى بمثل هذه الفعلة الشنعاء[1].

يقول الباحث المرحوم محمد عزة دروزة في تعقيبه على هذا النص: «ومع أنَّ الكلام عن قطورة[2] فقد جاءت جملة «أبناء السراري» بصيغة الجمع لتشمل إسماعيل أيضاً كما هو المتبادر، مما فيه أثرُ زعم الاختصاص الذي نَّبهنا عليه، ومحاولة حصرِ إرثِ إبراهيم بإسحاق وإرث إسحاق بيعقوب[3] دون غيرهما كما هو ظاهر»[4].

من الملاحظات الأكثر أهميَّةً، والأَخطر أثَراً في شأنِ إبراهيم عليه السلام هي

---

(١) أقول: لهذا ذهب بعض الفقهاء إلى حرمة تفضيل الوالدين لبعض أبنائهما لما في ذلك من بعد عن التقوى، وتشجيع على الصراعات فيما بينهم، لذلك قالوا: بوجوب العدل بين الأبناء مستدلين بقوله ﷺ في رواية البخاري برقم (٢٤٤٦) و(٢٤٤٧)، وروايات لمسلم برقم (١٦٢٣) وهو ماسأستعرضه مفصلاً إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب.

(٢) تضمن الاصحاح الخامس والعشرون خبر زواج إبراهيم بامرأةٍ اسمها قطُورَةَ بعد وفاة سارة، وأنه رزق منها بستة أولاد. عن ٢٥/ ١ إلى ٢٥/ ٥.

(٣) الذي يقرأ التوراة يدرك بجلاء هذا الموقف المتميز فإبراهيم عندهم لا يرثه من أزواجه الثلاثة وَذراريهم إلا إسحاق وبنيه، وإسحاق لا ينال أحدٌ من بنيه اختصاص الإرث إلا ولدَهُ يعقوب، أما يعقوب فكل ذريته صاحبة الحق في الإرث والعهد في أرض كنعان، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نثبت وجود أيدٍ من بعض الأسباط الإسرائيلية تحاملت على سيرة أسباط أخرى وخَصَّتْ الفضل بها وحدها وهو ما تترجمه لنا النصوص التي تناولت داود وسليمان على سبيل المثال حيث تعمد الكتبة تشويه الصورة الناصعة لكلا النبيين الكريمين وهو ما ستقرؤه بشواهده إنْ شاء الله تعالى في موضعه في جزءٍ لاحقٍ من هذه السلسلة.

(٤) انظر تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم باب: «تاريخ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام» ص٥١.

تلك التي نُسَلِّطُ بها الضوء على وعد توراتي يعطي فلسطين لأبناء الخليل، ويجعلها لذريته من نسلِ إسحاق ويعقوب ملكاً أبدياً من بعده.

نقرأُ ثم نبحث:

يقول كَتَبَةُ سفر التكوين على لسان التوراة: «وأُعطِي لَكَ ولنسلك من بعدك أرض غُرْبتكَ كلَّ أَرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكونُ إلههم» ١٧/ ٨.

«فقال الله: بل سارةُ امرأتُك تلدُ لك ابناً وتدعو اسمَهُ إسحاق، وأُقيم عهدي معهُ عهداً أبدياً لنَسْله من بعده» ١٧/ ٢٠.

«ولكن عهدي أقيمهُ مع إسحاق...» ١٧/ ٢٠.

هذا الوعدُ تكرر على لسانِ موسى في سفرِ التكوينِ ذاته:

«وقال الربُّ لموسى: اذهب اصعَدْ من هنا أنت والشعبُ الذي أصعدْتَهُ من أرض مصر إلى الأرض التي حلفتُ لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلكَ أُعطيها» ٣/ ١.

«وأنا أرسِلُ أمامَك مَلاكاً، وأطردُ الكنعايين والأمُّوريين والحِثّين والفِرزّيين والحِوِيِّنَ واليبوسيين» ٣/ ٢.

وفي سفر الخروج تأكيد ثانٍ:

«ثم كلَّمَ موسى وقال لهُ: أَنَا الرَّبُّ» ٦/ ٢.

«وأنا ظهرتُ لإبراهيم وإسحاق ويعقوبَ بأَنِّيْ أنا الإلهُ القادرُ على كلِّ شيء وأمَّا باسمي يَهْوَهْ فَلَمْ أُعْرَفْ عندَهم» ٦/ ٣.

«وأيضاً أَقمتُ معهم عهدي أَن أُعْطِيَهُمْ أَرْضَ كنعان غربتِهِم التي تغربوا فيها» ٦/ ٤.

هذه الوعودُ المدونةُ في التوراةِ، منسوبةٌ إلى رَبِّ العزة! وإلى خليل الرحمنِ إبراهيم!.

الأمانةُ العلمية تحجزني عن الإسراع على الحكم عليها، وتدفعني لوضعها تحت مجهر البحث العلمي، فإن أوْصلتني رحلةُ البحث إلى تصديق هذا الوعد فلَنَ أَتأخَر

بالإيمان به، تقديراً مني للقرار العلمي. أمَّا إن أنزلت المحطةُ الأخيرة من البحث مرساهاعندَ قرار علمي يجزمُ ببطلان الوعد، وبطلان مابُنيَ عليه، فإنني أيضاً سوف لن أتردَّد في إنكاره، وسأطالبُ حينئذ باحتضان ثمرة البحث العلمي، والذَّوْد عنها.

الوعدُ التوراتي يستلزمُ العديد من القضايا لا إخالُ أحداً ينكرها.

أوّلاً: يستلزمُ أنَ اللهُ هو صاحبُ الوعد.

ثانياً: يستلزمُ أنَّ إبراهيم هو مَن أطلق الوعدَ أمامَ بَنيه على أنه من عطاءِ ربِّ العالمين.

ويستلزمُ أيضاً أنَّ موسى أكَّدَ على لسانِ الرب ماوعدَ به إبراهيم.

وكلُّ ذلك يستلزمُ أَنْ تكون التوراة من كلامِ رَبِّ العالمين فيما لو كان الوعدُ صحيحاً.

نبدأُ من النقطة الأُوْلى ونسأَل: هلِ اللهُ هو صاحبُ الوعدِ التوراتي؟.

للإجابة على هذا السؤال لابد لنا من الرجوع إلى موازين العدالة الإلهية فإن اتفقت مع مقتضيات الوعد، والمراحل المتقدمة عَليه، جزمنا بمصدر الوعد وأنه إلهي، وإلاَّ نبذناه وراءَ ظهرنا كأننا لم نسمع به.

موازينُ العدالة الإلهيةِ تستندُ إلى أنَّ جميع البشر هُمْ من خلق الله العُرْبَ والعجم، السُّوْدُ والبيض، المسلمين والكافرين، أو الوثنيين والماديين.

كما تقوم تلك الموازين على قاعدةِ أَنَّ العَرَض من لَوْنِ وطول ولغة ولهجة ليس مقياساً لتفضيل أحدٍ على أحدٍ لأنَّها صفاتٌ ليست كسبيةً، وإنما هي من عطاء الله الخالق. ولما كانت البشرية على اختلاف أَجْناسها وألوانها ولغاتها ولهجاتها تنتمي إلى أُسرة واحدة، وتخضعُ لقانون واحد، فإنَّ التفضيل الذي يسري على أَبنائها هو بمقدار مايقدمهُ أحدُهم إلى سائر أفراد الأسْرة الإنسانية من خيرٍ، ويمارسه معهم من تعاون على أرضية العبودية لله الخالق لهم، وعلى أرضية الإخلاص له، والتقدير لرسله الذين أَرْسوا هذا المبدأ، وَدَعَوا إلى خيرِ الجميع.

البداية من الإسلام خاتمة الشرائع السماوية:

قال اللهُ عز وجل في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال أيضاً: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ...﴾ [المائدة: ٢].

وقال كذلك: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وفي صحيح البخاري نجدُ ضالتنا من الحديث النبوي في توثيق عُرَى هذا المعنى:

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ لا يرحَمْ لا يُرْحم»[1].

وعن عبد الله رضي الله عنهُ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البِر، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإنَّ الرجل ليصدُقُ حتى يكونَ صدِّيقاً، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وإنَّ الرجل ليكذبُ، حتى يكتبَ عندَ الله كذاباً»[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الغادرَ يُنْصَبُ له لواءٌ يومَ القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان»[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمنُ، والله لا يؤمنُ، والله لا يؤمنُ، قيل: مَنْ يارسولَ الله؟ قال: الذي لا يَأْمَنُ جارُهُ بوائقَه»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذ جارَه، ومَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليُكرِمْ ضيْفَه، ومَنْ

---

(١) البخاري برقم ٥٦٥١، ومسلم رقم ٢٣١٩.

(٢) البخاري برقم ٥٧٤٣، ومسلم رقم ٢٦٠٧.

(٣) البخاري رقم ٥٨٢٤ ومسلم ١٧٣٥.

(٤) البخاري رقم ٥٦٧٠.

كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيراً أَوْ ليَصْمُتْ»[1] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : «كلُّ معروفٍ صدقه»[2] .

وفي كتاب الحدود من صحيح البخاري تُرْوَى أحاديثُ في بيان ذات القاعدة :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أُتي النبي ﷺ برجل قد شَرِب ، قال : (اضربوه) . قال أبو هريرة : «فَمنَّا الضَارِبُ بيده ، والضارِبُ بنعله ، والضاربُ بثوبه» فلما انصرف ، قال بعض القوم : أَخزاكَ الله ، قال : «لاتقولوا هكذا ، لاتُعِينُوا عليه الشيطان»[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «لعن اللهُ السارِق ، يسرِقُ البيضة فتقطعُ يده ، ويسرق الحَبْلَ فتقطعُ يدُه»[4] .

وعن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : «تُقْطع اليدُ في ربُعِ دينارٍ فَصَاعداً»[5] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : «لايزالُ المؤمنُ في فُسْحَةٍ من دينه ، مالَمْ يُصبْ دَماًحراماً»[6] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «مَنْ حملَ علينا السلاحَ فليسَ مِنَّا»[7] .

وعن عبد الله رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : «لايحلُّ دمُ امرئٍ مُسْلم ،

---

(١) البخاري رقم ٥٦٧٢ ومسلم رقم ٤٧ .

(٢) البخاري رقم ٥٦٧٥ .

(٣) البخاري رقم ٦٣٩٥ .

(٤) البخاري رقم ٦٤٠١ .

(٥) البخاري رقم ٦٤٠٧ .

(٦) البخاري رقم ٦٤٦٩ .

(٧) البخاري رقم ٦٤٨٠ .

يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأَني رسولَ الله، إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والثَّيِّبُ الزاني، والمفارِقُ لدينه التاركُ للجماعة»[1].

فأصلُ البشر واحد، آدم أبوهم وحواء أُمهم، وماافتراقهم على قبائل ولغات وبلاد وثقافات إلا من باب التَنوُّع الذي أَقامهُ الله في الأَرض لحكمة التعارف والتعاون والتبادل خدمة لإقامة الصرح الحضاري فوق البسيطة.

وأَصلُ الجزاء ثواباً وعقاباً نابعٌ من فعلِ المكلَّفِ خيراً أَوْ شَراًّ، فالرحمةُ الخاصة هي من نصيب مَن يَرْحَمُ وفق قاعدة الجزاء من جنس العمل، والغادرُ ينصبُ لهُ لواءٌ بين الأَشهاد يوم القيامة ليُفتضح أمرهُ تحت ظل ذاتِ القاعدة.

والإيمانُ الكامل محرومٌ منهُ صاحبُ الخلقِ الناقص.

والصدقة نعتٌ لكل ما هو معروفٌ بين الناس، وهكذا....



بعد الإسلام نُعَرِّج على الأحكام المدونة في الإنجيل على لسانِ عيسى عليه السلام: جاء في الاصحاح الخامس من إنجيل مَتَّى:

«ولما رآى الجموعَ صَعدَ إلى الجبل، فلما جلس تقدَّم إليه تلاميذه»: ١.

«ففتح فاهُ وعلَّمهم قائلاً»: ٢.

«طُوْبى للرحماء لأنهم يرحمون»: ٣.

«طُوْبى لأنقياء القلب، لأنَّهم يُعاينون الله»: ٨.

«طُوْبى لصانعي السلام، لأنهم أبناءُ الله يُدْعَوْن»: ٩.

---

(١) البخاري ٦٤٨٤ ومسلم ١٦٧٦.

«لاتظنُّوا أنَّني جئتُ لأَنقض الناموس أو الأنبياء. ماجئتُ لأنقضَ بل لأُكَمِّلَ»[1]: ١٧.

«وقد سمعتم أنهُ قيل للقدماء لاتقتُل. ومَنْ قتلَ يكونُ مستوجبَ الحكم»: ٢١.

«وأَمَّا أَنَا فأقول لكم: إنَّ كلَّ مَنْ يغضبُ على أخيه باطلاً يكونُ مستوجبَ الحُكم»: ٢٢.

«قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتَزْنِ»: ٢٧.

«وأَمَّا أنا فأقول لكم: إنَّ كل مَنْ يَنظرُ إلى امرأةٍ ليشتَهيهَا فقد زنى بها في قلبه»: ٢٨.

«سمعتم أنهُ قيل: عين بعين، وسنٌّ بسنٍّ»: ٣٨.

وفي الاصحاح السادس من الإنجيل نقرأ:

«وإنْ لم يَغْفِرُوا للناس زلاتهم لايَغْفَرْ لكم أبُوكم أيضاً زلاتكُمْ» السادس: ١٥.

«احترزوا من أن تضعوا صدقتكم قُدَّامَ الناس لكي ينظروكم. وإلا فليس لكم أجرٌ عند أبيكم الذي في السموات»: ١.



الخطوة الثالثة في عملية الاستقراءِ نتقدَّم بها إلى التوراة:

رصدتُ للقارىء من سفر الخروج مجموعتان من الفقرات:

المجموعة الأُولى من الاصحاح الحادي والعشرين منه:

«وهذه هي الأَحكامُ التي تضعُ أمامهم» ٢١/١.

---

(١) هذا دليل على أنَّ الدين الذي جاء به عيسى في حقيقته ليس ديناً مستقلاً في جوهره، وإنما هو تكميل لدين موسى، الذي هو دين الله على لسان كل نبي وفي كل كتاب، وهو عين دين محمد ﷺ لولا التحريف اللاحق.

«مَن ضربَ إنساناً فماتَ يُقْتَلُ قَتْلاً» ٢١/ ١٢ .

«وإذا بغى إنسانٌ على صاحبه ليَقْتُلهُ بعذْرٍ فَمنْ عند مذبحي تأخُذُهُ للموت» ٢١/ ١٤ .

«ومن سرق إنساناً وباعَهُ أوْ وُجِدَ في يده يُقْتَلُ قتلاً» ٢١/ ١٦ .

«وإذا ضرب إنسان عبدَهُ أَوْ أمَتَهُ بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه» ٢١/ ٢٠ .

«وإذا تخاصمَ رجال وصَدَمُوا امرأةً حبْلى فسقط ولدُها ولم تحصُلْ أذِيَّةٌ يُغْرَمُ كما يضعُ عليه زوج المرأة، ويدفعُ عن يد القضاة» ٢١/ ٢٢ .

«وإنْ حصلتْ أذيَّةٌ تعطي نفساً بنفس» ٢١/ ٣٢ .

«وعيناً بعين وسنّاً بسنٍ ويداً يد ورِجْلاً برِجل» ٢١/ ٢٤ .

«وكَيّاً بِكَيٍّ وجُرْحاً بجرح ورَضّاً برَضَ» ٢١/ ٢٥ .

المجموعة الثانية من الاصحاح الثاني والعشرين:

«إذا سرق إنسانٌ ثوراً أوْ شاةً فذبحهُ أوْ باعَهُ يُعَوَّضُ عن الثور بخمسة ثيرانٍ، وعن الشاة أَرْبعة من الغنم» ٢٢/ ١ .

«إنْ وُجِدَ السارقُ وهو يَنْقُبُ فضُرِبَ ومات فليسَ له دم» ٢٢/ ٢ .

«ولكنْ إنْ أَشرقت عليه الشمس فله دم. إنهُ يُعَوَّض، إنْ لم يكنْ له يُبَعْ بسرقته» ٢٢/ ٣.

«وإذا راوَدَ رجلٌ عذراء لم تُخْطَب فاضطَجع معها يمهُرها لنفسه زوجةً» ٢٢/ ١٦ .

«إنْ أبى أبوها أنْ يُعطيهُ يَزِنْ له فضَّةً كمهرِ العَذَارَى» ٢٢/ ١٧ .

«مَن ذبح لآلهة غير الرَّب وحدَهُ يهلك» ٢٢/ ٢٠ .



إنَّ تَتَبُّعَنا لنصوصِ كلِ دينٍ فوق هذه الأَرْض ضمن عملية استقراء كاملة

يوصلنا إلى حقيقة أَنَّ الأديـان تبـذل الثـواب وتُـنزلُ العقـاب وفـق القـاعدة التـي أشـرنا إليها، وهي قولنا: الجزاءُ من جنس العمل. فإنْ كان العملُ حسـناً متفقـاً مـع نصـوص الدين أُثْبِتَتْ لصاحبه المكافأة، دنيوية كانت أوْ أُخروية، وإِنْ كان العملُ سيئاً مخالفاً لما عليه النصوص أُلزِمَتْ فاعلُه العقوبة، دون أن يكون للجنس أو اللّون أو الخصوصيات الأُخرى أيُّ قيمة، وإِلاَّ فبماذا نفسرُ إنزال عقوبة القتل باليهودي فيما لو كان قاتلاً وهو ينتمي في زعمهم إلى شعب الله المختار.

كيف نفسرُ أحكام السرقة والزنى تحريماً وجزاءً؟

أليس المعاقَبُ يهودياً؟

أليستْ تلك الأحكام منزلة على مَنْ يزعمون أنهم شعبُ الله المختار؟

عَلامَ يعاقَبون إذا كانوا مدَلّلين مصطفَيْن؟

لو حججتُ في رحلةِ استقصاءٍ لأحكام الثواب والجزاء في دين هـؤلاء لاحتجـتُ إلـى مئات الأوراق تدويناً فقـط، أَفـلا يـدلُّ هـذا على بطـلان التميـيز علـى أسـاس الخصوصية المزعومة.

هذا يقودني إلى فتح مَلفٍّ النقطة الأُخرى:

الثـوابُ بالبداية رهـن بـالعملِ الصـالح، فـإِذا مافترضنـا جَـدَلاً تمليـك السـيادة الإلهيَّة لأرضِ فلسطين لليهود، فهذا بلا شك يسـتلزم أنْ يكـون العطـاء ثمـرةً للوفـاء، على قـاعدة الثـواب والعقـاب، فهـل وفَّـى اليهـودُ بعهـد التـوراة شـريعةً وعقيـدة حتى استحقوا عطاءً ما؟

نسألُ التاريخ فيُجيبُ بالنفي.

ونسألُ التوراة وسائر أسفارِ العهدِ القديم فنجدُ التأكيد على إجابة التاريخ.

ولأَنني لاأقصدُ الإطالـة، فسأكتفي بالأَسفار اليهوديـة، فبهـا وحدهـا أجـدُ

ضالتي، لأنهم بها يعتقدون، ثم إنَّ المُسَلَّمَ المتعارفَ عليه بين الناس يقول: من فمك أَدينك، فالمصدر الذي يتشدقون بأنهم بواسطته رُفِعُوا إلى شعب الله المختار هو ذاتُ المصدر الذي يردُّ بالقول الصريح مقولتهم.

المحطة الأولى من عهد موسى عهد نزول التوراة وفيها نقرأُ التسجيل التالي[1]:

«فقال الربُّ لموسى: اذهَبْ انزل، لأَنهُ قد فسد شعبك الذي أَصْعَدَتَهُ من أرْض مصر» ٣٢/ ٧.

«زاغُوْا سريعاً عن الطريق الذي أوْصَيْتُهم به، صنعوا لهم عِجْلاً مسبوكاً وسجدوا له، وذبحوا لهُ، وقالوا: هذه آلهتُك يا إسرائيل التي أَصْعَدَتْك من أرض مصر» ٣٢/ ٨.

«وقال الربُّ لموسى: رأيتُ هذا الشعبَ وإذا هو شعبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ» ٣٢/ ٩.

«فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأَفنيهم» ٣٢/ ١٠.

التوراة تُصَرِحُ في لحظة نزولها، وفي خطاب تنزيلها[2] أَنَّ قوم موسى فسدوا وأفسدوا وزاغوا عن طريق الله حتى أوقعوا أنفسهم في دائرة الإنتقام الإلهيِّ وغضبه.

هذه النتيجة ذاتُ وجهين:

الوجهُ الأول يجزم لنا بفسادٍ تجسد في قومِ موسى استوجب بطش الله الشديد.

الوجهُ الثاني ينفي عن قوم موسى صفة الاصطفاء والاختيار، لما في النصوص من تناقضٍ مع جريمة الإفساد، وعقوبة الإفناء.

غيرَ أَنَّ كتبة التوراة يقلبون الصورة، ويجعلون ماهو نتيجة لهذه المقدمة نتيجة لتلك! لكن كيف؟ قلنا إنَّ التوراة صرَّحت في هذه القضية بالمقدمة الصغرى وهي فساد الشعب، وقلنا إن كل مخالفة تقابلها عقوبة، وهذه هي المقدمة الكبرى، وهي إحدى

---

(١) هذه الفقرات من الاصحاح الثاني والثلاثين من سفرِ الخروج.

(٢) هذا مراعاةً لقولهم وإلا فإننا لانثبت ولاننفي.

المسلمات التي لايتنازعُ عليها اثنان. النتيجة الحتمية لكلا المقدمتين إنزالُ عـذابٍ شـديد من الله بالشعب الفاسد، وهو عينُ ماصرَّحت به التوراة. النصـوص إلـى هنـا منطقيـة. بيد أنَّ الكتبةَ محترفون، يجيدون الكرَّ والفرَّ والمراوغة دون أنْ يفطن لهـم إلا القليـل من الناس، وبين أيدينا شاهدٌ ينطق بما أقول. لقد تفوهوا في النصـوص التاليـة لما سـقتُهُ بين يديك آنفاً بما ليس في مقدور أحدٍ أنْ يقبله. نقرأ ثم نبحث:

«فتضرَّعَ موسى أمامَ الربِّ إلهه. وقال: لماذا يارَبُّ يحمى غضبك علـى شعبك الذي أخرجْتَهُ من أرْضِ مصر بقوةٍ عظيمةٍ ويدٍ شديدة» ٣٢/ ١١.

«لماذا يتكلم المصريُّونُ قائلين: أخرجهم بخُبْثٍ ليقتلهم في الجبال، ويفنيهـم عـن وجه الأرض. ارجع عن حَمْوِ غضبك واندم على الشَرِ بشعبك» ٣٢/ ١٢.

«اُذْكُرْ إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدَك الذين حلفتَ لهم بنفسك وقُلْتَ لهم: أُكَثِّرُ نسـلكم كنجـومِ السـماء وأُعطي نسـلكم كـل هـذه الأرض التي تكلَّمْـتُ عنهـا فيملكونها إلى الأبد» ٣٢/ ١٣.

«فندمَ الربُّ على الشَرِّ الذي قال إنه يفعله بشعبه»(١) ٣٢/ ١٤.

عجيبٌ هذا! عجيبةٌ تلـك النقلـة الطويلـة التـي تقفـز بنـا فـوق المقدمـات المنطقيَّـة لتفترسَ النتائج افتراساً مستعيضة عنها بأكاذيب تزعم أنها وصلت إليها من أبواب تلك المقدمات! الشعبُ طغى وتمادى، بل كفرَ وأشرك بالله، بل وأساء الظنَّ بموسى مُعْرِضـاً عن عباده الله الواحد الأحد، مقبلاً على عبادة عجلٍ هو مضربُ المثل في البلادة!

---

(١) لاحِظْ كيف يتكلمون عن الله وكأنَّـه مَلِكُ علـى شعب من الشعوب، لذلك يكـرِّرون كلمـة شعب ونادراً جداً مايذكرون مايشيرإلى العبودية لله تعالى، وإذا ماذكروا فإنهم يتحدثون عـن عبيدٍ لاعن عباد، وعن الأنبياء لاعن أنفسهم! ثم هذا المَلِكُ الذي يسمونه رباً هو كـأيِّ ملك في بشريته لذلك تتكرر صفةُ الندم عنده كثيراً كما هو واضح من خلال هذه النصوص، وهـي مسألة سأُوْلِيهَا مزيداً من العناية في صَفَحَاتٍ قادمة من هذا الكتاب بعونه تعالى.

الربُّ غضب وتوعَّد.

موسى تضرَّعَ وتشفَّع.

فما هو الشيء المنطقي بعد هذا كله؟

الإجابة عندَك أيها القارئ. فالمعصية إذا اقترنت بشفاعة الشفعاء، وقُبِلَتْ عندَ الله فإنَّ ربنا يعفو ويصفح تفضلاً منه على عباده، ليفتح فرصة اختيار جديد لكي يُثبتَ العصاةُ التائبون صدق إنابتهم. هذا ماتفصح عنه نصوص الأديان السماوية والأرضية، وتسجله أعرافُ الناس في العفو عن المذنبين. أمَّا أَنْ يُقابِلَ اللهُ أخطر جريمةٍ في الوجود كله جريمة الشرك والوثنية، جريمة التنكر للنبوة والتنكب عن الوصية، جريمةِ العصيان مع فساد المعتقد والسلوك والطويَّة، أن يُقابل الله ذلك كُلَّهُ برفع الضالين إلى مرتبة القوم المختارين، المعصومين من الزلل، والمحفوظين يوم انقطاعِ الأمل، فهذا خلاف ماعليه مقاييسُ العدالة الإلهية التي أكَّدَتْهَا التوراة! إنها طفرة لانرضاها في حق أُستاذٍ في مدرسة حين يُقابِلُ إبطاء الكسول المتعالي بتقديم الهبات الوافرة التي لايحلم بها أفضلُ المتفوقين، فهل نرضاها في حق رب العدل والحكمة ربِّ العالمين.

الربطُ بين الثوابِ والفسوق منزلقٌ خطيرٌ يدفع الناس إلى التحلل من التكاليف التي فرضَتْها الأَديان على أَتباعها، لأنَّ المخالف حينئذٍ يرتقي صعداً في درجات العطاء!

أَليس هذا انقلاباً كاملاً على أبسط بدهيات العدالة سواء في ذلك ميزانُ السماء أو مقياسُ الأرض؟!

وللمزيد أسجل الكلام التالي:

محطةُ الإنحراف عن جادة السماء لم تكن عابرةً في تاريخ القوم، لكنها صفةٌ لازَمَتْهُمْ في كلِّ عهودهم حتى في العصر الذهبي الوحيد أيّام داود وسليمان[1].

---

(١) يجدر بي هنا أن أذكُرَ ماأكرره مراراً من أنني اعتمدُ في ردودي على اليهود على مايتبنونه في كل أسفارهم من اعتقادٍ لامايقول به المسلمون. بهذه المناسبة فإن سليمان عند اليهود ساحرُ

المحطة الثانية في قطار هذه الرحلة بقيادة يوشع بن نون صاحب موسى الذي قاد القوم إلى أَرْض الغربة فلسطين. فما هي حقيقةُ الشعب في عهده؟

الإجابة نلتقطها من سفرٍ يحملُ اسم صاحبِ موسى يشوع:

«فقال الرَّبُّ ليشوع: قُمْ لماذا أنت ساقطٌ على وجهك» ٧/ ١٠.

«قد أخطأَ إسرائيل بل تعدَّوا عهدي الذي أمَرْتهم به، بل أخذوا من الحرام، بل سرقوا، بل أَنكروا، بل وضعوا في أمتعتهم» ٧/ ١١.

على أيِّ حال السفر يذكرُ هنا ماذكره سفرُ الخروج هناك من أنّ الرب فتح لهم باب توبه.

المحطة الثالثة تُسمَّى عهد القضاة تبدأ من وفاة يشوع بن نون حيث ظهرَ أوَّلُ قاضٍ في هذا العهد الطويل.

نقرأ في الاصحاح الثاني من سفر القضاة، ونتبصر ثم نعلِّق:

«ومات يشوعُ بن نون عبدُ الرَّبِ ابنَ مئةٍ وعشرِ سنين» ٢/ ٨.

«وفعلَ بنو إسرائيل الشرَّ في عَيْنَيْ الرب، وعبدوا البَعْلِيْم» ٢/ ١١.

«وتركوا الرب إلهَ آبائهم الذي أخرجهم من أرضِ مصر وساروا وراء آلهةٍ أُخرى من آلهة الشعوب الذي حَوْلهم، وسجدوا لها وأَغاظوا الرَّب» ٢/ ١٢.

«تركوا الربَّ وعبدوا البعلَ وعشتاروت» ٢/ ١٣.

«فحميَ غضبُ الرَّبِّ على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم، وباعهم بيد أعدائهم حَوْلَهُمْ...» ٢/ ١٤.

---

= لانبي! ابن زنى! مرتدٌ عن التوراة! صابئ إلى آلهة الكنعانيين الوثنيين! زير نساء! ومع ذلك فالهيكل المنسوب إلى سليمان مقدس عندهم، وسليمانُ في اعتقادهم متصف بكل نعوت الكفر والفسوق الوضيع من السُّوْقة!

«حينما خرجوا كانت يدُ الرَّبِّ عليهم للشرِّ كما تكلم الربُّ وكما أقسم الربُّ لهم» ٢/ ١٦ .

«وأقام الربُّ قضاةً فخلَّصوهم من يد ناهبيهم» ٢/ ١٦ .

«ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل زَنُوْا وراءَ آلهةٍ أُخرى وسجدوا لها . . » ٢/ ١٧ .

«وعندَ موت القاضي كانوا يرجعون وَيفْسُدُوْن أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهةٍ أُخرى ليعبدوها ويسجدوا لها ، لم يَكُفُّوا عن أفعالهم وطريقهم القاسية» ٢/ ١٩ .

«فحمي غضبُ الربِّ على إسرائيل ، وقال : من أجل أنَّ هذا الشعب قد تعدَّوْا على عهديَ الذي أَوْصيتُ به آباءهم ولم يسمعُوْا لصوتي» ٣/ ٢١ .

أمَّا في الاصحاح الثالث فنجدُ ماهو أشَدُّ غرابةً :

«فسكن بنو إسرائيل في وَسْطِ الكنعانيين و . . . » ٣/ ٥ .

«واتخذوا بناتهم لأنفسهم نسَاءً وأعْطَوا بناتهم لِبَنيهم وعَبَدُوا آلهتهم» ٣/ ٦ .

«فعمل بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الربِّ ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم» ٣/ ٧ .

«فحمي غضبُ الرب على إسرائيل فباعهم . . . » ٣/ ٨ .

وهكذا ينتقلُ بنا السِّفْرُ من مرحلة إلى أخرى ، ومن زمنٍ سابق إلى آخرَ لاحق من عهد القضاة ، ويؤكدُ في كل مرَّة أنَّهم يعملون الشرَّ ثم يعفو عنهم ، ومن ثَمَّ يغضبُ عليهم لما يقعُ من معاودتهم لفعل الفساد والإفساد .

وينتهي عهد القضاة ليعقبه عهدُ الملوك الذي يتصدرهُ الملك شاؤول[1] ، ومنه يبرز عصر القوة الذي جسَّدَهُ حكم داوُد وسليمان على الترتيب ، وفيه ظهرت معالمُ العزِ والسيادة تحت راية التوحيد ، وبقيادة اثنين من خيرة أنبياء الله ، وكان الحكم في ذلك الوقت لتعليمات الله من خلال توراة موسى وزبور داوُد .

---

(١) المسلمون يعرفون شاؤول بـ طالوت .

الغريب في الأمر أنَّ داوُد في نظر اليهود ساقِطٌ متصفٌ بكل نعتٍ ذميم لا نرضاه اليوم لأفَّاكٍ أثيم فضلاً عن نبيٍّ كريم!

إنهُ عندَهم مجرم! مغتصبٍ! زانٍ قاتل! متأمر! عاصٍ! فهل بعد هذه الأوصاف من فضائل تُذكر؟

والأغربُ من هذا أنَّ سليمان ليس نبيّاً بل هو ساحر! مؤذٍ! مرتدٌّ! ابنُ زنى! زيرُ نساء!

«الناسُ على دين ملوكهم» فإذا كان خيرُ ملوكهم على هذه الشاكلة من الانحطاط والفساد والضياع[1] فماذا يمكننا أنْ ننتظر من أفرادهم. بالتأكيد مزيداً من الانحلال الخلقي، والتحلل الديني، وصدق من قال: إذا كان رَبُّ البيت بالطبل ضارباً فشيمةُ أهلِ البيت كلهم الرَّقصُ.

بعد سليمان انقسمت المملكة إلى مملكتي يهوذا وإسرائيل.

الانقسام لم يقتصر على الجانب السياسي، وإنما تعدَّاهُ إلى كلِّ وُجوهِ الحياة، وفي مقدّمتها الجانبُ الديني، حيثُ تذكرُ أسفارُ العهد القديم أنَّ كلَّ ملكٍ من ملوكهم عمل الشرَّ في ميزان الربِّ على ماهو مفصَّلٌ في سفرِ الملوك الأوَّل.

هذه هي الصورةُ موجزةً عن فساد القوم في العقيدة والشريعة والسلوك، وعن محاربتهم لله ورسله وتعليماته، وهو الانحدارُ الذي توسَّلُوا به إلى استمطار غضب الربِ عليهم، لاسيما وأنهم عبدوا غيرَهُ، وتناسَوا شكره.

لقد عملوا الشرَّ في عهد موسى!.

ولقد كرّروا الشرَّ في زمن يشوع!.

ولقد تمادَوْا على سلطان الله في عصر القضاة!.

ثم استمر الحالُ السيءُ فيهم يطوِّرونه من هبوطٍ إلى انحدارٍ فانكسارٍ حيثُ

---

(١) أعود فأذكر أني لا أتبنى تفاهات اليهود كالتي سقتها بين يديك لكنني أهدُم بها ماابتنوه لأنفسهم من بيت العنكبوت المزعوم، المسمى إسرائيل.

هاويةُ الضلال المطبق أثناء سيادة الملوك عليهم، ولم يكن لهم من وميضٍ يُضيءَ ظلامَ تاريخهم إلاَّ في فترتي حكم داوُد وسليمان، غيرَ أنهم في حقيقة الأمر يعتقدون في تلك الحقبة خلاف مانجزمُ به نحنُ المسلمين.

في كل منزلقٍ وقعوا به في تاريخهم كانت رحمةُ الله تُدْرِكهم بأَلطافه، تفتحُ لهم نافذة توبة يُطلون منها على عالمِ الكمال علَّهم يتعظون، ويتداركون، غير أنهم على سيرة الجنابة عن درب الحق أقسموا أنهم سائرون، لذلك لم تكنْ لهم نافذةُ خلاصٍ يُرْفَعُ بها عن كاهلهم مانزلَ عليهم من تهديد إلا توبةً جديدة ماتلبثُ أن تذوب سريعاً لينتهي القوم مجدداً إلى محطةِ تأديبٍ إلهي.

الملاحظةُ الأُخرى نرصُدُها مِنْ عهد سليمان، ذلك أنَ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام اختفت في سنيٍّ حكمِ سليمان وهو الملك القوي، فهل بعد هذا من ضياعٍ وانحرافٍ واستهتار؟ فالتفكك والتصدُّعُ لم يكن في الحكم والسياسة فحسب، وإنما في الدين والعقيدة، فالتوراة اختفت والاختفاء استمر مئاتِ من السنين قضاها القومِ في بحرٍ متلاطمٍ من الدماء والحروب والأحقاد خلافَ ماأمَرَت به توراةٌ انعدمت. وبعد التدمير التام لكلا المملكتين سيق اليهود إلى الأسر خمسين سنة في العراق في ذلٍ وهوانٍ، فكيف إذا علمتَ أن قلوبَ القومِ عادت من أرْضِ الرافدين إلى فلسطين بطاقَةٍ من الأَحقاد هائلةٍ على أهل الشام والعراق بسبب القيد والأَسرِ تطورت بالتدريج إلى كراهيةٍ لكل شعوب الأرض بعد أَنْ وقعت فلسطين -وهي ذات الموقع الهام في قلب العالم القديم - في قبضة الفرس واليونان والرومان، وكيف إذا علمت أنَّ أحداثاً سوداء وقعت لهم في تلك العهود، بسبب مؤامراتهم الدنيئة وتخوف تلك الممالك من مكائدهم، وسطوة ملوكها وأمرائها ذات القبضة الحديدية، وهو ماهيَّأ الظروف لدخولهم في صراع مفتوح مع الامبراطورية الرومانية أسفرت عن حروب ومجازر انتهتْ بصدور أوامر ملكية في روما بتشريدهم في أنحاء الأرض، ولم يكن لتلك

التعليمات أَنْ ترى النـور لـولا اليقين الـذي استقر في أعماق العقلية الرومانية من أن اليهود في فلسطين هم مصدر الشرور والقلاقل والفتن، ومنْ أنَّ التفريق لهم هو مكمن التخلص من مكرهم الذي لاينقضي، ولاتتوقف عجلته.

ومنذ القرن الثاني للميلاد واليهود يفسدون في كل أرْض ينزلون، ويُبْغضون أهل كل عشيرة يجاورون، ولم يستقرَّ لهم جَفْنٌ إلا في ظل الخلافة الإسلامية حين تمتعوا بكل الحقوق رغم تاريخهم المثبت في سطور القرآن، لكنَّ حاكميَّةَ النصوص القرآنية على المسلمين في وجوب التعامل الأحسن مع أَهل الكتاب كان الكِنَّ الذي تفيَّؤوا بظله، وتحرَّكوا تحت سقفه أَمَّا أوربا فكانت حتى وقتٍ قريب مصدرَ تدميرٍ لوجودهم وكرامتهم، وكانت كلما اطَّلعت على خفايا تطلعاتهم المخيفة أَنزلت فيهم مزيداً من الويلات.

على ضوء هذا البيان الموجز لي أن أسأل:

ماهو العمل المشرِّف في حق أنفسهم وفي حق البشرية حتى اجتباهم الله إلى مرتبة شعب الله المختار؟!

ماذا قدَّموا بين يدي الله حتى استحقوا الاختصاص بأَرْضِ الأَبرار فلسطين؟

لايملكون إجابة إثبات. أمَّا نحنُ المسلمين ومعنا كل حُرٍّ وموضوعي في العالم فنملك الدليل القاطع الجازم على النفي، وبأَنَّ أرض الميعاد ليست أكثر من أُكذوبة كبرى، وأن الميعاد الحقيقي هو في هزيمتهم يوم يسعون في الأَرض فساداً، ويتطاولون على إخوتهم منْ أبناء الأسرة الإنسانية تحت مزاعم الشعب المختار، وما الحديث في سورة الإِسراء عن عُلُوٍّ كبير وإفساد عظيم يشهده الواقع اليهودي إلا دليلٌ على صدق النصِ القرآني لمن كان في قلبه رَيبٌ أَوْ شك، وماتهديدُ السورة ذاتها لليهود بتحطيم عُلُوِّهم إذا عَلَوا إلا شِقٌ آخر قادمٌ على أَيدي المؤمنين في يوم قريب إن شاء الله، وكلُّ آتٍ قريب. وكلاهما أيّ الإفساد والاستكبار والغطرسة والاعتداء والسفك والاغتصاب من جانب والتدمير الإِلهي من جانب آخرمما تتنافى مع زعم شعب الله المختار.

كراهيةُ الشعوب لهم في كل الأزمنة والأمكنة يتنافى مع زعم الاختيار.

ثُمَّ كراهيتهم للشعوب ونظرتهم إليها من زاوية الخدمة والبهيمية تتنافى أيضاً مع الزعم المذكور فيما لو كان ما ادَّعَوْهُ حقاً.

إنَّ هذا الوعد التوراتي ليس إلهيّاً ولا يصحُّ كونُهُ إلهيّاً، لأنه يقوم على أساس العرق والنسب لا على أَساس التقوى والعمل الصالح، أي: هو خلاف الدستور الإلهي، إِذْ ليس من سنن السماء إِثابةُ الإنسان العاصي خاصةً إِذا كان موغلاً في معصيته غارقاً في شهواته، نابذاً درب ربه، مقبلاً على نقيضه في الاعتقاد والممارسة. وقد تبين لنا قبل أسطر أنَّ اليهود لم يُقَدِّموا بين يدي رب العالمين أَيَّ عمل في أيِّ عهدٍ من عهودهم ينالون به مرضاة الله ليستحقوا المكافأة، لا بل إنَّ الوعد اقترن بأكثر عهودهم انحرافاً وتطرفاً وفساداً بشهادة التوراة نفسها! فبماذا استحقوا لقب الشعب المختار، بالكفر أم بالمعصية أم بالطغيان؟ بالمكائد أمْ بالمؤامراتِ أمْ بالافساد؟ التوراة شهدت عليهم بأَنَّهم عملوا الشرَّ في عيني الرب - حسب تعبيرها - وشهدت باستحقاقهم لغضب الإفناء، فأينَ الإفناء من الاختيار؟! لعل الربَّ الذي هدد بإفنائهم هو غير الرب الذي اختصهم بالشعب المختار! نعم هذه هي الحقيقة. فَرَبُّ الاجتباء لهم موجود في الداخل الذهني لتفكيرهم، ولا وجودَ له في الواقع، إنه الربُّ الذي يتمنون أَنْ يكون الله على شاكلته فهو يُقَدِّمهم على الأُمم كلمَّا أفرطوا في الدماء البريئة! وهو يرفعهم كلما شردوا الأبرياء! وهو يجتبيهم كلَّما سرقوا ونهبوا واغتصبوا ماداموا يهوداً! ولِمَ لا، وقد غفر لهم بهذا الوعد الانتهازي ماتقَدَّم من ذنوب جاليتهم وماتأخر حتى حقوق العباد وهو مايعكسُ الورم الخبيث الذي تمكَّن في تلك القلوب[1].



(١) سأتوسعُ في هذه النقطة بعد أنْ أنتهي من الأسئلة التي سأتوجه بها إلى القارئ الكريم بعونه تعالى.

تثبيتاً مني للنتيجة التي حكم بها عقلُ المستقرئ الحر، وجزم بها استنتاجُ الباحث الموضوعي، فإنني أتوجَّهُ بالأَسئلة التالية التي يكفي كلٌ منها لـردٍّ دعواهـم، وسأُفسـحُ المجال للقارئ الكريم ليجيبَ عليها:

السؤال الأول:

إِذا كان الله حَبَا فلسطين لليهود فلماذا لم يَخْلُقْهُمْ فيهـا منـذ بـدء الخليقـة، وهـم الذين يزعمون كذباً أنهم أقدم الشعوب وُجوداً، لكنَّ التوراة تصرح بأنَّ فلسطين كانت أَرضَ غُرْبةٍ لإبراهيم ولإِسـحاق ولإِسرائيل (يعقـوب) ولجميـع أَولادِ إِسرائيل الاثنـي عشـر الذيـن لـم يُوْلـد أيٌّ منهـم فيهـا، كمـا تصـرحُ بأنهـا كـانت محطـة عـابرةً بالنسـبة لصاحب الاختصاص بالوعد، اسرائيلَ وبنيه؟

السؤال الثاني:

وإِذا كـان الله قـد خصَّهـم بهـا فلمـاذا هـاجر يعقـوب منهـا، وهـاجر معـه بنـوه وزوجاتُهم وأَولادهم ومعهم أموالهم وعبيدهم؟

السؤال الثالث:

مـا السـبب في جعـل فلسـطين أرضَ غربـة لهـم، ثـم في التنـازل عنهـا بعـد ذلـك ليعقوب وذريته ملكاً أبديّاً؟!

السؤال الرابع:

لماذا الغربة في مصر مئات السنين بعد غربة فلسطين؟

السؤال الخامس:

يعقوبُ وبنوه عاشوا في مصر سادةً على شعبها بعد أن وصل يوسف إلى خزائـن الأرض، وصار صاحب الكلمـة الطُّوْلـى عنـد ملكهـا، كيـف لا ويوسـف أنقـذ البـلاد ومحميَّاتها بمشورته الموفقه، ثم هو الأمين المؤتمنُ على مال المملكة كلها.

فالسؤال إذن: لماذا لـم يرجـع إسرائيلُ وبنـو إسـرائيل إلـى فلسـطين ليحكموهـا

ويتملكوا أرضها وهي إحدى محميَّات مصر حيث يملكون الوظائف العليا والنفوذ والقرار؟ إذا كانت فلسطين لهم فلماذا تركوها حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد؟

السؤال السادس:

تغيَّرت الأوضاع بعد هزيمة ملوك الهكسوس وهزيمة بني إسرائيل أمام المصريين في الجنوب، لكنَّ الله خلص موسى من فرعون، حين رأى بأمِّ عينيه هلاكهُ في البحر، وتأكد بذلك من انحسار خطره عنه إلى الأبد، فلماذا لم يُسارع موسى في الدخول إلى فلسطين إذا كان الله قد ملَّكها له ولقومه والطريق صار مفتوحاً إليها؟! لماذا هذا التأخير أربعين سنة؟ وإذا كانت العقوبة لقومه قد حلَّت بهم فلماذا لم ينزل إليها موسى وهو النبي الكليم أي: هو خارج دائرة العقوبة؟ لماذا لم يطأ أرضها، ولم يشمَّ رائحتها ولو مرَّةً واحدة؟

السؤال السابع:

إذا كانت التوراة بهذه القدسية، وهي التي أطلقت الوعد التوراتي لبني إسرائيل بامتلاك فلسطين فلماذا أُنزلت في مصر ولم تنزل في فلسطين؟ ولماذا في الصحراء وليس في العمران؟ مامغزى أن تكون فلسطين وعداً توراتياً وملكاً أبدياً لهم ثم لايدخل موسى فلسطين فيمنعَ عنها، ولاتنزل توراته فيها ولو آيةً منها؟

أنا لاأستطيع أن أفهم لماذا لم يعاين موسى الأرض التي وعدته بها التوراة، وهو على مرمى حجرٍ منها! الحقُّ أنها أرض مباركة لكنها ليست له عليه السلام ولا لقومه إنما هم ضيوف عليها بعد أن هربوا من أرض مصر، إذ هي منفذٌ لاثاني له للوصول إلى بلاد أخرى وراءها.

إن موسى بشهادة التوراة مات في عَرَبَاتِ مُوآب في سيناء ولم يخرج منها إلى فلسطين التي بارك الله فيها للعالمين.

ثم ماهذه المقاييس التي تفتحُ على البشرية دوامة من الحروب التي لاتنتهي، وتفجر دماء تصبغُ الأرض لغزارتها؟.

ماهذه العدالة التي تجعل ملياراً وثلاثمائة مليون مسلم في صراعٍ مع الصهيونية

العالمية، ومن ورائها منظومة الدول الغربية التي تدور في فلكها لنستيقظ كل يوم على آلام الأَيَامى، وجِرَاح الثكالى، وصراخ الأطفال، ودماء الشيوخ والشباب؟

متى كانت نصوص السماء ترضى عن مشاهد الدماء التي تسفك، والخراب الذي يبرز، والراجمات التي تطلق على بطل شجاع عاري الصدر يتصدَّى للآلة المدمرة بإيمانه وبإيمانه فقط؟

متى كانت موازين السماء تُشْعِلُ فتنةً في برميل بارود ليأكل الأخضر واليابس في البر والبحر وفي كل أرض، فإذا بالعالم من حولنا يتخبطُ بين دعوات الإرهاب، ونداءات الذَّوْد عن الأرض والعرض والمقدَّسات، وإذا بالأصوات تتزاحم بين صراخٍ وصيحات، ووعيد وأحقادٍ ليقال لنا بعد ذلك على ألسنةِ اليهود أنفسهم، إنها حَرْبُ مقدَّسة؟!.

من أين أتت قداستُها؟ هل من شلالات الدماء التي فجرتها؟ أم من الفواجع التي أبْدَعَتها؟ أم من تشريد أبناء الدار الذين انتُزعوا من أرضهم ليزرعَ في الأرض شُذَّاذُ الآفاق بعد أن استوردوا من الشتات؟

إن البشرية لم تشهد في تاريخها فَصْلاً أبشع ولا أَقْذَرَ من هذا الذي نراه اليوم في فلسطين! كل ذلك باسم الرب! أيُّ رَبٍّ هذا الذي يتحدثون عنه؟ لاشك أنه رَبٌّ آخر غير الله رَبِّ العالمين. الاسمُ غيرُ الاسمِ، والمسمَّى غيرُ المسمَّى.

الإله الذي زرعوا وجوده في عقولهم اسمه «يهوه»، أما اسمُ ربِّ العالمين فهو «الله» أو «إيْل» وهي التسمية التوحيديَّة لله زمن إبراهيم عليه السلام، لذلك كانوا يقولون: «بيتُ إيل» أي: بيت الله، ومنه قيل ليعقوب: يعقوب إيل، وليوسف: يوسفُ إيل، أي: يعقوب الله، ويوسف الله، وذلك على طريقتنا اليوم في التسمية حين نُسَمِي: عبد الله، وقد كان هذا معمولاً به في تلك الأزمنة، حيث يضاف اسم الله «إيل» إلى اسم الشخص تبركُاً باسم الذات العليه[1]. قال العلامة المرحوم الدكتور

---

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه، الفصل الرابع: التوراة في ضوء المكتشفات الآثارية، الفقرة الثالثة، إله إبراهيم الخليل غيرُ إله اليهود ص ٤٦٤.

أحمد سوسه: «ومما يدلُّ على أن عبادة إبراهيم الخليل للإله «إيل» منفصلة تماماً عن عبادة اليهود للإله «يهوه» التي ابتدعها كَتَبَةُ التوراة بعد عهد إبراهيم بأربعمائة وألف سنة أنّ أسرة إبراهيم الخليل في ثلاثة أظهر كانت تضيف اسم الإله «إيل» إلى أسماء زعمائها، فإبراهيم الخليل نفسه هو النبيُّ الوحيد الذي سُمِّي «خليل الله» كما ورد في القرآن الكريم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ،[النساء: ١٢٥] ومن المرجح أن كلمة خليل كلمة عربية مركبة من (خل) و (إيل) بمعنى صديق الإله «إيل» ومثلها اسم إسماعيل الذي معناه ليسمع الإله «إيل» وكذلك اسم يعقوب (إسرائيل) الذي معناه عبد الإله «إيل»»[1].

أما اسم الإله المزعوم «يهوه» فهو غريب عن إبراهيم لامعرفةَ له به بشهادة التوراة نفسها في سفر الخروج ٦/ ٣.

وعن مسمى الإله فإبراهيم كان موحداً وقد جاء في التوراة: «فاستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض. . .» سفر التكوين: ٢٤/ ٣.

الدليل الثاني: أنَّ «إيل» هو مفرد «إيلوهيم» الكنعانية الدالة على الجمع والتعدد في الآلهة، واليهود عبدوا قائمة من الآلهة المزيفة يقع «يهوه» فرداً فيها.

الدليل الثالث: أن إله اليهود خاصٌّ بهم لايهمه من العالم سوى اليهود، أو مايسمونه شعب الله المختار! فليُذْبَح بعد ذلك من يُذْبح من غير اليهود! وليسفك دمُ من يسفكُ مادام غير يهودي! وليُستبح دمُ من يقف في وجه مطامع صهيون! وبناء على هذا المعيار فمن يقتل البريء المعترض على مشاريعهم السرطانية فإنه يخوض بحق - في زعمهم - حرباً مقدَّسة! لمَ لا ومصدرُ التقديس هو يهوه الإله الذي لن نجد له وجوداً إلا في قواميسهم. اسمه لايعرفهُ غيرهم، حتى إبراهيم - الذي ينتسبون إليه زوراً - لاعلم له به.

صفاتُهُ بعيدة عن صفات الربِّ وغريبةٌ عن حقيقته! إنه ربُّ إسرائيل أو رب الجنود جنود إسرائيل، أو ربُّ شعب الله المختار، أما ربُّ إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد

---

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه، الفصل الرابع، الفقرة الثالثة: إنه إبراهيم الخليل غيرُ إليه اليهود ص ٤٦٦.

عليهم الصلاة والسلام فهو ربٌّ العالمين كُلِّ العالمين لافرق بين عربيٍّ وأعجميّ مسلم أو مشرك أو كتابيٍّ فهو يرحمهم جميعاً ويرزقهم جميعاً ويمد يد العون لهم جميعاً.

أما «يهوه» وما أدراك ما «يهوه» فهو إله مزعوم على صورة البشر، ومسكنه في السماء، وقد ينزل إلى الأرض أحياناً. وهو يتصرف كأنه واحدٌ من الناس يأكل! يشربُ يمشي كالإنسان وله رجلان! يكتب بإصبعه! يحارب! يتكلم بصوت البشر!

«يهوه» إلهٌ أرعنٌ، جاهل يفعل اليوم مايندم عليه غداً!

«يهوه» شرير سيءُ المزاج قبليٌّ طائفيٌّ دمويٌّ يعيشُ في إطار شعبه الذي اختاره فقط! يعمل لهم ولأجلهم! وكأنهم هم الإله وهو الخادم عندهم لذلك أطلق الوعد التوراتي لإبراهيم: وأكونُ إلهَهُمْ! أي إلهَ ذرية إسرائيل لا غير[(1)].

«يهوه» يبث بذور الفتنة معتمداً أسلوب الإرهاب والتطرف والتدمير حتى ولو كان مَنْ وقع عليه الذبح مِن زمرة الأنبياء والصالحين والمتسابقين في خدمة الحق والعدالة ومَنْ سار على طريقهم مِن البشر! وكأني بيهوه أشبه مايكون برجل آليٍّ «ربورت» خال من المشاعر والرحمة والأحاسيس، يُنفِّذُ مابُرمِجَ عليه من غير أن يملك إنسانية البشر، أو سلطة الدين الحق الكابح لجماح البشر.

جاء في الاصحاح السابع من سفر التثنية: «متى أَتى بك الرَّبُّ إِلهُك إِلى الأَرض التي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها وطَرَدَ شعوباً كثيرة من أمامك الحِثّيين والجرجاشيين والآشوريين والكنعانيين والفِرِزّيِّين والحِوِّيِّين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك» ٧/ ١.

---

(١) هذا دليل ليس بعده دليل على تسلل عقائد أهل الوثن على عقيدة اليهود بعد أن تأثروا بثقافة الكنعانيين الذين اختصت كل قبيلة من قبائلهم بإله خاص بها، وهو مايعرف بمبدأ التفريد أي: تفرد كل مدينة أو قبيلة أو جماعة بإله يخصها وتختاره من بين آلهة كثيرة كانت تتربع على مسرح الأحداث في فلسطين زمن الكنعانيين، وهو مايثبت أيضاً أن بني إسرائيل وافدون على فلسطين، متأثرون بسكانها الأصليين، وأن الدِّيْنَ الذي يتحدثون عنه بمنأى عن الدين السماوي الذي أنزله الله عز وجل.

«دفعهم الربُّ إلهُك أمامك وضَرَبْتَهُم فإنك تُحَرِّمُهُمْ لاتقطعْ لهم عهداً ولاتُشفقْ عليهم» ٧/ ٢ .

«ولاتُصَاْهِرْهُمْ. بنْتُكَ لاتُعْطِ لابنه، وبنتَهُ لاتأخُذْ لابنك» ٧/ ٣ .

«لأنَّك أنتَ شعبٌ مقدَّسٌ للربِّ إلهكَ. إيَّاكَ قد اختار الربُّ إلهُكَ لتكونَ له شعباً أَخصَّ من جميع الشعوب الذين على وجْهِ الأرض»[1] ٧/ ٧ .

أما الله ربُّ العالمين فهو في عقيدة إبراهيم ليسَ كمثله شيء، وهو في عقيدة إبراهيم وموسى وعيسى وعقيدة كل دينٍ سماوي حكيمٌ في منتهى الحَكمة، رحيمٌ في منتهى الرحمة، لذلك لاغرابة أن تصف الآية الثانية في القرآن الكريم ربَّ العالمين بالرحمن الرحيم، فهي رحمة دون رحمة، ورحمة من ورائها رحمة، لتشمل رحمته دقائق النعم وجلائلها الدنيوية والأُخرويَّة ، فأين هذا من ذاك؟

«يهوه» يجعلُ أعراض الناس مستباحة، وأموالهم غيرُ مصانة! جاء في الاصحاح الثالث من سفر الخروج: «بل تطلبُ كلُ امرأةٍ من جارَتها ومن نزيلة بيتها أَمتِعَةَ فضةٍ وأمتِعَةَ ذَهَبٍ. وثياباً وتضعونها على بَنِيْكُمْ وبناتكم. فتسلبون المصريين» ٣/ ٢٢ .

قال الدكتور أحمد شلبي: «فَيَهْوَه ليس خالقاً لهم، بل هو مخلوقٌ لهم، وهو لايَأمُرُهم، بل يسيرُ على هواهم، وكثيراً مايأتمرُ بأمرهم، وفي يهوه صفاتُهم الحربية إن هُمْ حارَبوا، وصفاتُ التدمير، لأنهم مدمرون، وهو يأمُرُهم بالسرقة إذا أرادوا أن

---

(١) في هذا السفر فظائع وجرائم ومخططات لتصفية سكان فلسطين الأصليين. أيضاً في الفقرة ٧/ ١ ومابعدها توسع في دائرة الوعد التوراتي يتجاوز الكنعانيين واليبوسيين وسائر سكان فلسطين إلى الآشوريين وهم عراقيون. كما أن الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين يتوسع بإعطاء أولاد إسحاق من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، وهو ماتعد التوراة أنه سيتم بالقوة والقهر وذلك بعد أربعمائة سنة من التشريد. هذا كله يثبت أن الوعد نازيُّ المولد، فاشيُّ السيرة، كريه الرائحة، مذموم العاقبه، فالروح التوسعية الاستبدادية عند حاخامات اليهود لم تكتف بفلسطين، وإنما تمهدُ لما وراءها بعد استتباب الأمر لليهود فيها، هذا وحَده ينفي عن الوعد كل صفة دينية أو توثيقية .

يسرقوا، ويَعْلَمُ منهم مايريدُ أن يعلمَ...»[1].

إذن يهوه رمزٌ يعكسُ الضمير اليهودي الأسود، والشخصية اليهودية الشاذة، والمسيرة اليهودية المضطربة، وعليه فلا غرابة أن يُشرف شارون على عملية قصف عشوائية من مستوطنة تطلُّ على قطاع غزة، ليصرح بعد ذلك أمام عدسات المصورين بأنه يعمل على حماية المواطنين الإسرائيليين في مشهد سقط فيه الكثير من الجرحى مسفراً عن دمارٍ واسع، ولا غرابة أن يصدر في نفس الوقت عن الحاخام اليهودي العراقي المولد، الزعيم الروحي لشاس عوفيديا يوسيف تصريحات وفتاوى في وجوب سحق العرب بالصواريخ وهو الذي سبق وقال أمام شاشات المشاهدين: جاء في التلمود أن العرب كالأفاعي، وأنَّ الربُّ ندم أن خلق أولاد إسماعيل!: مَنْ هذا الربُّ الذي يندم على خلق أمة العرب التي نشرت الحضارة والفتح والرحمة في البشرية قاطبة؟.

إنه الربُّ الذي ابتدعته عقولهم الخبيثة وضمائرهم الفاسدة.

«يهوه» إلهٌ يتَزوَّجُ، وقد عُقِدَ قِرَانٌ بين يهوه وإسرائيل وكانت السمواتُ والأرض شهوداً على ذلك[2].

قال الباحثُ المصري إبراهيم خليل أحمد ـ سابقاً القس إبراهيم خليل فليبس:

«إن للشرور في السلوك اليهودي جذوراً عقائديَّة، فالتوراة بوضعها الحالي تفسحُ المجال أمامَهُمْ «كشعب مختار» لكي يَنْهبوا ويَسْرِقُوا ويقتُلوا الشعوبَ الأُخرى»[3].

هذه البشاعات (وإيديولوجياتها) إنما تسعى إلى تمرير أقذر مخططٍ عرفته البشرية في تاريخها تحت شعار شعب الله المختار، والوعد التوراتي لذاك الشعب.

يؤسفني أن أقول:

---

(١) «اليهودية» د. أحمد شلبي. فصل بعنوان: عقيدة بين إسرائيل من غير القرآن الكريم، فقرة بعنوان: «صفاتُ يهوه» ص ١٧٧.

(٢) نفس المرجع. فصل بعنوان: الشعب المختار والمسيح ص ٢٠٩.

(٣) «إسرائيل والتلمود» فصل بعنوان: العنصرية لدى اليهود ص ١١.

إن تشريدَ طفلٍ عَنْ كَنَفِ أبيه أو صَدْرِ أُمه يُعَدُّ كارثةً إنسانية فكيف بتشريد ملايين الأطفال.

وإن تعريض أبناء أُسرة لليُتْمِ جريمةٌ نكراء فكيف إذا كان اليُتْمُ وصفاً جَرَّ إليه آلافَ الأُسر، بل مئاتَ الآلافِ منها؟

وإن تَرْمِيلَ امرأةٍ بقتلِ زوجها عملٌ إرهابيٌّ فكيف بنا وقد صار عملاً يومياً يمارسُ في حق نسائنا في فلسطين؟

ثم أليس اغتصابُ قطعة أرض من بيت أو مزرعة جريمةً يعاقبُ عليها القانون؟ أليست المحاكمُ في مشارق الأرض ومغاربها تنظر في قضايا الغصب والسرقة تنتصفُ من الجاني وتنصف المظلوم؟ أليس هذا ماتعارف عليه الناسُ في شأن قطعة أرض صغيرة، فماذا يمكن أن نقول في أرض هي أضعافٌ مضاعفةٌ آلاف المرات عن تلك، وفيها الملايين من البشر؟

أهذه دعوة سماء؟

وهل هكذا تكون عدالة السماء؟

كم من دماء أُريقت وستراقُ بسبب هذا الوعد الملعون! أو قُل إن شئت: هذا الوعدِ المكذوب.

وكم من الحقوق ضاعت!

وكم من الحروب أُعلنت وستُعلن!

وكم من الويلات وقعت!

مابين الإله المزعوم، والاختيار المشؤوم تتبدَّى لنا أركان العقلية اليهودية المستندة إلى إلهٍ يختاروشعب مختار.

هذه الأسئلة أختمُ بها سلسلة الأسئلة التي ابتدأتُ بها تعقيبي على ماذكرتُ سابقاً.



كان مادوّنته قبلُ الشقّ الأوّل في تقويض الوعدِ التوراتي على قواعد البحث العلمي الحر.

الشقُّ الثاني يأتي من جانب إصرار اليهود على الانتساب إلى الخليل، وإطلاق الوعدِ له في التوراة على لسان الربّ فهل حقاً أطلقَ وعداً بهذا الخصوص لذريته من نسل إسحاق ويعقوب؟.

للإجابة على هذا التساؤل لابُدَّ لنا من استحضار ملخصٍ عن الخطوط البارزة والراسخة في الشخصية الإبراهيمية:

قلنا إنَّ إبراهيم واحدٌ من الأنبياء الذين أجمعت الأمم على وجودهم، وعُلُوِّ مكانتهم، وتشرَّفت بالانتساب إليهم.

وقلنا إنه واحدٌ من الذين تبؤوا مركز الصدارة في اقتداءِ الأجيال بهم. فهو للمرسلين إمامٌ، وبين المتقين إمام، وفي الموحدين إمام. إمامٌ للأنبياء وأصحاب المبادئ في البذل والتضحية والعطاء. إمامٌ للمهاجرين في سبيل الدين والعقيدة. إمامٌ للمغتربين بسبب إيمانهم. إمامٌ للمبتلين في الأهل والعِرْض. إمامٌ للمحاورين. إمامٌ للآباء في تربية الأبناء. إمامٌ للأزواج في معاملة أزواجهنَّ.

باختصار: إبراهيم إمامٌ في كل خير، وإمامٌ لكلِّ صنوف البشر[1].

الآن نستقرئُ حالات الأئمة في كل عصر، وفي كل فن، فنجد أن كلاً منهم يسمو بنفسه فوق الشبهات، ويقيم من جهاده جسراً تعبرُ منهُ الأجيال إلى الفضيلة، ومن صبره رمزاً تُداسُ به الرذيلة، هذا في حق عامة الصالحين المصلحين، أمّا في حقِّ

---

(١) في هذا المعنى آياتٌ منها: ﴿إنَّ اللهَ اصْطَفى آدمَ ونُوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمْرَانَ على العَالَمِيْن﴾ آل عمران/ ٢٣ ﴿وتلْكَ حُجَّتُنا آتيناها إبْراهيمَ على قومه﴾ الأنعام/ ٨٣. ﴿إنَّ إبْرَاهِيمَ لَحَليمٌ أوّاهٌ مُنيب﴾ هود/ ٧٥. ﴿واتَّبعْتُ ملَّةَ آبائيْ إبراهيم وإسحاقَ ويعقوب﴾ يوسفَ/ ٣٨. ﴿إنَّ إبْرَاهِيْمَ كَانَ أمَّةً قانتاً لله حَنيفاً﴾ النحل/ ١٢٠ ﴿واذكُرْ في الكتاب إبْراهِيمَ إنَّهُ كانَ صدِّيقاً نَبيّاً﴾ مريم/ ٤١. ﴿وإبراهيمَ الَّذيْ وَفَّى﴾ النجم/ ٣٧.

واحدٍ من الأنبياء المرسلين فالصورة أكثر وضوحاً، وأشدّ رُسُوخاً، فكيف إذا كانت الحديثُ عن إمامٍ لهم جميعاً، وأبٍ كريم فيهم.

النبوةُ اصطفاءٌ من الله عزّ وجلّ تقتضي قبل كل شيء الحفظ والعصمة لصاحبها لأنه في موقع القدوة لغيره، فلو عصى أو انحرف لانطلقت الأجيال في إثره، لذلك امتنعت في حق أنبياء الله المعصية.

فماذا ننتظر من إمام البشرية أن يفعل في حق أولاده؟.

ماذا تتوقع من معصوم أن يُوصي أو يَعظ؟

بل ماذا يمكن لأبٍ عاقل أن يدعو إليه أولاده، فضلاً عن أن يكون إماماً مُسَلَّماً بإماميَّته؟

لو أطلقنا نظرةً فاحصةً في كلِّ الأُسَرِ المستقرة في تاريخنا المعاصر، والماضي، فسنجدُ الآباء يسوسونها على قاعدة العدل بين الأبناء. العدل في المعاملة، والعدل في القِسْمَةِ والعطيَّة، والعدل في الميراث والوصية. مردُّ ذلك أن الأبناء ينظرون إلى والدهم من بعد متساوٍ بُعْدَ النقاط المتوضعة على محيط دائرة بالنسبة لمركزها. البنت ترى في والدها أباً لها، لاتختلف أُبوتَّه ولو قليلاً عن أُبُوَّة أُختها أو أَخيها، والابنُ يرى في والده أباً رحيماً من نفس الزاوية، ونفس البعد الذي يراهُ بها أَخوه.

حينما يعدلُ الآباء بين أبنائهم فإن ذلك يُلاقي في وجدانهم فطرةً فُطروا عليها فيتفاعلون مع عَدْله وينسجمون مع بعضهم، ويحيطون بأبيهم إحاطة السوار الذهبي بالمعصم في حنانٍ وارتباطٍ وترابط فيظهرُ التلألُؤ جلياً، ويبقى والدهم الملتقى المتين الذي يجمعهم ويمثلهم، ويذيب الثلوج من بينهم إذا سقطت.

أما إذا انجرف رَبُّ الأسرة خلف ميوله النفسية، فقرَّبَ منهم فرداً، وأَقصى آخر، فإن البُعْدَ المتساوي الذي فُطِرَت نفوسهم عليه يصبحُ متبايناً، والتقدير الذي كان قائماً في القلوب يأخذ بالانكماش شيئاً فشيئاً إلى أن يتلاشى عند بعض الناس.

هذه حقيقة قد يَكْبِتُهَا الأدبُ عند شريحة من الأبناء، غيرأن الغيرة المتفجرة في

داخلهم كبُركان هادر قد تظهرها عند شريحةأخرى، وربما خرجت عنيفةً بعد هدوء ظاهر، يوم يرحلُ الوالدُ عن الدنيا، مخلفاً وراءه أحوالاً معوجة تقاذفتها الأهواء منذ أن تخلى المركز الواحد عن بعضها على حساب البعض الآخر. هنا تتسلل الضغائن إلى جسم الأسرة الواحدة، فتمزقه إرْباً إرْباً، فإذا بالوحدة تستحيل إلى فرقة، وبالرحمة تتبخر إلى أحقاد، وبالودِّ إلى تنافر، فتختلف القلوب، وينسحبُ الحكمُ على الأجساد، فتتصادم المصالح، وتنقطعُ الصلات، وتحصدُ الآلام.

هاتان صورتان تتكرران في حياة البشر مع بزوغ كل فجر:

رَبُّ أسرةٍ عاقلٍ يحفظ مكتسباته من ولد ومال وسمعة بانتهاجه سياسة العدل بعيداً عن عاطفته الشخصية، وآخر جانحٌ تذهبُ رعونتُهُ بكل مابناه في سنيِّ العمرِ الطويل.

الذي سلَّمنا به قبل أسطر أن إبراهيم إمامُ كلِّ الشرائح في المجتمع، وعلى مَرِّ الأجيال، وبالتالي فإبراهيم إمامٌ لكل الآباء في تربية الأبناء، فهل ينزلقُ الإمامُ إلى درجة ينحطُّ فيها عن مستوى الرجل الحازم الحريص على بريق اسمه، ومستقبل بنيه؟

الإجابة معروفة سلفاً. إذن أَنَّى لنا أن نُصَدِّق أن إبراهيم الإمام وإبراهيم النبي وإبراهيم الخليل، وإبراهيم الأب وإبراهيم الرحيم، ينساق خلف غرائز امرأة تدعوه ليخصَّ ابنها الوحيد بالفضل، ليحرم ولد ضرَّتها منه جملةً وتفصيلاً مكتفياً بالفتات يلقيه إليه مما لايمنع جوعاً ولايسدُّ رَمَقاً! امرأةٌ تدعوهُ ليرعى الولد الجديد ويقدم له التربية والأمن، الرحمة والبيئة المتحضرة وليسلب من ابنه الآخر كل شيء! تدعوه ليجعل فلسطين كلها له ميراثاً، ويُقْصِيَ إسماعيل وأولادَ قطورة ضرَّتها الأخرى من ذلك كله! فهل يستجيبُ لها وهو الزوج القدوة، والرجل الكامل، والنبيُّ الإمام؟

لو كان الإرث الإبراهيمي بيتاً فسيحاً، أو حديقة غَنَّاء لأدَّتْ وصيَّتُهُ هذه إلى إيقاد نار الفتنة بين بنيه - وليس بفاعل - فكيف إذا كان الميراثُ الأرضَ المباركة فلسطين وهي جنَّةُ الله في أرضه؟. لا، لم يفعل، وماهو بذاك الرجل الظالم، ولا بالأب الأرعن. لقد أُمِرَ نَبِيُّنا محمدٌ ﷺ أن يتخذ من إبراهيم منارةً تهتدي بها أمته، ويقتدي أتباعه، ولقد بلغ من حُبِّه أن سمَّى ولده الذَكَرَ إبراهيم على اسم جده المقتدى به، وهو لم يرزق بِذكَرٍ سواه. وهاهو يسيرُ

على سنّته شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وهل ينسى المسلمون يوم دخل على رسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام رجلٌ قائلاً: إنِّي نَحَلْتُ ابني هذا غُلاماً فقال له نبيُّ الهدى محمدٌ ﷺ: «أكُلَّ بنيك نَحَلْتَ» قال: لا. قال فارْدُدْهُ. وفي رواية «فأرْجعهُ». وفي رواية أن النبي ﷺ وجد غلاماً، فقال: ماهذا؟ فقال ابنُ السائل: أعطانيه أبي، فقال عليه السلام لأبيه: «فكلَّ إخْوَته أعطَيْتَهُ كما أعطيْتَ هذا؟ قال الرجل: لا، قال النبي ﷺ: «فَرُدَّه». وفي رواية أن المعطى هو النعمانُ بن بشير وهو يروي لنا ماحصل فيقول: تصدَّقَ عليَّ أبي ببعض ماله فقالت أُمِّي عَمْرَةُ بنتُ رَواحةٌ لاأرضى حتى تُشهدَ رسول الله ﷺ، فانطلق أبي إلى النبي ﷺ لِيُشْهِدَهُ على صَدَقَتي، فقال له رسول الله ﷺ: «أفَعَلْتَ هذا بولدكَ كُلِّهم؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله، واعْدلُوا في أوْلادِكم» فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة. وفي رواية قال له رسول الله ﷺ: «يابشيرُ ألك ولدٌ سوى هذا؟» قال: نعم، فقال: «أكُلُّهُمْ وَهَبْتَ لهُ مثلَ هذا؟ قال: لا، قال: «فلا تُشْهدْني إذاً فإني لاأشهدُ على جَوْر» وفي رواية: «أَشْهِدْ على هذا غيري» ثم قال: «أيسرُّكَ أَنْ يكونوا إليك في البرِّ سواء»؟ قال: بلى، قال: فلا، إذن[1].

هذه هي الضوابط التي سار عليها خاتمُ الأنبياء محمد ﷺ مقتدياً بأبيه إمام البشر إبراهيم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقوله: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقوله: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [آل عمران: ٩٥].

---

(١) هذه الروايات نقلاً عن صحيح مسلم برقم ١٦٢٣، وقد أخرج البخاري في صحيحه الحديث برقم: ٢٤٤٦، ٢٤٤٧.

فإذا كانت هذه سيرة المقتدين من الأتباع والذُرِّيَّة، فهل تكون سيرةُ المقتدى به على نقيض ذلك، لا والله، ولو كانت كما يزعمون لَمِنعَ نبيُّنا محمد ﷺ من الاهتداء بسنته، واتباعِ ملته.

لقد سمَّى رسولُ الله ﷺ عطيةً قليلةً مع عدم المساواة جَوْراً ـ ظلماً ـ فماذا نُسَمِّيَ عطيةً عظيمة تمتدُّ إلى كل شبر في فلسطين[1].

هذا في جانب إمامِّية إبراهيم للآباء في قيادة أبنائهنَّ، أما في جانب إمامِّيته المطلقة للعالمين، وإمامِّيته في المعاملة والخلق الكريم، فالوعدُ مستحيلٌ مستحيلٌ مستحيلٌ. لماذا؟ لأن إبراهيم نزل ـ بشهادة التوراة ـ ضيفاً في فلسطين على أهلها الكنعانيين. ولأن إبراهيم كان بشهادة التوراة رجلاً صالحاً أحبَّهُ سكان فلسطين.

الأهمُّ من ذلك أن إبراهيم لم يكن يتعاملُ مع سكان الدَّار على أن فلسطين أرضٌ يمتلكها، وإنما كان في منتهى الأدب الذي يراعي فيه المسلمُ حقَّ الجوار، وآداب الضيافه، وهو ماتشهدُ به نصوصهم. أعودُ وأقرُ عليك نصاً توراتياً سبق وأن تعرضتُ له في هذا الكتاب:

«وانتقل إبراهيمُ من هناك إلى أَرضِ الجنوب، وسكن بين قادَش وشُور،

---

(١) علماءُ الإسلام متفقون على لزوم التسوية في العطية بين استحباب ووجوب، قال الشافعية والحنفية والمالكية تندبُ التسوية ويجوز التفضيل، وقال جماعة منهم أحمد والثوري وطاوس وإسحاق وآخرون تجب التسوية بين الأولاد في العطية أو الهبة، وتبطل العطية مع عدم المساواة، عملاً بظاهر الأمر في الأحاديث، والأمر يقتضي الوجوب من مثل قوله في إحدى الروايات: «اعدلوا بين أولادكم» والتسوية تكون باعطاء الذكر مثل الأنثى سواء بسواء أخذاً من ظاهر رواية عند النسائي: «ألا سوَّيتَ بينهم»، وعند ابن حبان: «سوُّوا بينهم» ولحديث ابن عباس: «سوُّوا بين أولادكم في العطية، فلو كنتُ مفضِّلاً أحداً لفضلتُ النساء». وقال الحنابلة: «التسوية أن يجعل للذكر مثل حظ الأنثيين وفق التوريث، وكذا قال محمدُ صاحب أبي حنيفة. كما جاء عن الإمام أحمد جواز التفاضل إن كان له سبب، كأن يكون عند الولد نقصٌ عن إخوته كزمانةٍ مرضية أو عمى أو قضاء دين أو كثرة عائلة، أو الاشتغال بالعلم. الفقه الإسلامي وأدلته. د. وهبة الزحيلي ج٥ ص٣٥.

وتغرَّبَ في جرَار» ٢٠/ ١.

«أَنا غريبٌ ونزيلٌ عندكم، أَعْطوني مِلْكَ قبرٍ لأَدْفن مَيْتي مِن أَمامي» ٢٣/ ٤.

«فأجَابُ بنوحِثَّ إبراهيم قائلين له» ٢٣/ ٥.

«اسْمَعْنَا ياسيدي، أَنت رئيسُ من الله بيينا، في أَفضل قُبُورِنا ادْفنْ ميتك» ٢٣/ ٦.

إبراهيمُ يقول لأهل فلسطين: أَنَا غريبٌ، وإبراهيم يقول: إنهُ نزيلٌ عند أبناء فلسطين هذا يعني أنه طرأ عليها، ولم يكن أوَّلَ من سكنها، ولا كان مالكاً لأرضها.

إبراهيم يقول لهم: أَعْطُوني مِلْكَ قبرٍ لأدْفِنَ ميتي من أمامي. فهل يقول هذا من مَلَّكه الله الأرض بطولها وعرضها؟ لو كانت فلسطين له لما قال لهم أعطوني. لايسألُ إلا الفاقد، ولايُعطى إلا الواجد. إن إبراهيم لم يكن يملك حتى متراً في مترٍ من أرض فلسطين ليدفِنَ فيها زوجَهُ، فهل هذا فعلُ المالكين الموهوبين؟

لو كان في سلوكِ إبراهيم في فلسطين مايُفصحُ عن طمعٍ منه فيما ليس له - أو كما يقولون فيما وُعدَ به - لما قال بنوحِثَّ له: اسمعنا ياسيدي، أنت رئيسُ من الله بيننا. هذا يعني أنهم يعترفون بفضله ونبوته، فهم لم يقولوا: رئيسٌ علينا، بل قالوا: رئيسُ من الله بيننا، أي: فيما بيننا. وإبراهيمُ كما قرأت كان وافرَ الحُظوةِ عند سكان فلسطين الأصليين، ذا مكانة مرموقة، وعِزٌّ قائم، وتبجيلٍ لايشوبُهُ نفاق، كما لم يكن مالكاً أو زعيماً سياسياً فيتملَّقَ إليه بَنُوْحِثَّ، لكنه نبيٌّ مرسل، إمامٌ تقي، ولاشيء سوى ذلك.

فأين المُلك والتملُّكُ والزعامةُ من هذا؟

نقطةٌ أخرى: القوم لم يُقصرُّوا في استضافة إبراهيم، والمبالغة في إكرامه، فهل يكون إبراهيمُ - وهو إمامٌ - ناكراً للفضل؟ وهل يوجُه الطعن بخنجره الشريف إلى صدرلم يجد منه إلا الرحمة والحنان؟

وهل جزاءُ إحسان أهل فلسطين لإبراهيم أن يسلبهم أرضهم، ويُسَلِّط سيفَ ذرِّيته على أبنائهم؟

هل يفعل التقيُّ العاقل مايؤدي إلى تفجر فتنة تسيلُ فيهاالدماءُ أنهاراً بين أبنائه وأبناء من تشرفوا في استضافته لتُسلبَ حُرُماتُ الجانبين! وتنتزع الأرض من أصحاب الدار، نزعاً ليُشَرَّدَ أبناؤها في كلِّ أرض!؟.

هل يتفقُ هذا مع ماهو مسلَّمٌ عند الجميع من أن إبراهيم إمامٌ في كلِّ شيء. مقتضى العدل أن يقابل المعروف بمعروف أعظمَ منه، ومايزعمونه من الوعد التوراتي على لسانه يتنافى مع هذا، فالمعروفُ قُوبِلَ في رأيهم بالعقوق، والفضلُ قُوبِلَ بالجحود. والحق أن إبراهيم لم يكن كذلك بدليل قوله على لسان التوراة: «أَعْطُوني مِلك قبر». إنه لايعتدي، إنه يُعلّمُ الأجيال أن لاتعتدي ولو بامتلاك قبر صغير. إنه لم يرض أن يأخُذَهُ عنوةً، ولا سَرَقَةً تحت أي مبرر آخر، فما قولهُ اليوم لو شاهد من ينتسبون إليه يسلبون كل أرض فلسطين وهي تساوي بالمساحة قراب مائة ألف كيلومتر مربع، أي تساوي جريمة اغتصاب قبرٍ مساحته طولاً وعرضاً مترٌ مربعٌ واحدٌ مضروباً بألف متر مضروباً بمائة ألف! فكم جريمتهم خطيرةٌ متضاعفة. وإذا كان القبرُ لايؤدي بمغتصبه لأن يطردَ أحداً من أرضه ـ وإبراهيم لم يفعل ـ فكم يكون العمل إرهابياً ومتطرفاً عندما يؤدي إلى تشريد خمسة ملايين إنسان بعضهم يعيش في ظروف حياة لاتتوفر فيها أدنى مقومات الحياة، ومن بقي من أهلهم في الأرض فإنه أسيرٌ في السجن الكبير فلسطين. وإذا كان القبرُ لايعدو أن يكون قطعة أرض لاإشادة عليها ولازرع فكم تكون الجريمة شنعاء، وكم تكون الفعلة متطرفة، والممارسة إرهابية قذرة وقد اغتصب اليهود أرضاً شُيِّدَت فوقها الأبنية وزُرِعت في حقولها نباتاتُ الخير، فاجتث كل ذلك ليمحو آثار أصحاب الأرض الأصليين.

الخليل لم يجرؤ على نبش ترابٍ ليدفن فيه زوجة المتوفاة، فهل يبيح لمن ينتسب إليه زوراً أن ينبش تراباً لهُ حرمته بعد أن أُودِع فيه موتى الصحابة من أتباع ولده محمد ﷺ، ومن المنتسبين إلى نبيِّ الله عيسى عليه السلام من مسلمين ونصارى إلى هذا العصر.

ثم إن إبراهيم يُعَلِّمُ الأجيال كيف ترعى حق الجوار، والوعدُ التوراتي يتنكر لتلك الحقوق.

ثم إن إبراهيم يشهدُ لأهل فلسطين بالفضل، والوعدُ التوراتي تأباهُ تلك الشهادة.

فالوعدُ باطل، والموعودُ به باطلٌ، وهو ليس أكثر من مؤامرةٍ فرِّيسيَّة صهيونيةٍ آثمة اكتست ثوب الدين لتحصيل الباعث عند العامة، فتنال القبول في قلوب الأتباع، لذلك انتقلت من جيلٍ إلى آخر انتقال العقيدة الراسخة فصلبت في جدار زمنهم، وتمكنت من أصحاب ثقافة هشَّة، ونفسية مريضةٍ آثمةٍ، حتى صِرْنا نسمعُ اليوم على شاشات (التلفاز)، ومن خلال الأقنية المختلفة، اليهود المعاصرين يعلنون أن هذه الأرض لهم وأن الربَّ إيَّاها مَلَّكَهم، وأن العرب ماهم إلا مجموعاتٌ من الإرهابيين المغتصبين، تتفضَّلُ حكومات إسرائيل المتعاقبة بالإذن لهم ليعيشوا في ديارٍ أجنبيَّةٍ عنهم!.

بهذه الضآلة الفكرية يقفون أمام الكاميرات الإعلامية، يقلبون الصورة، وكأنَّ أبناء فلسطين غرباء عن أرضهم التي عاش آباؤهم فيها لآلافِ السنين!!!



النقطة الثالثة أن الوعد التوراتي مدوَّنٌ في التوراة التي بين أيدينا اليوم، ومنسوبٌ إلى ذي القوة المتعال مالك الملك وصاحب الأمر. فإن كانت التوراة كلام الله فالوعدُ حقٌ، وإن كانت التوراةُ قد ضاعت نسختها الأصلية، وبرزت أخرى مُزَوَّرة فالوعدُ كاذب.

إنني أسألُ التوراتيين توثيقاً منهم لسند التوراة يثبتُ صلتها بموسى. هذا السؤال عندما يصدرعن مسلم فإنه لايعني تكذيباً منه لنبوة موسى أو لتوراته المباركة، فهما من أركان الإيمان بالله وبمحمد رسوله عليه السلام، ولولا أن اليهود اليوم امتدت أيديهم إلى أرضنا الحبيبة فلسطين باسم التوراة، وتحت شعار الوعد التوراتي المشؤوم لما كلَّفْتُ نفسي عناء المشقة في طلبِ الاستيثاق من توراتهم، لنعلم يقيناً صدق الوعد أو كذبه.

حدَّثتك في مدخل هذا الكتاب أن اليقين العلمي يأتي من جهة الخبر المتواتر الذي اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذٍ ولا علة، فهل للتوراة سندٌ يستطيع التوراتيون تقديمه لنا؟. الإجابة بإجماعهم لاتخرج عن دائرة النفي.

نُخَفِّضُ مستوى السؤال بعد إجابة النفي تلك:

هل بين أيدي اليهود نسخةٌ ترجعُ إلى المصادر الأولى لدينهم في عهد موسى عليه السلام؟ الإجابة أيضاً لاتخرج عن سابقتها بإجماعهم.

نخفِّضُ مستوى السؤال للمرة الثانية ونسأل: هل لديهم نسخةٌ ترجعُ إلى عهد القضاة الذي امتد زمناً طويلاً بعد موسى؟ الإجابة لاتختلف.

نخفض للمرة الثالثة ونسأل: هل عندهم نسخة ترجع إلى عهد داود وسليمان؟ الإجابة ذاتها.، إن مصادرهم تذهب إلى اختفاء نسخة التوراة. إنهم متفقون على انعدام التوراة، مختلفون في تحديدزمن اختفائها، لكنهم يجزمون أن ذلك وقع قبل انقضاء عهد سليمان. جاء في سفر الملوك الأول: «لم يكن في التابوت إلا لَوْحَا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حُوْرِيب حين عاهد الربُّ بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر» ٩/ ٨.

نخفض مستوى السؤال للمرة الرابعة: هل عندهم مخطوطة ترجعُ إلى عهود الأنبياء الآخرين؟ لا، أيضاً.

أقدمُ آثارٍ لنصوصٍ توراتية عثر عليها حتى اليوم تعود إلى القرنين الأخيرين قبل الميلاد، وفيها بعض أسفار العهد القديم[١]. أما أقدمُ ترجمةٍ للتوراة فهي الترجمة السبعينية في الإسكندرية من ساحل مصر حوالي سنة ٢٥٠ قبل الميلاد[٢].

فإذا ماعلمت أن موسى عاش في القرن الثاني عشر قبل الميلاد تبيَّن لك مدى الهوة الشاسعة بين عهد الرسالة وعهد أقدم مخطوطٍ عثر عليه حتى اليوم. وإذا ماأَضفتُ إلى هذا أن توراة موسى اختفت بشهادتهم هم، وإذا مازِدْتُ لك على هذا وذاك أن أسفارهم وسطور التاريخ تشهد على اليهود بِرِدَّةٍ كاملة استمرت مئاتٍ من السنين ضاعوا فيها عن دين التوراة حيث لم يقصروا في البحث عنها في عهد سليمان ومابعده فحسب، بل غرقوا في آلهةٍ وأديانٍ

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه. الفصل الثالث: «التوراة والديانة اليهودية» الفقرة السادسة: أقدم الآثار الخطية للتوراة ص ٣٢٢.

(٢) نفس المرجع والفصل، الفقرة السابعة: ترجمة التوراة إلى اللغات الأوربية، واللغة العربية ص ٣٢٤.

وأوثانٍ كانت على النقيض من التوراة. فالتوارة التي اختفت كتبت من جديد على يدِ حاخامات بابل ومن تلاهم، لكن كتبت بمداد امتزج بالحقد على غير اليهود دون أن يكون لموسى من تلك التوراة نصيبُ علم اللهم إلا أنها سميت باسمه: توراة موسى!

الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا هو أول من أنكر نسبة أسفار التوراة إلى موسى، وكان قد سبقه إلى ذلك اليهودي المفكر اليهودي ابنُ عَزرا الذي اكتفى بالإشارة إلى هذا المعنى دون أن يجرؤَ على التصريح به، فإذا بسبينوزا يعلنُ بأنه جرؤ على مالم يجرؤ عليه ابنُ عَزرا.

يقول الباحث المصري المسلم إبراهيم خليل أحمد، القسّ إبراهيم خليل فليبس سابقاً:

«ويرى الفيلسوف اليهودي المحقق باروخ سبينوزا أنه يظهر بوضوح أنه لم تكن هناك مجموعة مقننةٌ من الكتب المقدسة قبل عصر المكابيين»[1].

يضيف الباحث نقلاً عن سبينوزا قوله:

«لكي أسير في بحثي بطريقة منظمة سأبدأ بالأحكام المسبقة المتعلقة بمن قاموا بتدوين الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، قد ظن الناس تقريباً أنه موسى، بل إن الفرِّيسيين أيَّدُوْا هذا الرأي بإصرار شديد بل إنهم عَدُّوْا من يظن خلاف ذلك من المارقين، ولهذا السبب، فإن ابن عزرا - وهو رجلٌ كان فكرهُ حراً إلى حدٍّ ما، ولم يكن علمهُ يستهانُ به، وهو أوَّلُ من تَنَبَّهَ إلى هذا الخطأ - لم يجرؤ ابنُ عَزرا عن الإفصاح عن رأيه صراحةً، واكتفى بالإشارة إليه بألفاظٍ مبهمة، أما أنا، فلن أخشى توضيحها، وإظهار الحقِ فيها»[2].

وعند الدكتور أحمد سوسه نجد تصديقاً مكملاً لما قلناه، وفيه نقرأ:

---

(١) «الغفران بين الإسلام والمسيحية» ص ٣٦.

(٢) نفس المرجع ص ٤٩ ـ ٤١، فيما نقله عن «رسالةٍ في اللاهوت والسياسة» للباحث اليهودي باروخ سبينوزا» ص ٢٢٦.

«ويتضح مما تقدم أن التوراة قد كتبت بعد إبراهيم الخليل بألفٍ وثلاثمائة عام، وبعد عهد موسى بأكثر من سبعة قرون، وهي بالطبع غيرُ التوراة التي نزلت على موسى، ويؤكد لودز ذلك بقوله: «إننا لانستطيعُ أن نُؤيِّدَ صحة رجُوع تاريخٍ أيٍّ قسم من الأسفار الخمسة حتى الوصايا العشر إلى عصر موسى، لأن ماورد من روايات في هذه الأسفار قد تعرَّض أكثر من بقية أسفار التوراة إلى تكرارٍ وإعادةِ تصنيف وإلى تغيير وتوسيع مستمرين على مر العصور»(أ)، ثم يضيفُ إلى ذلك قوله: «إذا أمعنَّا النظر إمعاناً دقيقاً في العهد القديم نجدُ أن الوصايا العشر أُدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر حيث ظهرت في الكتابات اليهودية في القرن السابع قبل الميلاد(ب).

ويعترف العالم اليهودي سيلفر بأن التوراة الحالية لاتمثل توراة موسى الأصلية في أية ناحية وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجمعُ العلماء أنها الشيء الوحيدُ المتبقي من التوراة الأصلية لم تكن في شكلها ومضمونها الحاليين كتلك التي أتى بها موسى(ت).

ويقول العالم الألماني الدكتور مورتكات: «لايمكن الاعتماد من الناحية العلمية على أساطير التوراة، إذ برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحة أكثر تلك الأساطير التي وردت فيها كما وتوجدُ أبحاثٌ تبرهنُ عكس تلك الأساطير»(ث). ويقول الأستاذ شبل أيضاً: «وانفرد اليهود في هذا الميدان بإقدامهم على رفع سجل تاريخهم إلى منزلة التقديس ونجاحهم نجاحاً لايبارى فيه إيهام مئات الملايين من البشر على مدى الأحقاب والعصور بأن تاريخهم كتابٌ مقدَّس، مصيرُ من لايُصدقه أو يُناقشهُ مناقشةً علمية عقابُ الله في الدنيا والآخرة»(ج). وفي نفس المعنى يقول المرحوم العقاد: «ومن أعجب العجب أن تُنسب هذه الأسفار (الخمسة) إلى موسى وفيها وصفُ موته ودفنه، ومقارنةٌ بينه وبين التابعين له من

---

(أ) نقلاً عن كتاب «إسرائيل» للباحث لودز ص ٣٥٩.

(ب) نقلاً عن نفس المصدر.

(ت) نقلاً عن «الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية» د. سامي سعيد الأحمد.

(ث) نقلاً عن «تاريخ الشرق الأدنى القديم» للدكتور مورتكات ص ٢٧٢.

(ج) نقلاً عن «مشكلة اليهودية العالمية» للأستاذ شبل ص ٩.

الأنبياء، ومعنى ذلك أن الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية كتب بعد قيام أنبياء كثيرين تنعقدُ المقارنةُ بينهم وبين موسى عليه السلام، فمن الثابت قطعاً أن هذه الأسفار اليهودية كتبت بعد موسى عليه السلام بعدَّة قرون»(ح)»(١).

إنني لاأُزكِّي نفسي إذا قلت: لديَّ وبكل تواضع آلاف الأدلة بل عشرات الآلاف منها على أن توراة اليوم بعيدة كل البعد عن توراة موسى، لكنني أختزل الإجابة بخلاصة ماسقته لك قبل أسطر:

اليهود لايملكون مخطوطة عن التوراة ترجع إلى المصادر الأولى سواء في عهد موسى، أو فتاه يوشع، أو عهد القضاة التالي لهما، أو عهد الملوك الممتد لمئات السنين! والأغربُ من ذلك أن أقدم مخطوطةٍ تفصلها مسافةٌ زمنية تمتد ألف عام إذ بين عام ١٢٠٠ ق. م حيث البعثة الموسوية المباركة وعام ٢٠٠ قبل الميلاد زمن كتابة مخطوطاتٍ لبعض نصوص التوراة، بين هذين الزمنين لم يشهد التاريخ حرصاً على التوراة، بل استهتاراً انتهى إلى اختفاء نسختها يوم لم يكن بين أيديهم سوى نسخةٍ واحدةٍ يضعونها في التابوت ويخرجونها مع انتهاء كلِّ سبع سنين يوم العيد، لكنَّ سليمان فتح الصندوق اتباعاً للسنَّةِ الموسوية فلم يجد شيئاً منها.

بعد الإختفاء لم تجرِ عملية بحث، والمصادر اليهودية لاتذكر شيئاً عن ذلك، وإنما تحدثنا عن رِدَّةٍ عن عقيدة التوراة وشريعتها دامت زمناً طويلاً بعد انقضاء عهد سليمان، فأين التوراة؟ وكيف السبيل إلى معرفتها؟ أو التوثق من نسخة اليوم على ضوء ماذكرت؟

بطلانُ نسبة توراة اليوم إلى موسى حقيقةٌ أجمع عليها جميع الباحثين، المسلمين والنصارى، وكبار محققي اليهود، وكذا مفكرو الغرب اليوم.

---

(ح) نقلاً عن «اليهودية العالمية وقضية فلسطين» للأستاذ العقاد ص ١٥٠.

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه. الفصل الثالث: «التوراة والديانة اليهودية» الفقرة الخامسة: «تاريخ التوارة، لغتها، مكان وزمان ظهورها» ص ٣١٩ ـ ٣٢٠. هذا وكل ما ذكرته لك من (ا) إلى (ح) منقول عنه.

المسلمون يعتمدون مصدرين في عدم التوثيق:

المصدر الأول: القرآن الكريم. قال تعالى في تحريف اليهود للتوراة:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]. وقال أيضاً:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

المصدر الثاني: الدراسة النقدية للتوراة على ضوء علم مقارنة الأديان، ونتائج أبحاث علماء الآثار وأساتذة التاريخ، وقد ساعد القرآن الكريم المصدر الثاني، حتى إلتقيا على نتيجة واحدة، وتبيَّن للجميع أن نصوص القرآن المنزَّلة قبل أربعة عشر قرناً هي عين الحقيقة التي توصَّل إليها العلماء اليوم.

النصارى يستندون إلى مصدرين أيضاً:

المصدر الأول: تنديدُ السيد المسيح عليه السلام بالكَتَبَةِ الفرِيْسِّيين والناموسيين أي: برجال الشريعة الذين عاصرهم، فحذَّر منهم بسبب الويلات التي أدخلوها على دين موسى، أي: بسبب انحرافهم عن العقيدة، ومقاصد الشريعة، ومبادئ الفضيلة.

المصدر الثاني: دراساتٌ شخصية، قال الدكتور أحمد سوسه: «ويعترفُ رجال الدين المسيحيين بذلك إذ جاء في مقدمة الكتاب المقدس من الطبعة الكاثوليكية لسنة ١٩٦٠ بهذا المعنى مانصه: «فما مِن عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقدُ أن موسى ذاته كتب كل البانتاتيك منذ قصة الخلق إلى قصة موته كما أنه لايكفي أن يُقال إن موسى أشرف على وضع النصِّ الذي دوَّنهُ كَتَبَةٌ عديدون في غضون أربعين سنة، بل يجب القول إنه يوجد ازدياد تدريجي في الشرائع الموسوية سببته مناسباتُ العصور التالية الإجتماعية والدينية»[1].

ومن اليهود الباحث ابنُ عزرا الذي أشار ولم يجرؤ، وسبينوزا الذي جرؤَ وصرَّح، ونفى نسبة توراة اليوم إلى نبيه موسى، وهناك آخرون.

---

(١) «العرب واليهود في التاريخ» د. أحمد سوسه. الفصل الثالث: «التوراة والديانة اليهودية» الفقرة الثالثة: «تحريف التوراة الأصلية» ص ٣٣٠.

ومن مفكري الغرب من نقلتُ لك نصوصاً عنهم، وهناك كثيرون غيرهم في مقدمتهم الباحث الفرنسي موريس بوكاي.

الأدلة القاطعة في نقد التوراة ونقضها كثيرةٌ غير أني أكتفي بدليل واحد بعد الذي سقته بين يديك وهو ما أتى عليه المرحوم العقاد. فالتوراة تضع بين أيدينا في سفر التثنية حال القوم يوم موت موسى وفي موضع دفنه، وتحدثنا عن الحزن الذي أصاب قومَهُ بعده! لنقرأ الاصحاح بكامله أولاً ثم نبحث وندوِّن، ومن ثَمَّ نستنتج.

الاصحاح الرابع والثلاثون من سفر التثنية: «وصَعدَ موسى من عَرَبات موآبَ إلى جَبَلِ نَبوُإلى رأسِ الفِسْجَة الذي قُبالةَ أرِيحا فأراهُ الربُّ جميعَ الأرْضِ من جِلْعَادَ إلى دَانَ»(١).

«وجميعَ نَفتَالي وأرضَ أفْرَايمَ ومَنَسَّى وجميعَ أرْضِ يهوذا إلى البحرِ الغربيّ»(٢).

«والجنوبَ والدائرة بُقْعَةَ أريحا مدينة النَخْلِ إلى صُوْغَرَ»(٣).

«وقال له الرب: هذه هي الأرْضُ التي أقسمتُ لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسْلِك أعطيها. قَدْ أرَيْتُك إيَّاها بعَيْنَيكَ ولكنَّك إلى هناك لاتعبُرُ»(٤).

«فماتَ هناك موسى عبدُ الربِّ في أرْضِ موآبَ حَسْبَ قَوْلِ الربِّ»(٥).

«ودَفَنَهُ في الجِوَاءِ في أرْضِ مُوآبَ مقابلَ بيتِ فَغُوْر ولَمْ يَعْرِف إنسانٌ قبرَهُ إلى هذا اليوم»(٦).

«وكان موسى ابنَ مئةٍ وعشرينَ سنةً حين ماتَ ولَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ ولا ذَهبتْ نَضَارَتُهُ»(٧).

«فبكى بنو إسرائيل موسى في عَرَباتِ موآبَ ثلاثين يوماً. فَكَمِلَتْ أيامُ بكاءِ مناحَةِ موسى»(٨).

«ويشوعُ بنُ نونٍ كان قد امتلأ رُوْحَ حكمة إذْ وضع موسى عليه يَدَيْه فَسَمِعَ لهُ بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الربُّ موسى»(٩).

«ولم يَقُمْ بعدُ نبيٌ في إسرائيل مثلُ مُوسى الذي عَرَفَهُ الربُّ وجهاً لوجه»(١٠).

«في جميع الآيات والعجائبِ التي أرسلهُ الربُّ ليعملها في أرضِ مصر بفرْعون وبجميع عبيده وكلِّ أرضه»(١١).

«وفي كلِّ اليدِ الشديدة وكلِ المخاوفِ العظيمة التي صنعها موسى أمام أعيُنِ جميع إسرائيل»(١٢).

هذا النص مدوَّن في التوارة على أنه مِن خطابِ الله لموسى!

لكن هل يقول الله لموسى: وصَعِدَ موسى؟ متى كان الخطاب للمخاطبِ بصيغة الغائب؟ وكيف يقول الله لموسى: وقال لهُ الربُّ؟

أليس في هذا وذاك دليلٌ على أن النصوص مكتوبةٌ بعد موسى؟ صَعِدَ موسى: كلامٌ يقولهُ كاتبٌ متأخرٌ عن زمن موسى في حديثه عن نبي الله، وخطابه لقوم آخرين لم يَرَوْا موسى، ولم يعرفوه.

«وقال له الرب» عبارةٌ يتكررُ فيها ذاتُ الاعتراض.

«هذه هي الأرضُ التي أَقْسمتُ لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أُعطيها» قد أَرَيْتُكَ إيَّاها بعينيك..»: وعدٌ مزعومٌ مسبوقٌ بما ينافي كلام الله، وهو في مضمونه يُنافي الكلام الإلهي أيضاً. لماذا؟ لأن كل ماسبق ذكرهُ جوابٌ على هذا السؤال. وهو متبوعٌ بما يتنافى مع كلام الله فما الدليل؟ الدليلُ مسجلٌ في النصوص التالية للوعد المكذوب:

«فمات هناك موسى عبدُ الرب»: هل يُصَدَّق أن يكون النصُّ من خطاب الله لموسى ثم يتحدثُ النصُّ بصيغة الغائب، وعن أي شيء؟ عن موت موسى! أيقبلُ العقل نسبة التوراة إلى موسى وهي تبحث في موته؟ هو المتوفَّى وهو المخاطب، وهو مَنْ تتحدث عنه التوراة بصيغة الغائب!!! والله إن هذا لمن العجب العُجاب، ومن أصدق الأدلة الناطقة ببطلان التوراة.

دليلٌ آخر: «ودَفَنَهُ في الجِواء، في أَرض موآب مقابِلَ بيتِ فَغُوْرا»: من الذي يقول: ودَفَنَهُ؟ بلا شك هم كتبةٌ متأخرون تحدثوا عن موسى، منذ بداياته حتى وفاته،

فانزلقوا إلى هذا التخبط دون أن يشعروا ليكشف لنا الله اليوم أنهم كذبه يقولون من عند الله وماهو من عند الله، ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون!

نصٌ يحددُ موضعَ دفن موسى، ثم يقالُ لنا: النصُّ من التنزيل الذي أُنزل على موسى!

وثمة دليلٌ آخر في النص المذكور:

«ولَمْ يَعْرِف إنسانٌ قبرَهُ إلى هذا اليوم»! بالله عليك أيُّها القارئُ هل يرضى عاقلٌ مثل هذا الهراء؟! النصُّ يُحَدِّد بدقة قبر نبيِّ الله موسى، لكنه يستدركَ ليقول لنا: قبرهُ مجهولٌ للناس حتى هذا اليوم! إذاً الكاتب أو الكتبةُ ينقلُ بعضهم عمَّن سبقهم وهم متأخرون جداً عن موسى بدليل جهلهم بمكان القبر الكريم لا بل إنهم ينسبون الجهل لجميع الناس، غير أنهم يتحدثون عن بكاء بني إسرائيل في عربات موآب، هذايعني أنهم دفنوه بأيديهم، فالقبرُ معلومٌ للجميع، وماجهل الأُمة بقبر نبيِّها الذي دفنته في جنازة جماعية مهيبة إلاَّ لأنَّ النصَّ كتب في عهودٍ متأخرة لاتقلُّ عن سبعمائة سنة، وهي الفترة التي بدأ فيها حاخامات بابل صياغة نصوص التوراة على مزاجهم.

«وكان موسى ابنَ مئةٍ وعشرين سنة حين مات».

وكان موسى: حديثٌ عن غائب، ثم إن التوراة أُنزلت في بداية وصول موسى وقومه إلى سيناء وانتهت قبل أن تنقضي السنونُ الأربعون، هذا يفيدُ أن التوراة أُنزلت على موسى في المراحلة الأولى مِن سجن التيهِ الإلهي أي ربما قبل عشرين سنة أو ثلاثين سنة أو أقل أو أكثر من قرار الإفراج عنهم، حينها كان عُمْرُ موسى مائة سنة أو تسعين سنة استناداً إلى الفقرات التوراتية، وهو خلاف ماذكر في النص أيضاً. النصُّ يُفْترضُ أنهُ أنزلَ على موسى يَبْدَ أنهُ يتحدث عن عُمْرِ موسى بعد موسى، وهذا دليلٌ على أن التوراة محضُ افتراء.

«فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوماً»: صيغةُ الغائب مرةً أخرى، وثلاثون يوماً لايقول بها كاتب إلا بعد أن تنقضي، يؤكد ذلك التعبير عنها بالفعل الماضي: «فبكى» «فكملت» فهل يقول الله لموسى: فبكى بنو إسرائيل على موسى فكملت أيَّامُ بكاءِ مناحة موسى؟

«وَيشوعُ بنُ نون كان امتلأ رُوْحَ حكمةٍ»: نصٌّ يأخذُ على عاتقه إخبارنا عن صفات يشوع بن نون، وعن خضوع قوم موسى له بعد موت موسى، ولاأعتقدُ أحداً سيصدقُ بأن النصَّ من التنزيل الذي أُوْحِيَ به إلى موسى. لقد جاء فيه: «فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أَوْصى موسى» أي بعد صعود روح الكليم إلى بارئها.

الفقراتُ التي وضعتُها تحت مجهر البحث تثبتُ أنَّ كاتبها حاخام أو مجموعةٌ من الحاخامات لم يعاصروا موسى، فهل عاصروا يشوع؟ الاستدراج الإلهي لكتبة التوراة طمسَ على قلوبهم حتى وقعوا في الخطأ الجسيم الذي دلَّنا على فساد نظرية المعاصرة لعهد يشوع بن نون. لنقرأ أوّلاً:

«ولم يَقُمْ نبيٌّ في إسرائيل مثلُ موسى». «في جميع الآيات والعجائب». «وفي كل اليد الشديدة وكلِّ المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعيُنِ جميع إسرائيل»:

ثلاثةُ نصوص تنطقُ بالحق الذي طالما حاول المبطلون التلبيس عليه.

ثلاثة نصوص ترفعَ الصوت عالياً، وكأنّي بها تقول: التوارة مكتوبة بأيدي صانعين متأخرين جداً جداً عن موسى.

ثلاثة نصوص تخبرنا أنهُ لم يقم في بني إسرائيل نبيٌّ مثل موسى. إذاً انقضى عهدُ أنبياء بني إسرائيل جميعهم، فقُرِئت سيرتهم، وانتشرت بين الناس آياتهم، وبالمقارنة ثبت بما لايدعُ مجالاً للشك أنه لم يقُمْ في إسرائيل نبيٌّ مثلُ موسى لافي علاقته بالرب، ولافي عجائبه ولافي صنعه مع بني إسرائيل!

عجيبٌ والله قولهم إن التوراة التي بين أيدينا هي تلك التي تلقّاها موسى عن ربه على جبل الطور! إنَّ كَتَبَتَها يخبروننا بعد زمن طويل جداً قد يتجاوز الألف عام أن موسىلم يقم مثله فيهم! هذا كلامٌ لايصحُّ أن يخرج من التورة الأصلية لأنها منزلةٌ على موسى في سيناء قبل الموت وقبل الدفن وقبل البكاء وقبل الخضوع لسلطة يوشع، يومَ لم يكن في قوم موسى نبيٌّ يخضعون له أصالةً إلا موسى. أما المقارنةُ مع أنبياء الله المؤمنين بموسى فإنها مقارنةٌ أُجريت في أزمنة لاحقة تفصلها عن عهد موسى حضاراتٌ وفصولٌ ومشاهدُ لاتكادُ تُحصى. والنتيجةُ فسادُ الوعد الذي دُسَّ في التوراة بفساد الاصحاح كله.

ومع انتهاء العمل في المحطة الثالثة من النَّظَرِ في الوعدِ التوراتيِّ أُسَجِّلُ القرار العلمي التالي :

الوعدُ التوراتي أُكذوبةٌ كبرى ، أُكذوبة على الله ، وأُكذوبة على لسان كلٍّ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى . وأُكذوبة على التاريخ ، وأكذوبةٌ على الإنسانية بعقلها ومستقبلها ومشاعرها .

والوعدُ التوراتي جريمة ، بل مؤامرةٌ حاكتها أيدٍ ظلامية في سجون القهر في بابل ، وطوَّرتها عقولٌ جعلت من اليهود الموضوع الرئيسي للتوراة ، فهم في كل عصر! وهم في عهود لم يكن لهم فيها ذِكر أو وجود!

الوعدُ التوراتي انفجارٌ نَوَوِيٌّ هائل سَيَلْتَهِمُ كل شيء إن لم تُوْقَفْ عَجَلَتُهْ .

الوعدُ التوراتي اختزالٌ متقدِّمٌ جداً للنظرية النازية والفاشية ، فأحدُ وجْهَيْهِ نازيٌّ ، والآخر فاشيٌّ وكلاهما جلب على العالم يوم ظهر كل ألوانِ الخراب والدمار .

الوعدُ التوراتي دَعيٌّ لانسبَ له ، ومتشرِدٌ لاوطن له ، وميتٌ لامحالة .

الوعدُ التوراتي في حقيقته «مافيا» ألبست ثوب الدين .

الوعدُ التوراتي أظْهَرُ صورة عرفتها البشرية للتستر بالدين ، والتسول بواسطته .

الوعدُ التوراتي إرهابٌ اعتم عِمَامة نبوة ، وتطرفٌ اكتسى جبة دين! والأغربُ من ذلك مانشاهدهُ من مسارعة دول الغرب العلماني لتحقيق وعد الربِّ التوراتي في فصول لاتكاد تُمَيِّزُ فيها بين علمانيةِ أوربا ويهودية «إسرائيل» ، فأوربا العلمانية تضعُ على رأسها القلنسوة اليهودية ، وإسرائيل اليهودية تبحرُ بذكاء بسفينة العلمانية الغربية ، ولو كان الغربُ علمانياً حقاً لنأى بنفسه عن تحقيق حلم توراتي مضى عليه أكثرمن ألفي عام ، ولو لم يكن كذلك لما وجدناه يغضُّ الطَّرْف عن جرائم اليهود في انتفاضة الأقصى حيث اندفع الدم الفلسطيني شلالاً لم يعرف التوقف ، فلم يحتجَّ أحدٌ! ولم يعترض! أما عندما أُسِرَ ثلاثة من جنود العدوِّ في لبنان فقد أخذ يتباكى على الإنسانية المعذبة ، ويتألم على السلام الضائع ، ويرسل أرفع مَسْؤُوْلِيْه في الاتحاد

الأوروبي، والأمم المتحدة وأمريكا في مسرحية يَتَجلّى فيها عنصرية الرجل الأبيض في انحيازه لدم شعب الله المختار، وفي إسقاطه لشعارات حقوق الإنسان الدولية الموجهة في حقيقتها إلى الرجل الأبيض الغربي أوالصهيوني أينما وجد[1]!

إن أوربا بمؤسساتها وقياديِّها تنحاز للكيان الذي تسمَّى باسم نبِّي الله «إسرائيل» كما تجزم بحق اليهود في فلسطين، والسيادة على أرضها المسلمه! فلماذا والوعدُ توراتي ملعون مشؤوم مزعوم؟ وتلك القيادات علمانيه تنادي بفصل الدين عن الدولة ـ بل بفصل القيم الدينية عن المجتمع ـ فكيف تتبناه وهو ليس دينياً فحسب، بل هو أُسطورة خرافية تتجمل (بمكياج) الدين، وتتستر به؟!!! هذه الحقيقة لاتحتاج منَّا إلى إثبات، فالرجل المتنفذ الذي أعطى وعداً ملزماً باسم حكومته لإقامة هذا الكيان هو الوزيرُ الإنجليزي بلفور عام ١٩١٧، أما الدولة التي أخذت على عاتقها بناء هذا الكيان على جماجم أهل فلسطين فهي تلك التي لم تكن تغيبُ عن أرضها الشمس بعد أن تقاسمت مع فرنسا وإيطاليا المشرق والمغرب العربي مادَّةً ذراعيها لالتقاط يهود العالم وزرعهم في الأرض المباركة فلسطين، حيث بدأت بتدريب كوادر عصاباتهم على إدارة الدولة العصرية تمهيداً لتسليم الغرباء مقاليد الأمر في فلسطين!!!.

أمّا أمريكا – وهي التي انتقلت إليها كل أسباب القوة التي كانت بحوزة الدولة الآفلة انكلترا – فإنها لم تبخل بتقديم المال والسلاح والإعلام، إلى الوليد المدلَّلِ «إسرائيل»[2]!.

---

(١) أي: الرجل الغربي الأبيض غير المسلم، والرجلُ اليهودي ولو كان أسودَ اللون.

(٢) إن جميع مقررات مجلس الأمن الدولي أخفقت حتى اليوم في إعطاء العرب الحدَّ الأدنى من حقهم، كما أخفقت في تأديب ماسُمِّي بـ«إسرائيل»، أو التخفيف من غرورها وصَلَفها لأن الفيتو الأمريكي بالمرصاد، وهل تنسى الأمة آخر فيتو، أطلقته أمريكا، وهو قريبُ العهد من لحظة كتابة هذه الكلمات، يوم قرر المؤتمرون تشكيل قوة دولية في فلسطين منزوعة السلاح يعهد إليها المراقبة، وحماية الشعب الفلسطيني، فإذا بالجهود العربية المسلمة والصديقة تتبخر في لحظة واحدة بالفيتو الاستبدادي الأمريكي، وذلك إبَّان انتفاضة الأقصى. إننا لدى إلقاء نظرة في عدد المرات التي استخدمت فيها أمريكا الفيتو ضد العرب، خدمةً لما يعرف بـ«إسرائيل» نتأكد من أنه فيتو صهيوني «إسرائيلي» وليس أمريكياً، وكأنه في أصل تأسيسه وضع لإبطال أي محاولة إنسانية لإيقاف شلال

فكم من سلاحٍ فتَّاك وُضع بسخاء بين قدميها!

وكم من نافذة إعلامية هُدِّمت لأنها صَدَحَتْ بالحق في وجه نابَيْها!

لا بل، كم من حرب أعلنت قرباناً متواضعاً لأجل عيون إسرائيل!

الزعامات السياسية والمالية العلمانية ـ وحتى الدينية ـ تسارع هناك إلى تقديم طقوس التأييد والولاء، في عبارات ومواقف تزداد حرارتها كلما بالغ اليهود في إراقة دماء الأبرياء، أو مارسوا المزيد من مظاهر القتل والإرهاب والتشريد لأبناء الدار المتشبثين بحقهم في الأرض والتاريخ والعقيدة!

أيتفق هذا مع علمانية الأمريكيين وسائر الغربيين، وهو يتعارض أوَّل مايتعارض مع مقررات حقوق الإنسان التي صاغوا عباراتها بأيديهم، وصادقوا عليها في مؤتمراتهم، ثم داسوها ـ في لحظات التطبيق ـ بأقدامم، وركَلُوها بأرجلهم يوم تعلق الأمر بغيرهم؟!. لقد رأينا ذلك في فيتنام وفي كوبا وفي باناما وفي فلسطين ولبنان، وسائر بلاد العروبة والإسلام!.

أليس من العجيب الغريب أن يتسابق علمانيُّوا تلك البلاد إلى المسارعة إلى إعلان القدس الموحدة عاصمة أبدية لإسرائيل، وأن يؤكد زعيم تلو زعيم، وزعيم من دونه زعيم، نقل السفارة الأمريكية إلى القدس الغربية إمعاناً منهم في الاعتداء على مدينة لها قدسيتها عند جمهور المسلمين قاطبة، وكذا المسيحيين، معرضين بذلك عن حقوق الأديان وقد تشدقوا بها، وعن مقررات الأمم المتحدة في قرار التقسيم حيث

---

= الدم الفلسطيني! حتى «شارون» صاحب الفضل في حمَّام الدم الأول في لبنان باجتياحه عام ١٩٨٢، وحمَّام الدم الثاني في فلسطين والمنطقة عقب زيارته الاستفزازية لباحات الحرم القدسي مدَّعياً أنها موقع هيكل سليمان المزعوم! شارون هذا صنعته لنا أمريكا حيث قدَّمت له من النصائح والمعلومات بواسطة أقمارها التجسسيَّة ما استطاع به أن يتخلص من كمَّاشة الجيش المصري الذي حاصره وقواته عام ١٩٧٣ أثناء معركة خط بارليف، فما كان منه إلا أن أحدث ثغرة ديفرسوار الشهيرة مستعيناً بتوجيهات أمريكا صديقة العرب! وهو مافتح له أبواب السياسة على مصراعيها حيث كافأه رجل السلام رابين بجعله مستشاراً خاصاً له!

أخرجت القدس عن دائرة مايُسمَّى اليوم بـ «إسرائيل»[1] .

ثم أليس عيباً وعاراً على علمانية أولئك العلمانيين ـ لو كانوا كذلك ـ أن لاتظهر على ألسنتهم إدانات لشارون بعد زيارته الوقحة إلى المسجد الأقصى بوصفه بُنِيَ على أنقاض هيكل سليمان، في أسطورةٍ تثبت الإكتشافات الأثرية تفاهتها وبطلانها؟

أين حقوق الإنسان، وحرمةُ الأديان، والأقصى اعتدي عليه، والزيارة فجَّرت الدم الزكي الفلسطيني أنهاراً سال يروي الأرض المطهرة فلسطين؟!.

أين علمانيتهم التي أعلنوا من خلالها، ومن خلالها فقط - حسب زعمهم - أنهم يُكرمون الإنسان بوصفه إنساناً دون أن يكون للونه أو أرضه أو انتمائه الديني دخل في تلك الكرامة[2]، فإذا بنا نراهم كل يوم ينحازون إلى اليهودي لأنه يهودي، وإلى الصهيوني لأنه صهيوني، وإلى الإسرائيلي لأنه إسرائيلي، فهو عندهم صاحب الحق دائماً، ومناوئوه ظلمةُ إرهابيون!!!

أين حقوق الإنسان والحاخام اليهودي عوفيديا يوسيف أعلن أمام وكالات الأنباء بمناسبة عيد الفصح اليهودي من عام ٢٠٠١ أنه لايجوز لنا أن نرأف بالعرب! وتحرم علينا الرحمة بهم! والواجب نحوهم إبادتم بالصواريخ! أُطلقت هذه الفتاوى الإرهابية أمام الناس حيث تناقلتها وكالات الأنباء المرئية والمسموعة والمقروءة فمرت وكأنَّ شيئاً متطرفاً لم يُقل! والحق أنني لم أجد واحداً من هؤلاء ـ وهم أصحابُ القرار ـ أدان تلك التفاهات من خلال أيِّ وسيلة إعلامية هناك، كما لم يتعرض هذا المتطرف الديني لأيِّ ملاحقة قضائية!!! والله لو أنَّ أحد المنتسبين إلىالإسلام، أو أحد المأجورين من الطابور الخامس في المجتمعات الإسلامية تلفظ بما هو دون هذا بكثير باسمه أو باسم الإسلام لقامت الدنيا دون

---

(١) إعتداء الأمريكيين هذا له بُعد ثالث، فالأرض التي سُيِّجت لبناء السفارة الأمريكية عليها هي من أملاك الوقف الإسلامي، وهذا من المسائل الثابته المستندة إلى وثائق رسمية.

(٢) هذا الذي يبحث عنه الناس، ويتشدق به الغربيون، لاوجود له إلا في الإسلام الحنيف فالتكريمُ جوهرُ عقيدتنا، وبه جاء التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء: ٧]. وبنو آدم منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الملحد، ومع ذلك فالجميع كرامتهم الإنسانية مُصانة لأنهم بشر من نسل آدم الذي كرَّمه الله عز وجل، وكرَّم ذريته.

أن تقعد في حملة إعلامية عالمية يختار لها مروجوها أكثر العبارات العاطفية تأثيراً على المجتمعات الإنسانية تحت دعوات التباكي على السلام والأمن العالمي!

وكأني بهم في حملتهم يقولون: هل يُصدَّق أن نَستَمعُ لأصوات القرون الوسطى تتردد في جنبات حضارتنا الحديثة ونحن مَن من نضع أقدامنا عند بوابات القرن الحادي والعشرين؟! أقول وايمُ الله بها إنها لفتاوى مخيفه، وأفكار سوداء لم تأتِ من نافذة القرون الوسطى، بل من نافذة الشيطان حيث يقف الأخير على استحياء أما خبث بعض بني الإنسان، يوم يتجردون عن انتمائهم البشري، ويخنقون صوت الفطرة الصافي، ويستمعون لصدى الأنانية والكبرياء، فيزعمون مالم يُنزِّل الله من سلطان!

بعد كل هذا، ألا يعد تحيُّزُ الغرب المفتوح إيماناً بشعب الله المختار؟ وإيماناً بحقه في السيادة على أرض العرب والمسلمين فلسطين؟ وإيماناً في لزوم مساعدة الشعب الموعود وتغطيته إعلامياً وإقتصادياً لبلوغ مبتغاه في هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم؟ وإلا فبأي شيء نفسرُ تكالبهم على تلك التغطية، واندفاعهم إلى مباركة سرية وعلنية لإنجاز خرافة الأساطير الدينية على وجه الأرض من علمانيين لايتَّبعون القضايا الدينية حتى ولو كانت شمساً ساطعة؟

نعم، إنه الإيمان بوعدٍ توراني مزعوم، وبعنصرية مكشوفة لم يعد تزويقُ الكلام يخفيها! وإنها لحقيقة طالما ضلَّ عنها الكثير من البشر!

لماذا؟

لأن العلمانيين هناك ـ أي: في الغرب ـ وهنا ـ أي: علمانيوا اليهود في فلسطين ـ لهم وجهان:

وجهٌ يدعو إلى فصل الدين عن الدولة لافتقارهم إلى دين يقيم أُسس الحياة وتستقيم به الأُمور.

ووجهٌ تسيرُ به نخبتهم في قيادة الأمة، لاتحيدُ عنه، ولاتقدرُ، لأنهُ جزء من موروثات الأمة، لاسلطان لأحدٍ على تجاوزه، وإلا خرج كما دخل بخُفَّيْ حنين، وأُلقي به وراء وراء.

فالأُمة بهيمنتها من خلال تشبثها بثوابتها ، ووسائل الضغط في مراكز النفوذ داخل أجهزتها تدفعُ القادة للسير في جادةٍ لايجرؤ أحد أن ينحرف عنها .

لكن كيف تسلل ماذكرت إلى عقيدة الغرب بشقيه الأوربي والأمريكي حتى غدا جزءاً من تركيبته الدينية والسياسية ؟

للإجابة على هذا السؤال ، لابد لي من الرجوع إلى ذاكرة العالم الغربي فهناك أجدُ ضالتي .

كلنا يعلم أن اليهود بعد أن شردوا في القرن الثاني للميلاد توزعوا في أرجاء الأرض ، في انتشارٍ يمكنني اختزاله إلى معسكرين :

المعسكرالعربي ، وهو الذي صار يضم في جنباته الدول العربية والإسلامية التي أظلها سقف الخلافة الجامع .

والمعسكر الغربي ونعني به الدول الغربية التي تمتد على الشاطئ الآخر للبحر الأبيض المتوسط .

قبل صدور الأوامر الرومانية بتشريد اليهود في كل أرض ، وفي عهد السيدالمسيح عليه السلام تحديداً ، كانت طائفة يهودية ذات تأثيرٍ بالغٍ على مسرح الأحداث ، فهي صاحبة الكلمة العليا في توجيه المجتمع اليهودي ، كما كانت من أشد خصوم المسيح خطراً عليه بسبب تبحرها في العلم ، وتمكنها من زعامة الناس في المجتمع .

تلك هي الطائفة الفرِّيسية أو مايعرفُ بالفريزية ، أو الربانية[1] ، ولقد ساعدها ذلك تأييد الرومان لها الذين أمدوها بالعون المتواصل بعد التعاون المشبوه الذي أبرمته معهم على أساس الظلم والطغيان .

حرصت هذه الطائفة على إبقاء القيادة الدينية في يدها ، وقد أتاح لها ذلك بث أفكارها المسمومة حول الأرض الموعودة ، والشعب المختار ، والسيادة اليهودية المطلقة على الأُمم والشعوب ، وهو ماحداهم إلى التأكيد على احتقار البشر والأجناس

---

(١) تعرف بالعبرية باسم «غروشيم» .

والأديان من غير اليهود واليهودية، وذلك اعتماداً منهم على أخطر كتاب في الوجود كله في تأسيس العنصرية الدينية والعرقية، ألا وهو كتاب التلمود الكتاب المقدس غير المنزَّل، الذي أسسته تلك الفرقة التي ترى فيه تقديساً يُقَدَّمه على التوراة.

مع بدايات العهود الإسلامية لم يكن الجمع والتثبيت للتلمود قد اكتمل بعد، ومع ازدهار الحضارة الإسلامية، وتنامي النشاط الفكري فيها، وظهور مدارس للمجتهدين من علماء المسلمين في كافة الأقطار، وبروز حلقات الحوار الساخنة حول الإعتزال، وإعمال العقل في النصوص، وتقديم العقل على النقل، أو النقل على العقل، وسواها من مسائل البحث. مع هذا الجو العلمي المنفتح الحر تأثرت جماعات من اليهود بالتيار العام، فأخذت تقرأ وتدقق، وتبحث بعمق وتحقق، حتى أخضعت التلمود للدراسة والنظر، وهو ماأنذر بانشقاقاتٍ خطيرة أخذت تهاجم التلمود وتنكرُ مافيه من منزلقاتٍ مخيفة تتنافى مع دين موسى وتوراته، غيرأنّ أهمّ تلك الفرق هي الجماعة القرائيه التي تزعمها في القرن الثامن الميلادي عنان بن داود، وهو الذي كان مرشحاً لمنصب رأس الجالوت في الدولة الإسلامية، ومنصب المحافظة على التلمود بعد وفاة عمه الذي لم يترك ولداً لتولي زعامته الدينية. خطورة هذه الحركة تأتي من تبحر زعيمها في التلمود وكثرة رجوعه إلى النصوص بقصد هدمه وتفنيده، واشتد الصراع، وأعلنت كل طائفة تكفير الأخرى، والقول بنجاستها، وحرمانها من رحمة الله. استمرت هذه الحركة العلمية النشطة في تصدِّيها للمشروع التلمودي الخطير حتى القرن السابع عشر الميلادي حين خيم الجمود على أتباع الحركة القرائيه بسبب ارتباطها بالشرق، وتراجع الأنشطة الفكرية والحضارية داخل جنباته، في الوقت الذي تحرك فيه أعداؤهم التلموديون في الغرب مع وصول الوعي الثقافي والقومي الأوربي إلى مراحل متطورة هناك، وبهذا فتر الصراع، وصارت الكلمة من جديد للفريسيين التلموديين[1]

---

(١) انظر «الفكر الديني اليهودي». أطواره ومذاهبه، د. حسن ظاظا (٢ ــ الفريزيون) ص٢١٠-٢١٣ و(٩ ـ القراؤون) ص ٢٤٧ ـ ٢٥٦ وفيه يقول الأستاذ حسن ظاظا رئيس قسم اللغة العبرية في جامعة الاسكندرية سابقاً: «وتم التكفير بين الفريقين إلى حد أن الحاخام الرباني البيزنطي كبسالي، الذي عاصر دخول الأتراك إلى القسطنطينية نهى أن يُعَلِّم أحد

الذين تطوروا فيما بعد لما صار يعرف اليوم بالصهيونية أو الصهاينة، وهم الذي تبنَّوا قديماً وحديثاً فكرة الوعدِ التوراتي بأيٍّ سبيل! وأكذوبة الشعب المختار! وفكرة الدين الواحد وسحق الأديان الأخرى! بل والأجناس الأُخرى أيضاً!.

لقد أتاح ضعف الشرق الإسلامي، وتنامي قوة الغرب المسيحي، وامتداد طيف الثورة الفرنسية إلى كل بقعة في القارة الأوربية حيث أجواء الحرية الدينية والشخصية ومظاهر حقوق الإنسان؛ مناخاً فكرياً يصلح التمهيدُ به للوصول إلى الهدف الذي ينتظرونه منذ ألفي عام.

الوطن الديني اليهودي ترجمةً للوعد التوراني لم يغب لحظةً واحدةً عن أذهان التلموديين، كيف ذلك، وهم يرون التلمود الوطن المتنقل لليهود!.

كيف ذلك، وهم ماخرجوا من فلسطين مشردين في كل أرض ومعهم الجماهير اليهودية التي قادوها، إلا بسبب التعليمات التلمودية التي عشقوها، والتي دفعتهم إلى احتقار كل ماهو غير يهودي، ورفض أية حكومة أجنبية غير يهودية، وهي الأسباب التي جعلتهم وراء كل القلاقل والاضطرابات وأعمال التخريب والمؤامرات التي حدثت في الأرض المباركة حتى أقضَّتْ مضاجع روما بعد أن امتدت أزمنة متتالية، وتكررت، دون أن تقتصر على العهد الروماني، لأنها كانت حاضرة في العهد اليوناني السابق له[1].

---

= الربانيين التوراة لقَرَّائيٍّ، كما أنه يحرم على الربانيِّن أن يقرأوا في نسخة من التوراة كتبهاأحدُ القرائين، حتى ولو كانت صحيحة، على أساس أنهم غيرُ طاهرين.

كل هذه العداوة الشديدةتثبت شيئاً واحداً وهو أن اليهودية الجماهيرية الرَّبَّانيَّة لم تصطدم بحركة فكرية ودينية ـ بعد المسيح عليه السلام ودعوته ـ أخطر على الفكر الإسرائيلي العام من حركة القرائين، التي استخدمت عناصر قوتها ورسوخها من المناهج الإسلامية ثم انطوت مع الإنطواء السياسي للفكر العربي أيضاً في أواخر العصورالوسطى أوائل العصر الحديث.

والآن، هل تنتفض القرائية وتنهض من جديد؟ هذا أمرٌ مستبعد تحت الثقل الساحق للربانية وصهيونيتها، ولكن ربما أثر المذهب القرائي في الفكر اليهودي العام بحيث تتولد من هذا التفاعل اتجاهات أكثر تعقلاً» نفس المرجع (٩ ـ القراؤون) ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(١) نفس المرجع (٢ ـ الفريزيون) ص ٢١٣.

في تلك الأيام كـان الفريسيون ـ أصحـاب الكلمـة وعلـى أيديهـم تشـرَّد اليهـود لذلك عقدوا العزم علـى إعـادتهم إلـى فلسطين مـرة أخرى، خصوصـاً وأنهـم الذيـن زرعوا من خلال تلمودهم الوعد التوراتي في عقيدة ووجدان كل يهودي.

الصهيونيـون القدامـى ـ أي: التلموديـون ـ أخـذوا يتهيَّؤون للانقضـاض علـى فلسطين ضمن خطة مدروسةٍ ذاتِ نَفَسٍ طويل.

نظرهؤلاء حولهم فوجدوا اليهود محدودي العدد مهما تنـاموا، فاليهوديـة ديـن مغلق لايقبل غرباء بين صفوفه ولو تهوَّدوا، وبالتالي فمصطلح التبشـير منبـوذ عندهـم لتنافيه مع فكرة شعب الله المختار التي قامت علـى أصالـة العـرق اليهـودي المنحـدر مـن إبراهيم وإسحاق ويعقوب!!! أي: عرق بني إسرائيل!![1] العدد القليل يتطلـب سـنداً قوياً ودائماً، وهو مالايتحققُ إلا من خلال عقيدة دينية تتبنى مشـروعهم ولـو مـن غيـر قصد. فكيف السبيل إلى ذلك واليهود يقيمون ومن حولهم بحرٌ من المسيحيين في قـارة تمكنت فيها المسيحية، في حين أنّ اليهودية لاترضى بسياسة التبشير لإختـراق المسيحيين فما هو البديل لكي تتبنى أوربا المشروع الصهيوني التلمودي المجرم؟

الأريحية اليهودية لم تعجزعن حل هذه المعضلة، التـي فرضـت عليهـم إحـداث ثغرة في المسيحية للتلاعب بعقائدها، بغية توجيـه دفتهـا وفـق البوصلـة الخاصـة بهـم في

---

(١) هذا الزعـم مزيجُ خلـط وكـذبٍ وافـتراء، فـإبراهيم عربـي، وبالتـالي ولـدُهُ إسـحاق وحفيـده يعقوب؛ ولأن موسى خَرج من مصر بروحٍ مصرية فالعادات والثقافة واللغة كانت مصريـة ثـم إنه لم يخرج ببني إسـرائيل وحدهـم بـل خَرج ومعـه أيضـاً بقايـا الهكسـوس والجنـود الفـارين الموحدين الذين حافظوا على دين أخناتون التوحيدي. أخيراً فإن التـاريخ يحدثنـا عـن أجنـاس بشرية تهودت بكاملها مثل يهود الخَزَرْ، والحبشة وغيرهم كثير بدليل أنك تـرى في يهـود اليـوم الزنجي الأسود، والآسيوي الحنطي، والأوروبي الأبيـض والهنـدي والصينـي والروسـي فـأين نقاء الدم، وصفاء السلالة والعرق! هذا الزعم ردَّ عليه القرآن الكريم بالعبارة الواضحة حيـث قال: ﴿وبشّرْناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذُرِّيّتهمـا محسـنٌ وظالمٌ لنفسه مُبين﴾ [سورة الصافات: ١١٢ ـ ١١٣].

فالذرية منها الصالح التقي، ومنها الفاسد الشـقي، رغـم أن الأجـداد أنبيـاء صـالحون هـذا هـو الحق وهو مايشهد به التاريخ.

عملية طويلة الأمد، طبخت على نار هادئة، بذل فيهاالوقتُ والمال والجهد المضني رخيصاً في سبيل إتمامها.

إنَّ مايسمّى اليوم بالمسيحية المتصهينة، أو بالأُصولية المسيحية، أوبالأُصولية الدينية في الغرب، التي تبنت مشروع التلمود التدميري[١]، ليست وليد الساعة بل هي ثمرة لجهود جبارة امتدت لمئات من السنين تحت قيادة متخصصين بالخبث والدهاء والأديان والأموال.

فمن أين كانت البداية؟ وماهو أول حصنٍ استهدف في الدفاعات المسيحية؟

البداية كانت من استثمار حركات الإصلاح التي تمخض عنها القرن الخامس عشر الميلادي في أوربا ضد الكنيسة التي تدنت أحوالها[٢] آنذاك إلى فساد ضرب في الجذور والأعماق كان يستدعي الإصلاح[٣].

نشأت حركة إصلاحية متعددة من أبرزها حركة المصلح الشهير مارتن لوثر ومن تلك أيضاً حركة كالفان الذي قال بالجبر وأن الإنسان مسيَّر لا مخيَّر، وأن القربان المقدس ليس إلا رمزاً للمسيح وليس من دمه ولحمه[٤].

من الحركة الإصلاحية التي قام بها لوثر وكالفان وغيرهم تشكل المذهب الجديد

---

(١) أودُّ أن أُشير هنا إلى أنني لاأتحدث بالعموم، فالمسيحية التي اختُرِقَتْ هي تلك التي تربعت على عرش الغرب، فالحديث يخص مسيحية أوربا ومسيحية أمريكا للأسباب التي سأذكرها لاحقاً، أما مسيحيوا العرب فإنَّ مواقفهم كانت واضحة من الصهيونية العالمية كما سأبين لاحقاً.

(٢) في تلك الفترة ظهرت انتقاداتٌ شديدة للكنيسة وخاصة من قبل فئتي المتعلمين والزاهدين على حد سواء، فالمثقفون اتهموا الكهنوتيين بالجهل لأن الدخول في الكهنوت كان في الغالب وراثياً، والزاهدون اتهموا الكهنوتيين بالخروج عن صفتهم الأساسية والاهتمام بالمال والمعيشة والعالم الأرضي، خصوصاً وأنهم صاروا يتزوجون مخالفين الكنيسة التي تقول بالتحريم ناهيك عن اتساع الكنيسة اتساعاً هائلاً مع اتساع ثروتها.

(٣) انظر «تاريخ الأديان» لأستاذنا الدكتور محمد الزحيلي والمرحوم الدكتور محمد العش، فصل بعنوان: المسيحية في العصور المتأخرة والحركة الاصلاحية، ص ١٤٧ طبعة جامعة دمشق.

(٤) نفس المرجع والفصل ص ١٤٨.

في العقيدة المسيحية، والذي صار يعرف بمذهب البروتستانت، والذي يعد أول اختراقٍ يهودي في جدار المسيحية، بسبب المفاهيم الجديدة التي تبناها في شأن المسيح والتوراة والمواعظ الدينية، ومرجعية التقديس، فاليهود لم يكونوا في موضع المشاهد، وإنما كعادتهم في قلب الحدث، يقتنصون الفرص، ويطورونها على المدى البعيد، فما هذا الخيط الجديد الذي صار الورقة الرابحة في أيديهم؟

لدى الرجوع إلى المسيحية التي حمل لواءها القديس بولس نجد أنها حسمت نهيها بصراحة في تحريم الرجوع إلى الشريعة المكتوبة في العهد القديم حيث عدَّتها منسوخة بالعهد الجديد الذي لايجوزُ إطلاق المواعظ والتعاليم في الكنائس إلا من خلاله[1].

ولدى الرجوع إلى المصادر البروتستانتية نجد أن زعاماتها تبنَّت العهد القديم عهداً مقدَّساً[2] خُوطب به جميع المسيحيين تماماً كما العهد الجديد، لذلك أقدموا على سابقة لم يجرؤ عليها أحد، حين ضموا أسفار كل منهما إلى الآخر بين دفَّتي كتاب واحد أطلق عليه الكتاب المقدس أو «بيبل - BIBLE» فالجمع بين العهدين على النحو الذي أشرتُ إليه، وتقديس ماكان يجمعُ المسيحيون على نسخه، وانتهاءِ زمن العمل به، يعدُّ تحوُّلاً مخيفاً في المسيرة المسيحية بزعامة الفرقة البروتستانتية الصاعدة، لما فيه من انقلاب على الإجماع المسيحي والعقيدة المسيحية في هذه القضيَّة، ذلك أنه انقلابٌ على السيد المسيح عليه السلام الذي حذَّر من طائفة الحاخامات التي كات تتلاعبُ

(١) المسيحية لم تحَصِّنْ نفسها من الرويات المكتوبة المعروفة بالعهد القديم فحسب، بل حصنَّت نفسها أيضاً من المرويات الشفهية التي عُرفت منذ عهد السيد المسيح بالمشنا وهو المتن الذي يشكل مع الجمارة - الشرح - نصوص التلمود فأعلنت منذ القديس بولس تحريم الرجوع إلى المرويات الشفهية للفريسيين استناداً إلى خطورتها وإلى تنديد السيد المسيح عليه السلام بالطائفة الفرِّيسيَّة.

(٢) ليس هذا فقط، فالنسخة التي تبناها البروتستانت هي الماسوره وهي المكتوبة باللغة العبرية. والمعتمدة لدى اليهود بينما النسخة التي تعتمدها كل الطواف المسيحية الأُخرى هي الفولكات وهي تختلف عن الماسوره كلَّ الاختلاف، وتقترب إلى حد كبير من السبتاجنت النسخة التي كانت معتمدة لدى المسيحيين، والتي كانت تقرأ في الكنائس القديمة حتى القرن السابع الميلادي. ولقد بلغ الاختراق اليهودي للمسيحية أن البروتستانت عدوا الفولكات منحولة وسمَّوها العهد المنحول، بالرغم من اعتماد المسيحيين القدامى لمضمونها.

بالدين حسب هواها في زمانه، والتي أكثرت نصوص الإنجيل من التحذير منها، وانقلابٌ على القديس بولس وسائر القديسين المسيحيين الذين حرَّموا وبالغوا في تحريم العمل أو الوعظ أو التقديس لنصوص العهد القديم. النهضة اليهودية وحركة الانقسام الديني هي التي فرَّخت الجمعيات المسيحية المتصهينة هناك، حتى وجدنا الفاتيكان اليوم، والذي كان على طول الزمان الماضي يقف سداً منيعاً في وجه خرافات العهد القديم، نجده وقد تراجع ثباته، ولاأدل على ماأقول من تصريح فاتيكانيٍّ في لبنان في إحدى زيارات البابا بأن السيد المسيح هو الابن الرئيسي لليهود! أليس هذا هو عين مارمى له مارتن لوثر في أول كتاب ألفه بعنوان «المسيح يهودياً»!!!؟[1].

إنَّ رؤية السيد المسيح عليه السلام من خلال التوراة لن تعطي صورة للمسيح الحقيقية وإنما صورة للمسيح المتصهين، تماماً مثل فلسطين فرؤيتها من خلال التوراة لن تؤدي بنا إلى معرفة الوجه الحقيقي لها، وإنما هي صورة لفلسطين المتصهينة التي صار اسمها إسرائيل!

إن السيد المسيح مبارك، وفلسطين الغالية مباركة، وإنَّ كلاً منهما ليس محلَّ مزاودة من أحد، فالسيد المسيح عليه السلام هو أول وأخطرُ من تصدى للمشروع التلمودي، وللطموحات اليهودية المتطرفة، وللغلو في الدين، واستغلاله في تلك العصور، وهو ماأدَّى باليهود للوشاية به سعياً منهم للتخلص من خطره لكن الله نجَّاهُ، ورفعه إلى جواره الكريم في السموات، وهو الذي سينزله إلى الأرض في آخر الزمان ليتم مابدأهُ من سحق المشروع الفريسي، وليعلن للمسيحيين والمسلمين ولكل الناس أنَّ الدين عند الله واحد، لذلك أولُ من يعلن الولاء له هم المسلمون، وفي مقدمتهم العرب.

والسيد المسيح عربي، من هذه المنطقة العربية ذاتها، ومِن قلبها النابض المسمّى فلسطين، انحدر من صلب إبراهيم الآرامي، وهو عربي، انتمى إلى الموجه الآرامية بشهادة التوراة، وهي إحدى الموجات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية أما إسماعيل فهو عمه، وأخوال إسماعيل من قبيلة جُرْهُمْ العربية فهم أخوال عمه، أما أبناءُ إسماعيل العرب فهم أبناء عمومته، فهو منهم وإليهم.

---

(١) جاء في تبرير ما أُعلن أنَّ الفاتيكان يحاول منع غُلُوْ المسيحيين ضد اليهود، بهدف إحلال التهدئة!.

فما هو موقع اليهود في هذه المعادلة؟

اليهود هم ألدُّ أعدائه، وهم الكفارُ الذين أنكروه ووشوا به بعد أن تصدَّى لهم، وصدق اللهُ حين قال في عيسى وحواريّه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فأصحابُ عيسى الحواريُّون هم أهلُ الرِّفعة والمقام السامي. أما اليهود فهم الذين كفروا به ونابذوه العداء، ولا أدلَّ على ماأقول من حديث السيد المسيح عن الفريسيين بالعميان والجهال والكذبه وسائر نعوت الإضلال والإفساد[١].

وفلسطين أَرض عربية كنعانية دخل عليها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأبناؤه غرباء عن فلسطين بشهادة التوراة نفسها كما مرّ.

ومادام السيد المسيحُ عربيَّ الأصل والأرض، فإن المسيحيين العرب لايدخلون في دائرة هذا الاختراق الذي أحدثته أيدٍ يهودية صهيونية، لذلك فإني لاأتحدث عن المسيحة على العموم، بل أخصُّ مسيحية أوربا التي انتشر في شمال غربها المذهبُ البروتستانتي[٢] وكذا في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو مايمثل التيار الغربي اليوم.

أما المسيحيون العرب فإنهم في هذه المسألة قد أجمعوا أمرهم، وقد كان لهم الموقف الواضح من الصهيونية العالمية، وهم مايزالون يرون أن العهد القديم منسوخ بالجديد، وأن العهد الجديد موضع التقديس ويغني عن القديم، ومنه فقط تلقى موعظة الأحد في جميع الكنائس، كما أننا لاننسى ماتعرَّض له المسيحيون العرب بسبب مواقفهم في وجه المشروع الصهيونيِّ التلموديِّ، وهل نَغْفُلُ عن تمسك قساوسة كنيسة القيامة بعروبة القدس وفلسطين، وفي آخر ماوصل سمعي وليس آخراً إعلان البطريرك ميشيل صباح رئيسُ إحدى الطوائف المسيحية في فلسطين بوجوب رفع يد اليهود عن المسجد الأقصى وبحق المسلمين والمسيحيين في المدينة المقدسة حصراً.

---

(١) هذا كثير في بداية إنجيل متى.

(٢) انتشر في شمال غرب أوربا باستثناء إيرلندا وجنوب ألمانيا.

كما أن ممثلين عن مسيحي العرب كان لهـم حضـور ومشاركة في مؤتمر القـدس الذي عقد في اليمن أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربية في عمان من العام ٢٠٠١م ، للدفاع عن المدينة المقدسة في وجه العربدة اليهودية فيها ، ومخططاتها الهدامـه ، هـذه المشـاركة توضحُ بجلاء ما أرمي إلى بيانه .

ثمرة الاختراق ، أنَّ العهد القديم يملِّكُ فلسطين لليهود في وَعْدٍ توراتي مشؤوم ، فإذا كان العهدُ مقدَّساً فعلى المسيحيين العمـل على تنفيـذ تعليمـات الـرب ، ومسـاعدة اليهود في تحقيق مانادى به الكتاب المقدَّس ! .

وبهذا يتضح لنا أن طبـع العهـد القديـم مـع الجديـد في نسـخة واحـدة ، وتقديس متبادل كـان أقصـر طريـق لتوجيـه سـهام اليهـود للمسـيحيين ، وهـو الـذي شـكل نقطـة الضعف في الدفاعات المسيحية ، وهو ماصرَّح به آرنولد تونب .

من آثار الفرقـة البروتسـتانتية الناشـئة ، أو المسـيحية المتصهينـة اللاحقـة أنْ وقـف مسيحي متنفذ في بريطانيا هو توماس بريتمن يدعو إلى إعادة اليهود إلى فلسطين ، ومن ثَمَّ تلاه آخر في مجلس العموم البريطاني ، ومن ثَمَّ تتالت الدعوات ! .

ومن آثار ذلك أننا صِرْنا نسمع منذ الثمانينات دعوات لاعتمـاد الكتـاب المقـدَّس المصدر الرئيسي للتعليم مع أن العهد الجديد كان دائماً وحده المصدر الرئيسي للتعليم .

ومن آثار ذلك أن الذي أنجز حريق المسجد الأقصـى في القـدس لـم يكـن يهوديـاً وإنما هو مسيحي متصهين[1] .

ومـن آثـار ذلـك أنَّ جميـع الزعامـات الأمريكيـة ومنـذ زمـن بعيـد هـي زعامـاتٌ بروتسـتانتية ، أي تعتقـد في جوهرمذهبهـا البروتسـتانتي عقيـدة تحقيـق الوعـد التوراتـي المكذوب ! لذلك فإن جميع زعماء أمريكا صرَّحوا بحق اليهود في فلسطين !

ليت هذا فقط هو ماصدر عنهم .

إنهم يغضـون الطرف عـن ممارسـات اليهـود ، وممارسـات الحكومـات الصهيونيـة في فلسطين ، في سعيها الحثيث لتقويض أركان المسجد الأقصى تمهيداً لإقامة الهيكـل المزعـوم !

---

(١) نسب إلى زمرة المعتوهين ، وكأن المجانين لايخرجون إلا على مقدسات المسلمين .

ومنذ الثمانينات والدم الفلسطيني يُبْذل متواضعاً فداءً للقدس والأقصى، لكن شلاله لم يتوقف، والنفق الأول افتُتح أمام السائحين الأجانب، وتستطيع أن تشاهد في نهايته مجسماً تحت الأرض لهيكل سليمان حيث استُبدلَ بكل شبر من الحرم القدسيِّ الشريف شبرٌ مكانه من الهيكل المزعوم، دون أن يصدر عن حُماة حقوق الإنسان والأديان هؤلاء تنديد يُذكر، فضلاً عن صدور وقرارات تأديبية تَردُّ الأمرَ إلى نصابه، وتعيدُ الحق إلى أصحابه، لا، بل إنَّ علمانيِّ تلك البلاد بسكوتهم تارة، وإعراضهم أخرى، وبالفيتو الأمريكي الذي يستعبد الأمم، ويدوس المقدسات، يشاركون في هذه الجريمة، في الوقت الذي يصرخون عالياً على تمثال بوذا في أفغانستان وليس في بلاد الأفغان بوذيٌّ واحد!!!.

لماذا؟ لأنَّ العقيدة اليوم في المذهب البروتستانتي وبعد عدة مراحل من التلاعب والتطوير صارت تتبنى القيامة الثانية للسيد المسيح عليه السلام. لكن اليهود استطاعوا ربط هذا التبني بالهيكل، فالبروتستانت اليوم يعتقدون أن قيامة المسيح المباركة لن تأتي إلا بعد تحقيق أمرين اثنين: الأول: قيام دولةإسرائيل وقد قامت، والثاني تجسيدُ الهيكل على أنقاض الحرمِ القدسي الشريف وهو مايركضون لاهثين لأجل تنفيذه.

فاللوبي اليهودي لايمسك بمفاتيح السياسة والاقتصاد في أمريكا فحسب، بل بمفاتيح الفكر أيضاً في أمة غدت أسيرة في سجن كبير اسمه أمريكا بعد أن تعرَّضت لغسيل دماغ متكرر، من خلال الإعلام ورجال الدين الذين تحكمت في مسيرتهم أيدٍ أمسكت بأجهزة التحكم بهم عن بعد حتى صاروا دُمى وببغاوات، حركتُها قسرية، وكلماتها ترديدٌ لاأكثر.

اليمين المتصهين، أو المسيحية المتصهينة في أمريكا ليست أفراداً، وإنما هي قوة نافذة، وصل عدد أتباعها قبل سنوات إلى سبعين مليوناً في الولايات المتحدة وحدَها، بينما يُقدَّرُ اليوم بتسعين مليوناً فقط في حين أنها تمتلك ستة آلاف محطة بث إذاعية، وخمسة آلاف محطة بث مرئية ـ تلفزيونات ـ.



قد تصدم هذه الحقائق بعض الناس، فيعتقدون خطأ أنني أتحرك ضمن دائرة ضيِّقة من التعصب الديني مبنية على رفض الآخر! وبالتالي فأنا أرفض اليهودي لأنه ليس مسلماً!

رغم تعجبي من الافتراء وقائله، ورغم اتصاف صاحبه بالجهل بالإسلام ودعاته، فإنني سأُوْضح في رَدِّي عليه الحقائق التالية:

الدينُ الإسلامي دين التنوع منذ لحظاته الأولى حيث ضم بين كبار الصحابة بلالاً الحبشي وهو أسود، ورفعه حتى صارَ مؤذن الإسلام البار، وضمَّ سلمان الفارسي الذي قال فيه المصطفى عليه السلام: «سلمان مِنَّا آل البيت». وضم صهيباً الرومي الذي كان ينتمي إلى أُمةٍ أخرى.

وفي ظل الدولة الإسلامية البكر في المدينة، ومع بزوغ أول خيوط فجرها كان اليهود في جوار المسلمين وأمانهم ضمن معاهدة دفاعٍ مشترك تحفظ الإنسان والأديان. وكان من أبرز مانزل على رسول الله ﷺ في القرآن الكريم القاعدة الإسلامية التالية: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فالإيمان بموسى عليه السلام جزء من عقيدة المسلم في إيمانه بمحمد ﷺ، والإيمان بتوراة موسى جزء من إيمان المسلم بالقرآن الكريم، وكذا نقول في الإيمان بالسيد المسيح عليه السلام وإنجيله.

ومع أن المسلم يعتقد تسلل التغيير إلى كل من التوراة والإنجيل إلا أنه لايعادي أتباع كل منهما بسبب دينه، لكن المشكلة أنَّ الدين عندما يصبحُ إيماناً بإله خاص وبأرضٍ خاصة! وبشعب خاص! وعندما يكون هذا الإله تدميرياً يعشق الدماء ويدعو أتباعه ليتقربوا إليه بقتل الأطفال والشيوخ والنساء! عندما يكون مزاجياً قبلياً طائفياً متعصباً! وعندما لايكون همه من الخلق إلا شعبه المختار ـ حسب مزاعمهم ـ وعندما يطلق الوعود التي تفتح أبواباً من الحروب والخراب والتشريد والدمار ولعشرات السنين! عندما يكون هذا هو مفهوم الدين اليهودي فإنه حينئذٍ لن يتعارض مع الإسلام والمسلمين، بل مع المسيحية والمسيحيين أيضاً، بل ومع كل الأعراف الدولية من دينية وعلمانية وبوذية و

الإله الذي يؤمن به المسلمون والمسيحيون وكل الناس هو ربُّ العالمين والإله الذي يؤمن به اليهود هو رَبُّ إسرائيل!

الإله الذي يؤمن به المسلمون هو الرحمن الرحيم، والذي يؤمن به المسيحيون هو إله السلام، أما الذي يؤمن به اليهود فهو ربُّ الجنود، ربُّ الحروب، ربُّ الدماء والبراكين!

وهنا الخطر الذي يتهدد الإسلام والمسيحية على حد سواء :

فعندما تؤمنُ جماعاتٌ مسيحية بأنَّ شعبَ الله هو الشعبُ اليهودي وهو الشعبُ المختار[1] !

وعندما تؤمن جماعاتٌ مسيحية بأن فلسطين هي الأرضُ الموعودة !

عندما يطفو هذا الإيمان على السطح فإنَّ المسيحية في خطر ، وإنني أُهيب بجميع المسيحيين التدارك قبل فوات الأوان ، لأنَّ الإيمان الثلاثي هذا يشكل الخصائص الرئيسية لليهود ، فهذا هو التهود للمسيحيين الذي بدأ من اعتقاد مارتن لوثر بأن المسيح كان يهودياً والذي انتهى بتهود المسيحية ، أو ماقلتُ عنه إنه صهينة المسيحية .

لقد هيَّأت الفرقة البروتستانتية المناخ لتهويد المسيحيين في تبنيها للعهد القديم ، ولذلك وجدنا كارتر وريغن وبوش وكلينتون وبوش الابن نسخةً مكررةً لاتلمح بين بعضها اختلافاً إلا في تجاعيد وجهها فقط .

وبالفعل فإنَّ التاريخ يحدثنا عن جماعات الكلوريتايين من المسيحيين وأنها كانت قد تهوَّدت تماماً[2] .

الأمل في رأيٍّ معقود على مسيحي العرب لكي يضعوا اليد صادقة في التحام مع المسلمين للوقوف بوجه تهويد المسيحيين ، وتعطيل عجلة المشروع التلمودي الذي لاتنذرُ طلائعه إلا بكل بشرّ ، فإنَّ عداء التلموديين للسيد المسيح وللمسيحيين ليس ضعيفاً وبوسع أي مسيحي أن يقرأ عن علاقة أوربا بالتلمود ليضع يده على هذه الحقيقة .

---

(١) هذا ما يجب أن نتصدى له ، لكنه عند الغربيين حديث في الممنوع لذلك أقول : الدليل الذي ما بعده دليلٌ على تبني علمانيٍّ الغرب للوعد التوراتي في الأرض والشعب والإله المزعوم ، مايفاجئنا به ساسة أوربا وأمريكا من اطلاق التصريحات القاسية ما إن يرفع زعيم عربي غيور صوته بكلمة الحق ، ويدعو إلى الانصاف والاعتدال ويتناول بحديثه العنصرية في الإيمان بالإله الخاص ! والعرق الخاص ! والأرض الموعوده ! ، وكأن الحديث عن ذلك من المحرمات الدولية ، بينما الطعن بالذات الإلهية أو إنكارها ، وإساءة الأدب مع أنبياء الله أو تكذيبهم من المباحات التي يتسع لها صدر «ديمقراطيتهم» ! .

(٢) إذن الصراعَ اليوم ليس مع اليهودفقط ، وإنما مع عشرات الملايين الذين تشبعوا بالأفكار الصهونية

هذا هو الوجه الآخر لعلمانيٍّ أمريكا والغرب تتجلّى ملامحه من خلال نفوذ اللوبي اليهودي دينياً وسياسياً واقتصادياً في أمريكا، ومن خلال نفوذ الأصولية الدينية المسيحية البروتستانتية التي تتحكم بها أجهزة النفوذ اليهودية من بعيد. فالعلمانية عندهم ليست فصل الدين عن الحياة، بل هي اقصاءٌ للدين عن الدولة في جزئيات الأحكام، أما الكليات فالعقيدة الدينية ولوكانت متعارضة مع العلمانية فإنها هي التي تتحكم في توجهات العلمانيين هناك.



بهذا يكون الموضوع قد اكتملت ملفاته في تقديري، بيد أني أجدُ من الخيرِ إتباعه باستفسار يتردَّدُ كثيراً على الألسنة.

يقول السائل: ألم يعترف القرآن الكريم بأفضلية بني إسرائيل، فلماذا تنكرونها عليهم؟

أليس في كتابكم تفضيلٌ لكم على سائر الأمم؟

ماهو الفرقُ بين خيرية الأمة المحمدية، ودعاوى شعب الله المختار؟

أقول في الجواب: بلى، أَثْبَتَ كتابُ الله القرآنُ الأفضلية لبني إسرائيل في أكثر من موضع منه، من مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧].

هذه الأفضلية كما يقول أهل العالم هي على عالميِّ زمانهم ثم إنها ليست على إطلاقها، أي: ليست نابعة من نظريةٍ عرقية أو نسبية أو قبلية. تستطيع أن تدرك ذلك إذا ربطت أول الآية بآخرها، فالتفضيل رَهْنٌ بذكر نعمة الله، وذكرُ النعم شكرها، والشكرُ صَرْفُ كل ماأنعمَ اللهُ به على العبد في طاعة مولاه، فإن ساروا على منهج الله

= حتى إنه من الصعب علينا تحديد الخط الفاصل بين اليهودية والمسيحية المتصهينة، أي في الغرب.

كان لهم الفضل وإلاَّ ضُرِبَتْ الذلةُ عليهم. لذلك قال الله عنهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]. كما أخبر القرآن عن الذلة التي ضُرِبَت عليهم في قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وحَبْلُ الله منهجهُ لكنهم قطعوه، فالفضلُ ينالهُ من اغترف من معينه كالعلم يسمو به من ثابر على تلقيه، وارتقى به في درجات العاملين، أما الانتسابُ وحدَه فدُوْنَ صاحبهِ خَرْقُ القتاد.

هذا المعنى يُكَرَّرُ في حق المسلمين. فالخيريَّةُ جاءتنا من الانقياد باختيارٍ لمنهج السماء الذي كفلَ لنا ربُّنا به تلبية حاجاتنا الروحية والجسدية والعقلية، وتعهد لنا بالسعادة الدنيوية والأُخروية، فالدينُ الإسلامي ينبوع خير، فمن شرب منه حصل فضلاً، وبمقدار مايعبُّ فينتفع وينفعُ بمقدار مايصيبُهُ من فضل، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فالإيمانُ بالله كما أَخْبَرَ الله عن ذاته العلية أصلٌ في هذه الخيريَّة وهو مانُعبِّرُ عنه بالعقيدة الصحيحة. والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر أصلٌ ثانٍ، وهو مانعبر عنهُ بالدعوة إلى الله في الدلالة على وجوه الخير، والتحذير من وجوه الشر، فالخيريَّة صلاحٌ والصلاحُ درجات، فكلما أعطيت أكثر بإخلاصِ النية لله، وموافقة العمل لشرع الله، كلما نلت من الخير أكثر، فأين هذا من دعوات العنصريَّة بالمعنى الذي يفهمه اليهود. لقد استباحوا الدماء والأموال والأعراض باسم الخيرية، وحَرَّم دينُنا علينا الدماء دماء الناس، ولو لم يكونوا مسلمين، وأموالهم وأعراضهم، وجعل لنا ذلك شرطاً للخيرية.

اليهودُ دينهم مُغْلَقٌ، فهم لايعرفون التبشير، فالنَّسبُ عندهم هو الأصل، لكن حتى هذا مختلف في ضوابطه بينهم فكم من يهودي أُلغيت يهوديته لأن أُمَّهُ لم تكن يهودية! أما الإسلام فإنه دينٌ تنوع منذ لحظاته الأولى، وهاهو سلمان الفارسي يصبح واحداً من المسلمين، وفرداً من آل البيت، وهاهو صهيب الرومي يستظل تحت راية

الإسلام، وهاهو بلال الحبشي الأسود يُسَوِي النبي ﷺ بينه وبين أبي بكر وسائر المسلمين، ولاتفاضُلَ إلا بالتقوى والعمل الصالح.

اليهودي لايعيشُ إلا منعزلاً خلف أسوارٍ عالية عرفت في بلاد العرب بحارات اليهود، وعرفت في أوربا في القرون الوسطى بالجيتو، وهي اليوم تعرفُ بإسرائيل، حتى اليهود الذين في الغرب في هذه الأيام لهم مدارسهم الخاصة، أما المجتمع الإسلامي فقد ضمَّ على أرضه نصارى الشام وقبائل اليهود، لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم لافرق في ذلك بين المسلمين وأهل الكتاب اللهم إلا ماكان ذا صِبغةٍ دينية بحتةٍ فهوِ بهذا ليس تمييزاً، لكن الواجبَ الديني يكلَّفُ به أتباع الدين نفسه، وليس من المعقول فرضُهُ على الآخرين.

فالإسلام جعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً يتصف بالتعددية منذ بداياته وهو كذلك إلى اليوم، لذلك فإن المسلمين الذين يقيمون في الغرب في عصرنا الحاضر يتعلمون في مدارس البلاد التي يسكنون فيها، ويعيشون بين أهلها يبادلونهم الزيارات والنشاطات مع احتفاظهم بهويتهم الإسلامية، فأين هذا من ذاك؟

ومع ذلك فإنني أصرِّح وأقول:

إن الخيرية ليست إرثاً إلهياً تتناقله الأجيال بمجرد الانتساب إلى الإسلام، لكنها عهدٌ وعملٌ، عهدٌ على أداء أمانة العقيدة والشريعة، وعمل على حفظها وتطبيقها ونشرها، فإنْ أدّيْنا ذلك وإلا فات القطار. فالأمرُ ليس اعتباطاً، ولم يكن في يوم كذلك.

الخيريةُ لاتتيحُ لنا ماحرَّمه الله ولاتجيز لنا الاستكبار على أحد من خلق الله وإن كان كافراً. والخيرية لاتعني تفضيلنا على غيرنا على أساسِ الجنس أو اللُّغة أو اللون، ذلك أنَّها عطاءُ خيرٍ للإنسانية فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر.



**أخيراً** فإنني أفترضُ صحةالأصل للوعد التوراتـي ، بمعنـى أن الله أخْبَرَ نبيَّهُ الخليل إبراهيـم بـأن أولاده سيفتحون فلسـطين وينشـرون فيهـا الخير والسـلام دون أن يحدِّد له هل هم أولاده من إسحاق أو أولاده من إسماعيل ، فالوعدُ على هذه الصورة ليس ميراثاً ، ولاتمليكاً ، ولاهدماً ولاتشريداً ، وهو أشبه بمعجزة تنبأ بهـا نبيٌ فتحققت بعـد زمـنٍ طويـل كتلـك التـي تنبَّـأَ بهـا رسـولنا محمـد ﷺ بفتـح بـلاد كسـرى وقيصـر ففتحت ، وبفتح القسطنطينية بقائد مؤمن ، وجيش إسلامي مخلص فجاءت بعد مئات السنين مثل فَلَق الصبح ، فاستدلت بها الأجيـال اللاحقـة علـى صـدق نبـوة محمـد ﷺ وكأنها عاينته وهي لم تره[1] ، وكذلـك الحـال بالنسبة لإبراهيـم الـذي أخبر عـن علـمٍ ووحي بأن الله سيرفع راية الإيمان في الأرض المباركة عاليةً خفَاقة ، وينظف ساحتها من الشِّرْكِ والوثنية والاستبداد على يد واحدٍ من ذريته ، وهو ماتحقق فعلاً علـى وجـهٍ راقٍ وراقٍ جداً يوم دخلـت جيـوشُ الإسـلام أرض الشـام ومنهـا فلسـطين ، وتربعـت علـى عرش عاصمتها القدس صلحاً لاحرباً ، وهي التي كانت قادرة على اقتحامها عنوة .

الوعدُ التوراتي إذا كان قد صحت نسبتهُ إلى إبراهيـم ، فإنهُ جوهرٌ يتلألأ بالضياء ، أما ماطرأ عليه من تعديلٍ فقد كسا الوعدَ بحلة قذرة أفسدته وأفسدت جوهره وأسقطت قدسيته .



المسألة الأخيرة في هذا الكتاب يحدثنا عنها الاصحاح الخامس والعشرون حين يذكرُ خبر وفاة إبراهيـم عـن عمر يناهز المائة والخمسة والسبعين عاماً ، وأنهُ دُفن من قِبَلِ وَلَدَيه

---

(١) من الأمثلة العلمية على ذلك إخبارُ النبـي ﷺ بفتـح رومـا عندمـا سئل أيُّ المدينتين تفتَـحُ أوَّلاً فأجاب القسطنطينية ثم «رُوْمِيَّه» أي رُوْما . هذا وعدٌ وهو معجزة لابد من تحقيقها لكن هل قال مسلمٌ ما إنه وعدٌ يستلزم تمليك المسلمين لروما؟! لا ، وإنما الجميع على أن المسلمين في يـوم آت لامحالة يفتحون روما . ومن يـدري لعـلَّ ذلـك يتـم بـالحوار فيسـلم جميـع أهلهـا أو معظمَهـم ويبقون لها حكاماً ولأرضها ملاكاً ، ويبقى مالقيصر لقيصر دون أن تمتد إليها يدنا إلا من خلال حق الجوار ، وحق الإسلام .

إسحاق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صُوحر الحثي وفي نفس الموقع الذي دُفنت فيه سارة امرأتُه عن عمرٍ بلغ مائةً وسبعاً وعشرين سنة في قرية أربع - حبرون - [1] .

ومما يؤخذ على الاصحاح أنهُ قَرَنَ ذكرإسحاق مع إسماعيل في عملية الدفن، مع أن التوراة تعمدت إقصاءه عن مسرح الأحداث، وذكرت أنه استقرَّ في برية فاران.



هذه خلاصةُ ماسَرَدَتْه التوارة عن سيرة الخليل لكن إبراهيم يظل أسمى من كل مانسب إليه من مزاعم القسوة والعنصرية والانتهازية ويكفيه فخراً أن الله اتَّخذه خليلاً من بين سائر خلقه، وأنه كوفئ على توحيده لله رب العالمين، وثباته على دعوة الناس إليه، بالتشريف ببناء الكعبة المعظمة قبلة الموحدين، وملاذِ الحيارى والمذنبين، واستجاب دعاءه في أهله والوادي الذي نزلوا فيه، والحج الذي هيأ له الأسباب إلى مكة على مدار الزمان. فاستحق أن يذكره القرآن في تسعة وستين موضعاً منه.



ولايسعني وأنا أطوي صفحة الحديث عن إبراهيم الخليل إلا أن أسوق حديثاً أخرجه الإمام مسلم في صحيحه يشيد فيه رسول الله محمد ﷺ بأبيه إبراهيم بأقصر عبارة وأبلغها، حين قدم عليه رجلٌ يخاطبهُ بقوله: «ياخيرَ البريَّة» فأخبره نبينا محمد ﷺ عن صاحب هذا اللقب قائلاً: «ذاك إبراهيم عليه السلام» [2] .

(١) خبر وفاة سارة أتى عليه الاصحاح الثالث والعشرين من أوله إلى منتهاه.

(٢) أخرجه مسلم من رواية أنس بن مالك رقم ٢٣٦٩ جـ ١٥ باب فضائل إبراهيم عليه السلام.

# فهرس أبحاث الكتاب